الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان

كلّية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

قسم اللغة العربيّة وآدابها

رسالة مقدمة لنيل دكتوراه دولة في النقد الأدبي بعنوان:

صورة الممدوح في الشعر الأندلسي

عهد الطوائف

أعدّها: الغوثي ، العربي الشريف.

أشرف عليها الأستاذ الدكتور: زبير وراقي.

أعضاء لجنة المناقشة:

و/محيي الدين محمّد	ـأستاذ محاضر،	جامعة تلمسان،	رئيسا.
أ.و/وراقي زبير	ـأستاذ التعليم العالي،	جامعة تلمسان،	مشرفا ومقرّرا.
و/ كروم بوسرين	ـأستاذ محاضر،	جامعة تلمسان،	عضوا.
و/ سلطاني الجيلالي	ـأستاذ محاضر،	جامعة وهران،	عضوا.
و/ باتي محمّد	ـأستاذ محاضر،	جامعة سيدي بلعباس،	عضوا.

السنة الجامعية: 1428- 1429 / 2007- 2008

شكر وتقدير

أتقدّم بالشكر الجزيل إلى أستاذي المشرف، الأستاذ الدكتور دراقي زبير على توجيهاته السديدة ونصائحه القيّمة، وعلى المجهودات التي بذلها في متابعة هذا العمل من بدايته إلى نهايته. كما أتوجّه بجزيل الشكر إلى الأستاذ الدكتور حمس الأمراني بجامعة وجدة على تفضّله بالإشراف على هذا البحث في بدايته، وأتوجّه بخالص الشكر إلى الأستاذ الدكتور علي أبو زيد بجامعة دمشق على مشاركته في وضع اللمسات الأخيرة على هذا البحث.

والشكر لله، جلّ في علاه، أوّلا وأخيراً.

الإهـــداء

إلى والديّ الكريمين، "رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا" وإلى زوجتي وأولادي كلّ

واحد باسمه أهدي حصاد هذا العمل آملا أن أكون قد قدّمت خدمة للأدب

العربي في الأندلس.

المقدمة

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم، وصلّى الله وسلّم على نبيّنا الكريم، وعلى
آله وصحبه أجمعين. ﴾

مقـــدّمة

لمّا كانت هذه الدراسة تدور حول " صورة الممدوح في الشعر الأندلسي، عهد الطوائف "، وقد تعرّضنا في مدخلها لتسليط الضوء على غرض المدح وفضائل الممدوح، والصورة الشعرية، نرى من المفيد أن نلقي نظرة سريعة على عصر الطوائف لاستكمال عناصر الموضوع ، واتّضاح مجال بحثه.

وقد استخلصنا في مدخل دراستنا للأدب في المريّة في عهد بني صُمادح ، أنّه لم يكد نجم بني أميّة يبدأ في الأفول حتّى طفق كبار الجند وأصحاب السلطة من ذوي المراكز العالية يعلنون انفصالهم عن مركز الخلافة الأمويّة بقرطبة ، وبدأت تلك الوحدة التي شملت الأندلس زمنا غير قصير تتمزّق وتذهب ريحها ، ولم يبق عهد القوّة والمنعة ورهبة الجانب التي شهدتها الأندلس في عهد عبد الرحمن الناصر (300-350هـ)، وابنه الحكم المستنصر (350-366هـ)، ثمّ في عهد دولة الحاجب المنصور بن أبي عامر (ت 392هـ) وابنه عبد الملك (ت 399هـ) من بعدهما إلاّ في عداد الذكريات.

وبعد اشتداد الصراع بين أمراء البيت المرواني، يعدّ هشام بن عبد الملك المعروف "بالمعتدّ بالله " المؤيّد آخر خليفة من السلالة الأمويّة . وبخلعه تمّ استيلاء أبي الحزم ابن جهور على قرطبة ، وانتهى عهد الخلافة الأمويّة سنة (422هـ) حسب اتّفاق معظم المؤرّخين ودخلت الأندلس بصفة رسميّة في عهد ملوك الطوائف .

ومن ملوك هذا العهد وحكّامه المشهورين، بنو جهور - موالي الأمويّين - وعلى رأسهم أبو الحزم بن جهور، ودام حكمهم إلى سنة (461هـ) ، وبنو عبّاد

ويضعهم في السجون، باستثناء أخيه يوسف الذي صمد في وجهه، وامتنع عليه. واستمرّ ملك بني هود بسرقسطة إلى أن سقطت في يد الفرنجة عام (512هـ).

واشتهر إلى جانب هؤلاء بنو الأفطس ببطَلْيَوْس، وأشهرهم المظفّر بن الأفطس (437هـ-445هـ)، وابنه المتوكّل، وفي عهد هذا الأخير سقطت بطليوس في يد المرابطين سنة (488هـ). وتعود بدايتها إلى ما بعد سنة (413هـ)، حين انتزى عليها أبو محمّد عبد الله بن مسلمة المعروف "بابن الأفطس". كم اشتهر بنو زيري بغرناطة بدءا من سنة (403هـ)، ومن أشهرهم باديس بن حبّوس ، وعبد الله بن بلقين صاحب كتاب التبيان ، وفي عهده سقطت غرناطة في يد المرابطين سنة (483هـ).

وقد ظهرت على الساحة دول أخرى كان لها شأنها في تاريخ الطوائف،كبني القاسم الفهريّين في البونت، وبني رزين أصحاب السهلة، وكبار الفتيان العامريين بشرق الأندلس، ومنهم خيران العامري صاحب أريولة ابتداء من سنة (404هـ)، ثمّ مرسية سنة (407هـ)، ثم جيّان فالمريّه سنة (409هـ) متخذا إيّاها عاصمة له ، وأبو الجيش مجاهد العامري صاحب دانية والجزائر الشرقيّة. كما حكم بنو حمّود العلويّون وعلى رأسهم عليّ بن حمّود الملقّب بـ "الناصر لدين الله " كلاّ من قرطبة ومالقة والجزيرة الخضراء وإشبيلية ابتداء من سنة (407هـ).

وعلى الرغم من كلّ هذا الاضطراب السياسي، والحروب الطاحنة التي دارت بين هؤلاء ، فقد شهدت الأندلس في هذا العهد نهضة أدبيّة واسعة ممّا جعلنا نختار لبحثنا هذه الحقبة الزمانية ، كما أنّ غياب الدراسات الأكاديمية الخاصّة بالصورة الفنّية في الشعر الأندلسي جعلنا نشقّ هذا الطريق بدراسة صورة الممدوح في عهد الطوائف، ولما ناله غرض المدح في هذا العهد على وجه الخصوص من اهتمام ملحوظ من الملوك والشعراء على حدّ سواء .

وختمنا البحث باستخلاص أهمّ النتائج التي توصّلنا إليها في هـــذه الرســـالة. وأردفنا ها بقائمة لأهمّ المصادر والمراجع المعتمدة.

و إنّنا لنرجو أن نكون قد قدّمنا خدمة لأدبنا العربي في الأندلس بوجه عـــام، وللغتنا العربية الغالية عندنا، الحبيبة إلى نفوسنا، على وجه الخصوص.

ولا يفوتنا أن نثنّي بجزيل الشكر إلى الأستاذ المشرف الدكتور دراقـــي زبـــير الذي عمل جاهدا على أن تؤتي هذه الرسالة أكلها على هذا النحو، وإلى لجنة المناقشة المحترمة التي لا شكّ أنّ تقويمها لهذه الرسالة، وإبداء ملاحظاتها على ما يكـــون قـــد اعتراها من نقص سيدفع بها قدما.

وما توفيقنا إلاّ بالله، والصلاة والسلام على رسول الله، والحمد لله ربّ العالمين.

مدخل إلى غرض المدح والصورة الشعرية

أ﴾ ـ غرض المدح

ب﴾ ـ فضائل الممدوح

1﴾ ـ لمحة عامة عن الفضائل

2﴾ ـ الفضائل الأربع ﴿مسكويه نموذجا﴾

جـ﴾ ـ الصورة الشعرية

مدخل إلى غرض المدح والصّورة الشعرية

1-غرض المدح:

إذا تتبّعنا غرض المدح في سياقه التاريخي يتبيّن لنا أنّه لم يكن من الأغـــراض الشعرية الأولى التي عرفها العرب. وأكبر الظنّ -كما يقول الدكتور عبد العزيز عتيق- أنّه تأخّر في الوجود عن فنون الشعر التي يتغنّى فيها الشاعر بعاطفته كالغزل مثلا.ولم تكن العرب في عصورها الأولى تعرف شاعرا يتكسّب بالمدح، ولا نكاد نجد في شعر امرئ القيس أو شعر المهلهل ومعاصريهما مـــديحا مبنيّـــا علـــى التملّـــق وتصـــنّع الأخلاق.ويرى الدكتور عتيق أنّ ذلك راجع إلى كبرياء العربي واعتماده على نفسه[1] .

وظلّ الأمر كذلك حتّى نشأ النابغة الذبياني ، فمدح الملوك وقبل الصّلة على الشّعر، وخضع للنعمان بن المنذر رغبة في عطائه، فسقطت مترلته كما يقول بعضهم، ويقال:إنّه استغنى من عطاء الملوك حتّى كان أكله وشـــربه في صـــحاف الـــذهب و الفضّة.أمّا زهير بن أبي سلمى فنال أعطيات هرم بن سنان.وقـــد أشـــاد عمـــر بـــن الخطّاب(ر) بمدحه،لأنّه كان صادقا لا يمدح الرجل إلاّ بما فيه[2].

وجاء الأعشى بعد النابغة، فجعل الشعر متجرا يتّجر به نحو البلدان. وعلـــى الرغم من أنّ النابغة أسنّ منه وأقدم شعرا، فإنّ أكثر العلماء-على حـــدّ تعـــبير ابـــن رشيق-يقولون:" إنّ الأعشى أوّل من سأل بشعره. ثمّ جاء الحطيئة، فأكثر من السؤال بالشعر وانحطاط الهمّة فيه.

وأمّا أكثر من تقدّم -يضيف ابن رشيق-"فالغالب على طباعهم الأنفة مـــن السؤال بالشعر، وقلّة التعرّض به لما في أيدي الناس، إلاّ فيمـــا لا يـــزري بقـــدر ولا

---

1)ينظر الأدب العربي في الأندلس،دار النهضة العربية.بيروت،1976،ص 183.

2)ينظر العمدة في صناعة الشعر ونقده،تح د/ مفيد قميحة،دار الكتاب العلمـــي،بيروت،1983، 63/1، الشـــعر الجاهلي تطوّره وخصائصه الفنّية،د/يحي الدين زيان،دار المعارف،القاهرة،دت،ص31.

مروءة..والشاعر إذا لم يكن به اضطرار تحلّ به الميتة، ووجد البلغة والكفاف، فلا وجه لسؤاله بالشعر". [3]

وهكذا يروى أنّ جميل بن معمر ترفّع عن المدح، فلم يمدح بشعره إلاّ ذويه وقرابته. وكذلك كان شأن عمر بن أبي ربيعة، و به تشبّه العباس بن الأحنف لأنّه كان ممّن أنف عن المدح والهجاء تظرّفا.[4]

وتميّز العصر الأموي بكثرة المدح والإطالة فيه، ويقال:إنّ كثير عزّة هو أوّل من فعل ذلك، وأنّ جريرا هو أوّل من استنّ إطالة الهجاء، وتقصير الممادحة على أساس أنّ أوّلها ينسى، وآخرها لا يحفظ.[5]

وكان لجود خلفاء بني العباس وأمرائهم ما شجّع الشعراء على احتراف المديح، وأغراهم بالتفنّن فيه تلبية لمشاعر هؤلاء الخلفاء ورغبة في عطائهم. فلمّا كثر شعر المدح واتُّخذ أداة للتكسّب والارتزاق هاجمه بعض النقاد لما فيه من تزيّد وتصوير بعيد عن الواقع ، إلاّ أنّ ذلك لم يؤثّر التأثير الكافي في المدّاحين ومدحهم، ومضى أكثر الشعراء في كلّ موطن يمدحون "ولا يبالون بالكذب في سبيل المال والجاه " -على حدّ تعبير الدكتور عبد العزيز عتيق-[6].إلاّ أنّه ليس من الصواب-كما يقول الدكتور صلاح خالص-"عدّ شعر المديح مجرّد اختلاق محض، ورياء كاذب.فالواقع أنّ الشاعر عندما يمدح، يحاول أن يرسم شخصية مثالية تتمثّل فيها كلّ الصفات التي يقدّرها المجتمع، وقد تكون بعيدة كلّ البعد عن الممدوح، إلاّ أنّ الشاعر يحاول طبعا أن يربطها بشخصيته "[7].

---

3) العمدة ،64/1 .

4) ينظر نفسه،65/1.

5)ينظر نفسه ، 343/2 "باب المديح"

6) الأدب العربي في الأندلس،184و185.

7) إشبيلية في القرن الخامس الهجري،دار الثقافة،بيروت،1965ص 88و98.

وينتهي الدكتور خالص إلى أنّ الدراسة لهذا النوع من الشعر " يجب أن تكون قائمة على هذا الأساس:أي اعتبار كلّ قصيدة مدح صورة لشخصية مثالية يرسم الشاعر خطوطها بعد أن يستوحي صفاتها من القيم الخلقية للمجتمع. ومن النادر أن نجد شاعرا مادحا يستقصي فعلا صفات الرجل الممدوح وهو يظم قصيدته".[8]

والواقع أنّ مسألة الصدق والكذب في غرض المدح قائمة، مادام الدارس لهذا الغرض يحاول أن يتعرّف به إلى الشخصيات التاريخية، ومادام الخيال ركنا من أركان الفنّ الأساسة، إذ ليس هناك " سوى عدد قليل من المؤلّفات الفنيّة التي استقت موادّها من الحياة مباشرة...وحتّى عندما يستخدم الفنّان شخصيات واقعيّة لإبداع صوره الفنّية فإنّه يغيّر أشكالها ويبني مصائرها بصورة أخرى ".[9]

وتظلّ هذه المسألة مطروحة مادامت عمليّة الإبداع الفنّي-بغضّ النظر عن اختلاف الآراء فيها-"تنطوي على كثير من العناصر الشعورية، واللاشعورية، التي تتداخل وتتشابك فيما بينها حتّى ليكاد يعسر على الفنّان نفسه أن يحدّد لنا بدقّة دور كلّ من الشعور واللاشعور في صميم تلك العمليّة "[10]

بيد أنّ الملاحظة البارزة الهامّة التي تواجه دارس هذا الفنّ بصورة عامّة، هي أنه ليس كلّ قصيدة مدح ترسم شخصية مثالية.والشواهد على ذلك متوفّرة في الشعر العربي قديمه وحديثه، نشير منها إلى مدائح زهير،ومدائح ابنه كعب، ومدائح حسّان بن ثابت الإسلامية.

---

8) السابق، 89

9) أسس علم الجمال الماركسي اللينيني ، جماعة من الأساتذة السوفيات، تعريب د/فؤاد مرعي دار الجماهير العربية،دمشق،1،1978/288.

10) مشكلة الفن، د/ إبراهيم زكريا، دار مصر للطباعة،القاهرة، دت،161.

ولعلّ هذا ما قصده الدكتور صلاح خالص بقوله المذكور آنفا، وهو مدح نادر قليل النظير فعلا. كما أنّ الدكتور عمر الدقّاق في دراسته لابن زيدون لاحظ أنّ مديحه لابن جهور " يمتاز بأنّه مغاير لما عهدناه لدى كثير من الشعراء الذين يجزلون ا لصفات لممدوحيهم بحيث تبدو قصائدهم متشابهة أو متماثلة تصلح لأن تقال في هذا وذاك دون أن تحمل السمات الحقيقيّة للممدوح، فابن جهور الذي نقف على ملامحه في قصيدة ابن زيدون[1*]، هو نفسه الذي عرفناه في صفاته وسجاياه من خلال كتب الأدب والتاريخ. إنّه لم يجعله مثالا للشجاعة والكرم على غرار ما درج عليه المدّاحون، بل رأى فيه رجل سلام، وبهذه الصفة عرف ابن جوهر بين معاصريه حين جنّب قومه بحكمته كثيرا من سفك الدماء ".[11]

وهذا الكلام يؤكّد ما نذهب إليه من أنّه ليس كلّ قصيدة مدح تزيّداً وافتراءً على الواقع، وأنها ترسم شخصية مثالية من نسيج الخيال لا غير.وقديما قيل، " وما كلّ بيضاء شحمة،ولا كل سوداء (فحمة)[2*]:

قَدْ يَبْعُدُ الشيءُ منْ شيْءٍ يشابِهُــهُ إنَّ السماءَ نظيرُ المَاءِ في الــزّرَقِ "[12]

ومهما يكن غرض المدح راسما للواقع كما هو عليه، أو كما ينبغي له أن يكون، فإنّه " قام بين الأدب العربي مقام السجلّ الشعري لجوانب من حياتنا التاريخية، إذ رسم نواح عديدة من أعمال الملوك، وسياسة الوزراء، وشجاعة القوّاد،وثقافة العلماء...وأضاف إلى التاريخ صادقا أو كاذبا ما لم يذكره التاريخ، وزاد

---

11) ملامح الشعر الأندلسي، د/عمر الدقّاق،دار الشرق العربي، بيروت،دت،143. *الدراسة تدور حول رائيته التي مطلعها:

ما جال بعدك لحظي في سنا القمر إلا ذكرتك ذكر العين بالأثر (ديوان ابن زيدون،92.)

12) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام،تح د/حسان عباس،الدار العربية للكتاب،ليبيا-تونس،1،1981/2:697.*2في الأصل :ثمرة

في شهرة أناس كثيرين أحاطهم بالرعاية "[13]. غير أنّ هؤلاء الناس الذين خصّهم الشعراء بمديحهم هم عادة من السلطة الحاكمة:ملوكها ووزراؤها، وحجّابها وقوّادها وقضاتها وكلّ ما يمتّ إليها بصلة كالقبائل والعشائر والأسر التي تنتمي إليها. وبعبارة أوسع إنّ تلك الشخصيات الممدوحة تمثّل الطبقة الغنيّة التي تملك الثمن المغري بالمديح، أي تلك التي تملك الذهب والفضّة ، ثمّ يأتي في المرتبة الثانية والأخيرة مدح العلماء والرجال الأفاضل الذين يكون مديحهم من أجل المديح الصرف الذي لا يريد منه صاحبه جزاء ولا شكورا.

ولعلّ هذا ما يلاحظه الدارس لهذا الغرض من الشعر الغنائي الذي يشغل قصائد كثيرة من دواوين الشعر العربي، مشرقه ومغربه، عبر عصوره المتلاحقة من ناحية، وأنّ مبدعيه أكثرهم من عامّة الشعب أو من متوسّطيه حالا، من الذين استغلّوا غرض المدح للحصول على بعض ما تفيض به جيوب الأغنياء، وخزائن الملوك والأمراء. وقلّما نجد من بينهم من حُقّق له اكتفاء ذاتي، و لم يكن له بهم خصاصة من ناحية أخرى.

وهذا ما لاحظه بالفعل الدكتور صلاح خالص عند تعرّضه لتأثير الأرسطوقراطية في مضمون التعبير الأدبي، بعد تعرّضه لتأثيرها في شكل التعبير الأدبي، إذ قال : " نستطيع أن نميّز في الأدب الأندلسي ثلاثة أنواع من الموضوعات الشعرية، الأول هو الناتج مباشرة من سيطرة الأرسطوقراطية الاقتصادية ونفوذها السياسي. ونقصد به شعر التكسّب وما شابهه كالمدائح والمراثي والتهاني، يقدّمها الشاعر للأمير أو الغنيّ ليحصل منه على الجزاء. ومعالجة الموضوعات التي يقصد منها التكسّب تقتصر عموما على الشعراء غير الأرسطوقراطيين فقلّ أن نجد شاعرا من الأغنياء يقول المديح أو الرثاء أو التهاني تكسّبا، فإن نظم فيها فللتعبير عن شعور شخصي وإرضاء لعاطفة

---

13) الغزل منذ نشأته حتى صدر الدولة العبّاسية،لجنة من أدباء الأقطار العربية،سلسلة فنون الأدب العربي، دار المعارف،مصر،5،1954.

خاصّة، في الوقت الذي نرى فيه الشعراء الذين ينشؤون في الطبقة الوسطى أو العامّة يكثرون من المديح على وجه العموم، يقدّمونه لمن يدفع ثمنه، وهل غير الأمراء والأغنياء قادر على ذلك؟ "[14].

فالعوز والحاجة والرغبة في الحصول على مال الممدوح كانت هي الدافع في أغلب الأحيان إلى إبداع الشعراء في هذا الغرض بصفة عامّة. كما أنّ كثرة ملوك الطوائف على وجه الخصوص " وتنافسهم في الأبّهة ومظاهر الملك،وعداوة بعضهم لبعض جعلتهم في حاجة إلى شعراء يمدحونهم رفعا لمكانتهم في عيون أعدائهم أو إغاظة لمنافسيهم "[15]؛ فكانوا سيوفهم الثانية التي لا يُعرف لها غمد، وألسنة إعلامهم ودعايتهم وإشهارهم، همّهم في أكثر مدائحهم هو تجسيمهم الصفات الحسنة، والمزايا السامية، والأخلاق الفاضلة الطيّبة، أو اختراعها وإلصاقها بالممدوحين ، مثلهم في ذلك كمثل" الرسامين المصوّرين(الذين)يستطيعون أن يظهروا أجمل ما في الوجوه، وأحسن ما في المشاهد، فيصوّرون من جانب واحد هو جانب الجمال والحسن، ويخفون المعالم الأخرى بريشة بارعة،تصحّح وتلوّن، وتبدع، وتسلّط الأنوار والظلال وتتلاعب بها "[16].

ولعلّ هذا الكلام لا يحتاج إلى دلائل، لأنّ دواوين الشعر العربي زاخرة بالأمثلة المتعدّدة التي تؤيّده. ولو عمدنا إلى الاستشهاد على ذلك، لكان مثلنا كمثل الذي يريد أن يزيد الصباح أدلّة والشمس ضحى، ولاجتمع لنا منه قصيد طويل:

وَلَيْسَ يصحُّ في الأفْهامِ شيْءٌ إذا احْتاجَ النهَارُ إلَى دَلِيلِ[17]

14) إشبيلية في القرن الخمس الهجري، 84-88.

15) تاريخ الأدب العربي، د/عمر فرّوخ ،د ار العلم للملايين، بيروت، 1981، 398/4.

16) الغزل منذ نشأته حتى صدر الدولة العباسية،6.

17) الذخيرة 4/1: 251.

بيد أنّه يجدر بنا، والبحث يدور حول-صورة الممدوح في عهد الطوائف-أن نحاول رسم صورة لملوك هذا العصر عبر تلك المثل العليا التي جسّدها فيهم شعراؤهم.

فما هذه المثل العليا، وما فضائل الممدوح؟.

ب)- فضائل الممدوح:

1) لمحة عامّة عن الفضائل.

من المعلوم أنّ المثل العليا التي ظلّ الإنسان ينشدها طوال حياته في علاقاته بخالقه، أو في معاملاته مع غيره من أبناء جنسه أو سائر المخلوقات المسخّرة له والمخلوقة من أجله تنحصر في مكارم الأخلاق بوجه عام . فقد خلق الله الإنسان وأودع فيه قوى الخير وقوى الشرّ في زوجيّة متعايشة فيما بينها، وأرشده إلى طريق الخير ورغّب فيه، وحذّره من طريق الشرّ ورهّب منه. فإذا ما عمل الإنسان على تنمية قوى الخير المودعة فيه وسعى إلى التحلّي بها قولا وعملا وسلوكا سمّي ذلك فضائل، وأمّا إذا سعى إلى اتّباع قوى الشرّ الكامنة فيه، وأطاع هوى نفسه الأمّارة بالسوء سمّي ذلك رذائل.

والمسألة كلّها ترجع حين ترجع إلى زوجيّة التزكية والتدسية، ولذا قال جلّ من قائل:« :« وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ».(الشمس/7-10) فالفلاح تنطوي تحته كلّ المثل العليا ويشمل كلّ الفضائل، أمّا الخيبة فتنطوي تحتها كل الدنايا وتشمل كلّ الرذائل ومساوئ الأخلاق.

والحديث عن الأخلاق بصفة عامّة، ومكارمها بصفة خاصّة، موضوع متشعّب إلاّ أنّه شيّق أُخضع إلى ميدان الفلسفة وما ينتج عنها من اختلاف في الآراء، وتضارب في الأفكار عند الفلاسفة ذوي اللسان العربي المبين،ناهيك من هذا

الاختلاف عند الفلاسفة ذوي اللسان الأعجمي، وماله من قيمة فكريّة على الصعيدين:الاجتماعي، والفردي، فكان أن صُنّفت حوله المصنَّفات، وسال من أجله مداد غزير.[18]

ولذلك رأينا أن نتناول مكارم الأخلاق محصورة فيما يعرف بالفضائل الأربع عند مسكويه في كتابة "تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق" نموذجا يدعّم بما يحضرنا من قول في مكارم الأخلاق ومحامدها. ذلك أنّ الآراء الأخلاقية لمسكويه تُعدّ مثلا لفلاسفة الأخلاق التقليديين في المحيط الإسلامي[19].

وقد تناولته ميادين ثلاثة ألا وهي:ميدان الفلسفة التقليدية متمثّلة في ماكتبه الكندي، والفارابي، وابن رشد، ومن نهج نهجهم أو سلك طريقهم في اعتمادهم على الفلسفة اليونانية أوالافلاطونية على وجه الخصوص ، كالطبيب الفيلسوف أبي بكر محمّد بن زكريّا الرازي(ت320هـ-922م)[20]،ثمّ ميدان علم الكلام الذي عولجت فيه مسائل أخلاقية كالخير والشرّ، والحسن والقبح، والإرادة وما إلى ذلك، متمثّلا في كلّ من الماتريدي، والأشعري، والنظّام والجاحظ، والخيّاط والاسفراييني، والبغدادي، والغزالي، والنّسفي وغيرهم.[21] ثمّ ميدان التصوّف الذي مُثّلت فيه الأخلاق الإسلامية تمثيلا تطبيقيّا جمع بين الأصالة والاعتدال [22] حين لم يُقصر المثال الأخلاقي على المستوى البشري، بل نشر سُموّه في السماء عندما ربط الفضائل ربطا وثيقا بالصفات الإلهية"وهذا وحده تحوّل ذو بال في المقاييس الأخلاقية، ومن هنا برزت قيمة البواعث

---

18) ينظر على سبيل المثال:أصل الإنسان وسرّ الوجود،باسمة كيّال، دار ومكتبة الهلال،بيروت ، ط1983،1،ص113.

19) ابن مسكويه مذاهب أخلاقية،الشيخ كامل محمّد محمّد عويضة،دار الكتب العلمية، بيروت،ط1، 1413هـ، 1993م،ص37.

20)ينظر المرجع نفسه،31و34.ويراجع في هذا المجال:نشأة الفكر الإسلامي ، د/علي سامي النشار،(3أجزاء).

21) نفسه،32و33.

22) نفسه،31.

والدوافع وسمت فوق الأعمال في حدّ ذاتها".[23] وهو راجع أساسا إلى العقيدة الصحيحة، بعدّها المصدر الرئيس للإحساس بقدسية القوانين الأخلاقية التي تعدّ أكبر دوافع للإنسان إلى الأعمال التطبيقية الايجابية الخيّرة، وأقوى رادع يكفّه عن اتّباع الأهواء[24]. "ولمّا كانت الفكرة الدينية الناضجة هي التي لا تجعل من الألوهية مبدأ تدبير فعّال فحسب بل مصدر حكم تشريع في الوقت نفسه، كان القانون الديني الكامل هو الذي لا يقف عند الحقائق العليا النظريّة وإغراء النفس بحبّها وتقديسها، بل يمتدّ إلى وجوه النشاط المختلفة في الحياة العملية..وهكذا يصل القانون الدّيني إذا استكمل عناصره إلى بسط جناحيه على علم الأخلاق كلّه، بل سائر القوانين المنظّمة لعلاقات الأفراد والشعوب بحيث يجعلها جزء متمّما لحقيقته ويصبغ كلّ قواعدها بصبغته القدسيّة." [25] ومن هنا يمكن أن نقول مع الدكتور القرضاوي ،" إنّه بدون دين لا يمكن أن تكون هناك أخلاق وبدون أخلاق لا يمكن أن يكون هناك قانون ".[26]

وعليه كان لابدّ لنا من أن نستخلص المبادئ الأساسة للإسلام من كتاب الله عزّ وجلّ، ومن سنّة رسوله الكريم، صلّى الله عليه وسلّم تسليما، على ألاّ تعرض عرضا نظريّا فحسب، وإنما تعرض عرضا حيّا ضمن أشخاص ومواقف واتّجاهات.ف" حين جدّت حركة التدوين وسمح فيها لغير القرآن بأن يكتب ويسجّل جمعت الأحاديث النبويّة التي تعرض المثل الأخلاقية وتدعو إليها كما جمعت السيرة المحمّدية بما تضمّنتها من هذه المواقف المشرّفة للنّبيّ وصحابته[1*] ومن ثمّ أصبحت الحياة الأخلاقية وصفا أكثر من أن تكون وسما، وقولا أكثر من أن تكون فعلا وسلوكا

---

23) السابق،22.

24) الاتجاه الأخلاقي ،المقداد بالجن،123،نقلا عن مذاهب أخلاقية،121.

25) الدين،د/محمد عبد الله دراز.55،56 نقلا عن الاتّجاه الأخلاقي،121.

26) الإيمان والحياة،مكتبة الوهبة،القاهرة،211.وينظر المرجع نفسه،122.

1* ينظر على سبيل المثال باب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في صحيح البخاري، 188/4.

وعملا،خصوصا بعد تغيّر الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية. "[27]والأمثلة على ذلك كثيرة ومتعدّدة الجوانب ، فابن أبي الدنيا (ت281هـ) في رسائله مثلا جمع مادّة غزيرة من القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والأشعار، والحكم الفارسية وغيرها،كما جمع قصصا كثيرة عن الصحابة، والخلفاء، والزهاد، والعلماء، والأعراب ليبرز المكارم الأخلاقية التي يدعو إليها.[28]وعلى غراره جمع ابن القيّم(ت751هـ) زادا كلّه للميعاد«يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ (الشعراء88و89)،مستوحيا ذلك من قوله تعالى: «وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ» (البقرة/197). ويقف مع الاسمين الكريمين لنبيّنا الكريم (أحمد ومحمّد) ذاهبا إلى أنّهما " اشتُقّا من أخلاقه وخصاله المحمودة التي لأجلها استحقّ أن يسمّى محمّدا، صلى الله عليه وسلّم، وأحمد.وهو الذي يحمده أهل السماء، وأهل الأرض، وأهل الدنيا والآخرة، لكثرة خصاله المحمودة التي تفوق عدد العادّين، وإحصاء المحصين. "[29]وهذا ما نجده عند الأستاذ ابن تيمية(ت728هـ)ملخّصا في قوله: " إذا كانت آيات القرآن وسوره أصوات وكلمات فإنّ عمل الرسول وخلقه معانيها وتفسيرها".[30]ومن هنا جاء قوله تعالى:«وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ» (القلم،4) أي على دين عظيم هو دين الإسلام. فأخلاقه صلى الله عليه وسلم مقتبسة من مشكاة القرآن، وقد قالت السيّدة عائشة أمّ المؤمنين(ر)**"كان خلقه القرآن"**.[31]

---

27) ابن مسكويه،مذاهب أخلاقية ،24.

28) ينظر رسائل ابن أبي الدنيا، جمعية النشر والتأليف الأزهرية، 1354هـ-1935م،4/1 :317.

29) زاد الميعاد ،ابن القيم،طه عبد الرؤوف طه،دار إحياء التراث،بيروت،22/1.

30) أمراض القلوب وشفاؤها، المطبعة السلفية، القاهرة، 24.

31).التبيان في علوم القرآن،ابن القيم،تصحيح وتعليق طه يوسف شاهين،مكتبة أنصار السنة المحمدية،عابدين،مصر،1386، ص136.

وإذا كان البطل يُعدّ نتيجة للتطوّر التاريخي، وهو كذلك عامل من عوامل الخلق في التاريخ-كما يقول الشيخ كامل عويضة-وأنّه لا يمكن إنكار قيمة العظماء في التاريخ، إذ بدون أفكارهم الثاقبة وأخيلتهم المجنّحة يصبح تقدّم الدنيا عرضة للشك[32]، فكيف إذا كان من بين هؤلاء العظماء الذين أثّروا في التاريخ ومسار الإنسانية بوجه عام من عُدّ على رأس المائة الأوائل[33] المتخرّج من مدرسة " **أدّبني ربّي فأحسن تأديبي** "؟ بل كيف إذا كانت المثل العليا مقتبسة من أسماء وصفات من خلق هؤلاء العظماء جميعا «سُبْحَانَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ» (يس/36).فلا نكون مجانبين للصّواب إذا قلنا: إنّ البطل الحقيقي الايجابي ما هو إلا تطوّر للتاريخ الأخلاقي بمثله العليا،وقد أبدع شوقي وأقنع – فيما ينسب إليه* - بقوله: [34]

وَإِنّمَا الأُمَمُ الأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ فَإِنْ هُمُ ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا.

ونكون مصيبين عندما نقف على قوله صلى الله عليه وسلّم: "**إنّما بُعِثْتُ لأتمّمَ مكارمَ الأخْلاقِ**".وفي هذا يطول البحث حتّى يكاد لا ينتهي، ويطيب التدبّر. وإنّه لا يكاد يخلو كلام الدّعاة والأئمّة من أنّه من أراد خير الآخرة، وحكمة الدنيا، والاحتواء على كلّ المحاسن، واستحقاق فضائل الأخلاق بأسرها، فليقتد بمحمّد صلى الله عليه وسلّم وليستعمل أخلاقه وسيرته ما استطاع إلى ذلك سبيلا. وهذا الإمام جعفر الصادق(ر) يقول:"إنّ الله تعالى خصّ رسوله بمكارم الأخلاق فامتحنوا أنفسكم. فإن كان فيكم منها شيء فاحمدوا الله عزّ وجلّ وارغبوا إليه في الزيادة

---

32) ينظر ابن مسكويه مذاهب أخلاقية،ص8و9.

33) ينظر المائة الأوائل،د/مايكل هارت،ترجمة أ.خالد أسعد عيسى والمحامي أحمد غسان سبانو،دار قتيبة،ط1، 1979، ص3و19.

34) ديوان أحمد شوقي.(* لم أقف على هذا البيت في ديوانه)

منها." [35] وقد ذكر من هذه المكارم عشرة خصال وهي:اليقين، والقناعة، والصبر، والشكر، والحلم، وحسن الخلق، والسخاء، والغيرة، والشجاعة، والمروءة، وكلّها فضائل جميلة تؤدّي إلى الجمال، وبهذه الكلمة ذات الدلالة العميقة نادى الله سبحانه نبيّه-حسبما يورد محيي الدين بن عربي [1*]-قائلا "يا محمّد ليس بيني وبينك إلاّ صورة الجمال." [36] ولا غرو فـ " **إنّ الله جميلٌ يُحبُّ الجَمالَ** " ، وفي رواية أخرى " **الجميلَ** " كما ورد عنه صلّى الله عليه **وسلّم**. [37]

فما هي الفضائل التي عمل مسكويه على إيرادها في كتابه الذي يعدّ كتابا تربويّا أكثر من أن يكون كتابا في فلسفة الأخلاق؟ لأنّ نغمته العالية من أوّله إلى آخره-على حدّ تعبير الشيخ كامل عويضة-هي" نغمة المربّي الذي يهمّه أن يدين الطالب أو القارئ بمبادئه" [38]. أضف إلى ذلك أنّ هذه القيمة التربّوية " تنبّه لها فضيلة الشيخ محمّد عبده الذي كان يدرّس الكتاب للخاصّة من طلبة الأزهر الشريف في بيته". [39] كما أنّ وزارة المعارف المصرية كانت قد قرّرت تدريسه بمدرسة المعلّمين الناصرية بالقاهرة في العقد الأوّل من القرن العشرين. [40]

---

35) مكارم الأخلاق الشيخ رضي الدين أبي نصر بن الإمام أمين الدين أبي علي فضل الله الطبرسي،ط1.مصر، 1318هـ،ص79.

*1 لم أعثر على هذا القول في مادة"جمل"ولا"صور"في المعجم المفهرس لألفاظ الحديث ويبدو أن ابن عربي استوحاه وتأوّله من الحديث المذكور.

36) الوصايا ، محيي الدين بن عربي،دار الإيمان،دمشق،سورية،ط1406،1-1986، 38

37) المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي،عن الكتب الستة وعن مسند الدارمي وموطأ الإمام مالك ومسند أحمد بن حنبل،أ.ي.ونسنك وي.ب.منسنج،ج6،(كرم-نكل)،مطبعة بريل،مدينة ليدن،1967.

38) ابن مسكويه،مذاهب أخلاقية،ص37.

39) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، قدّم له الشيخ حسن تميم، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط2، 1398، المقدّمة، ص25.

40) ينظر نفسه،ص.25.

2)الفضائل الأربع:(مسكويه نموذجا).

يستطيع المطّلع على كتاب " تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق" أن يلاحظ ما التزم به مسكويه من غرض تأليف الكتاب، وهو كما يقول:" أن نحصل لأنفسنا خلقا حسنا يطبع سلوكنا بطابعه فتصدر عنّا أفعال كلّها جميلة بلا تكلّف ولا مشـــقّة بـــل بصناعة ودراية ووفق ترتيب تعليمي." [41]

ثمّ يبيّن مسكويه الطريق إلى ذلك بطرحه الأسئلة الآتية:" أن نعرف نفوســـا أوّلا ما هي؟ وأيّ شيء هي؟ ولأيّ شيء أوجدت فينا؟أعني كمالها وغايتـــها، ومـــا قواها وملكاتها التي إذا استعملناها على ما ينبغي بلغنا بها هذه الرتبة العليّة؟ وما الأشياء العائقة لنا عنها؟ وما الذي يزكّيها فتفلح؟ وما الذي يدسّيها فتخيب؟ "[42] ولا شكّ أنّ كلّ ماكتبه مسكويه يجيب عن السؤالين الأخيرين، وأنّ الإجابة عن الأسئلة الأخـــرى هي إجابات فرعيه، سُخّرت كلّها للإجابة التفصيلية عن هذه الزّوجية الـــتي ســـبقت الإشارة إليها[43]، والتي تنحصر في قوى النفس وما يتولّد عنها من فضائل، وأنّ هـــذه الفضائل إذا تعدّت حدّها انقلبت إلى زوجها ـــ تبعا لقانون الزوجية ـــ وتتمثّـــل في قوى ثلاث:

-«القوّة» التي يكون بها الفكر والتمييز والنظر في حقائق الأمور وهي القوّة الناطقة، أو كما سمّاها الإمام حجّة الإسلام أبو حامد الغزالي" قوّة التخييل "، أوهـــي "القوّة المتخيّلة ".[44]

-«القوّة»التي بها يكون الغضب والنجدة والإقدام على الأهوال، والشـــوق إلى التسلّط والترفّع، وهي" القوّة الغضبية " ويسمّيها " السّبُعيّة " أيضا.

---

41) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ص27.

42) نفســـــه، ص،28.

43) هذه الرسالة، 13

44) معارج القدس في مدارج معرفة النفس،شركة الشهاب،الجزائر،1989،ص77.

-«القوّة»التي بها تكون الشهوة، وطلب الغذاء، والشوق إلى الملاذ التي في المآكل، والمشارب،والمناكح وسائر اللذات الحسّية. وهذه القوى الثلاث متباينة، تقوى إحداها وتضعف بحسب المزاج أو العادة أو التأديب.[45]

ثمّ يبيّن مسكويه أنّ هذه القوى إذا قوي بعضها أضرّ بالآخر، وربّما أبطلت إحداهما فعل الأخرى، وربّما جُعلت نفوسا، وربّما صارت قوى لنفس واحدة. ويذهب إلى أنّ هذه القوى الثلاث في اعتدالها ينتج عنها ما أجمع عليه الحكماء أنّ أجناس الفضائل أربعة وهي:[46]

1) الحكمة.

2) العفّة.

3) الشجاعة.

4) العدالة.

ويعلّق على هذه الفضائل الأربع الرئيسة بكلام له حيّزه الهام في مجال بحثنا، ألا وهو الفخر ثمّ المدح إذ يقول:"ولهذا لا يفتخر أحد ولا يتباهى إلا بهذه الفضائل فقط، فأمّا من افتخر بآبائه وأسلافه فلأنّهم كانوا على بعض هذه الفضائل أو عليها كلّها. وكلّ واحدة من هذه الفضائل إذا تعدّت صاحبها إلى غيره تسمّى صاحبها بها ومُدح عليها." فهو إذًا يبيح المديح بهذه الفضائل، ولا يرى حرجا من الإشادة بالممدوح، إذا ما تحلّى بهذه الفضائل أو ببعضها، ويستعمل كلمة أضداد لهذه الفضائل التي هي رذائل أربع أيضا وتتمثّل في:[47]

---

45) تذهيب الأخلاق،ص37و38.

46) نفسه،38.

47) نفسه،39.

1) الجهل.

2) الشره.

3) الجبن.

4) الجور.

وإن كنّا نتحفّظ على كلمه"أضداد"، لأنّ هذه الرذائل ما هي إلاّ أزواج لهذه الفضائل، وأنّ الكلمة تحمل منطق الضدّية و منطق العنف والصراع الطائفي والمذهبي والعشائري والسياسي الذي تأجّجت نيرانه في عصر "مسكويه "[48] والذي بلغ ذروته في عهد ملوك الطوائف بالأندلس موضوع بحثنا، وكأنّه موضة اجتاحت العصر كلّه. والواقع أنّ هذه الضدية ما هي إلاّ زوجية متعايشة فيما بينها، ولا يمكن لإحداها أن تعيش بمعزل عن الأخرى، لأنّ الزوجية منبثّة في كلّ شيء فقد قال تعالى:«وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » (الذاريات/49) " أي" جميع المخلوقات أزواج: سماء ، وأرض ، وليل ، ونهار، وشمس، وقمر، وبرّ، وبحر، وضياء، وظلام ، وإيمان ، وكفر، وموت ، وحياة ،وشقاء، وسعادة ، وجنّة ونار حتّى الحيوانات والنباتات. ولهذا قال تعالى:" لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ "، أي لتعلموا أنّ الخالق واحد لا شريك له " كما فسّر ذلك ابن كثير رحمه الله.[49]

والملاحظ في ما ذكره ابن كثير، ومثّل له على هذه الأزواج من مادّيات، ومحسوسات، ومعنويّات أنّ الجنّة والنار ينطبق عليهما منطق الضدّيّة أيضا، لأنّ المخالفة والمنافاة بينهما تسمرّ على مدى الحياة الأخروية المتسمة بصفة الخلود. أمّا ما تبقّى من مخلوقات فالكلّ يفنى أو يُبدّل كما دلّ على ذلك القرآن الكريم. وقد وقف السيّد قطب أمام هذه الآية مليّا وانتهى إلى نتيجة مفادها: " أنّ البحوث العلمية

48) السابق ، المقدمة،7.

49) تفسير القرآن العظيم ، دار الحديث،القاهرة،ط4، 239/1.

الحديثة سائرة في طريق الوصول إلى الحقيقة. وهي تكاد تقرّر أنّ بناء الكون كلّه يرجع إلى الذرّة. وأنّ الذرّة مؤلّفة من زوج[1]* من الكهرباء:موجب وسالب!فقد تكون تلك البحوث إذاً على طريق الحقيقة في ضوء هذا النصّ العجيب "[50]

والمسألة على جانب من الأهميّة على الصعيد الفكري والعقدي ولا يسمح المقام بشرحها والتفصيل فيها ؛ ثمّ إنّ هذه الفضائل الأربع لها دوائر يمكن أن نطلق عليها الدوائر الأخلاقية، وأنّ كلّ فضيلة بهذا المنطق الزوجي إذا خرجت عن دائرتها انقلبت إلى زوجها وليس إلى ضدّها-كما قرّر مسكويه-ونتج عن ذلك أنواع كثيرة صالحة بدورها لغرض الهجاء الذي بواسطته يحصل التطهير، لا لغرض المدح كما هو واضح من عنوان كتاب " تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق " إذ " هو عبارة عن معادلة أحد طرفيها ايجابي والآخر سلبي"[51].أمّا الطرف الايجابي-والذي عليه مدار البحث-فيتعلّق بالفضائل الأساسة المذكورة التي تتفرّع هي الأخرى إلى فروع شتّى يمكن تدويرها ثمّ تشجيرها كالآتي:

1* هكذا في الأصل والواقع أنها"زوجين"، لأن الموجب زوج، والسالب زوج وكلّ شيء زوج ناهيك عن الإنسان والحيوان والنبات. وهو يستعملها بمعناها الشائع بين العامّة .فقد قال سبحانه وتعالى :" قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ " (هود / 40)

50)في ظلال القرآن،دار الشروق،بيروت،ط8، 1399-1979، 3385/6،3386.

11) تهذيب الأخلاق، المقدمة ،23.

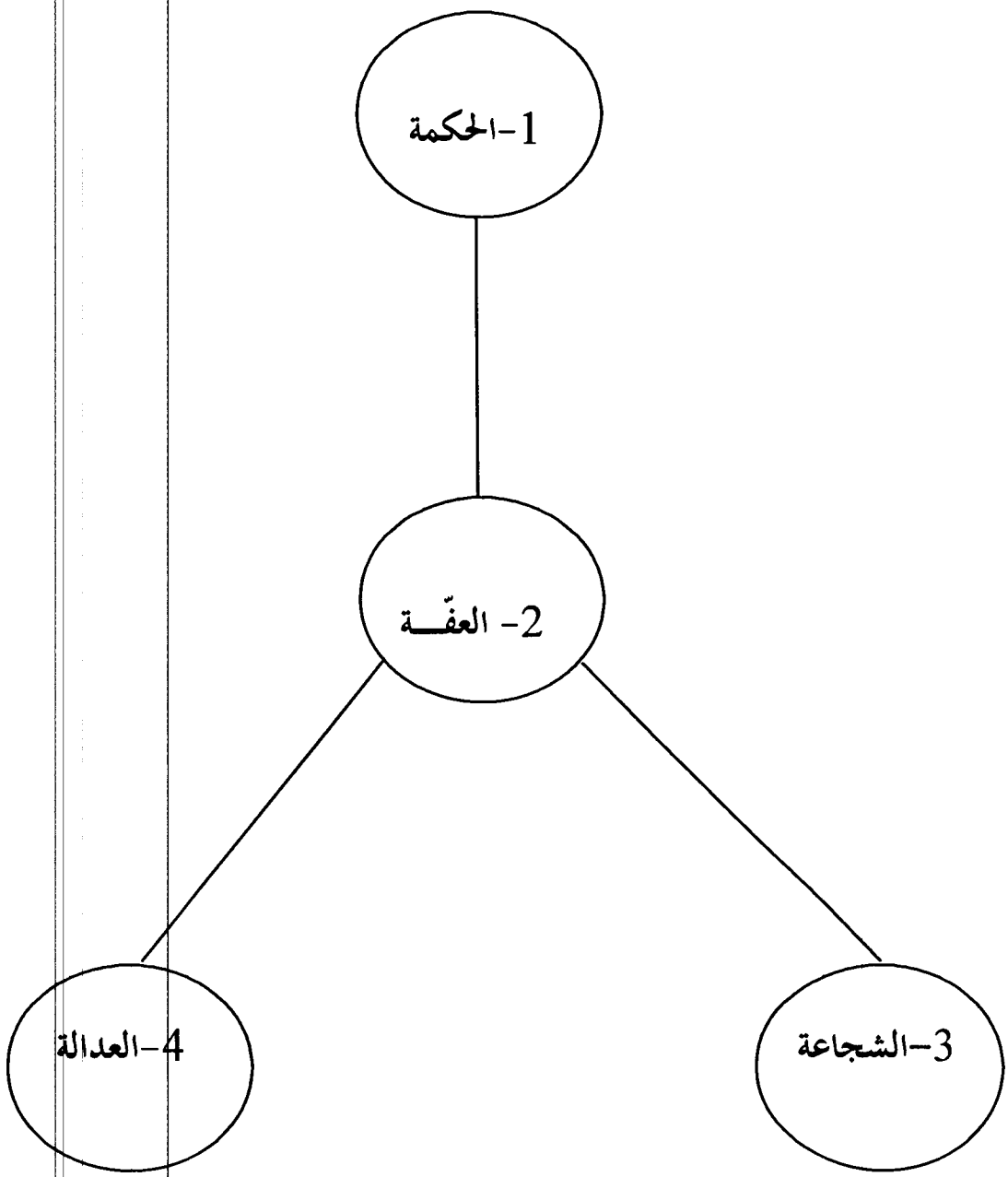
1-الحكمة
2- العفّــة
3-الشجاعة
4-العدالة

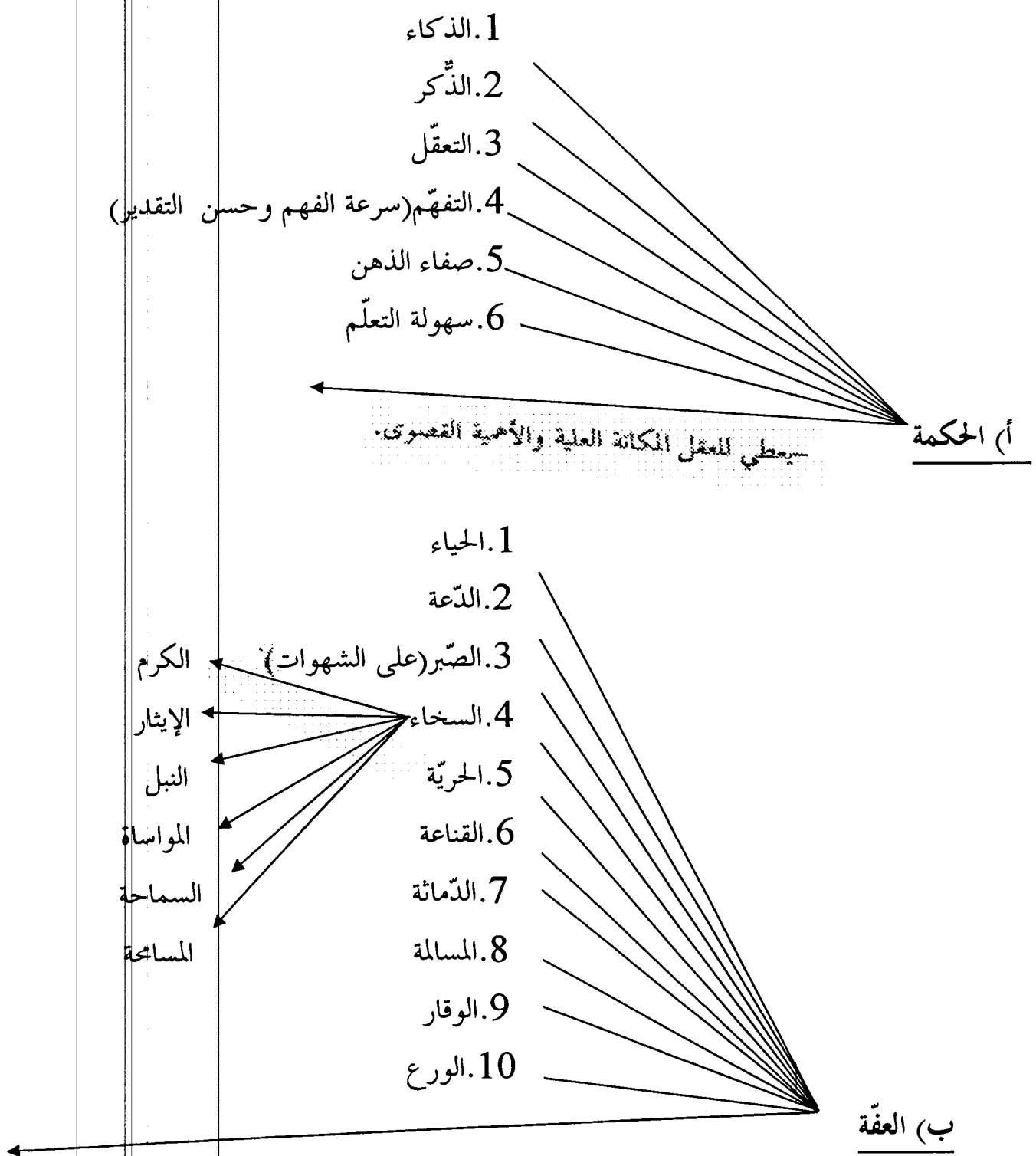

للتنبيه فقد عرّف مسكويه النّبل بأنّه " سرور النفس بالأفعال العظام وابتهاجها بنزوع هذه السيرة " وقد أدرجه تحت فضيلة السخاء وحدها على ما يبدو ، لأنّ النبل من النّبالة والتفضل ، ويقال : أجاد غذاءها حتى نَبُلَ جسمها . وقد نجد للنبل مفاهيم أخرى يمكن إدراجها تحت فضائل أخرى غير فضيلة السخاء كشرف النسب ، وكرم الحسب ، وجودة الرأي ، وحسن الشمائل ، وحسن التربية وما إلى ذلك.

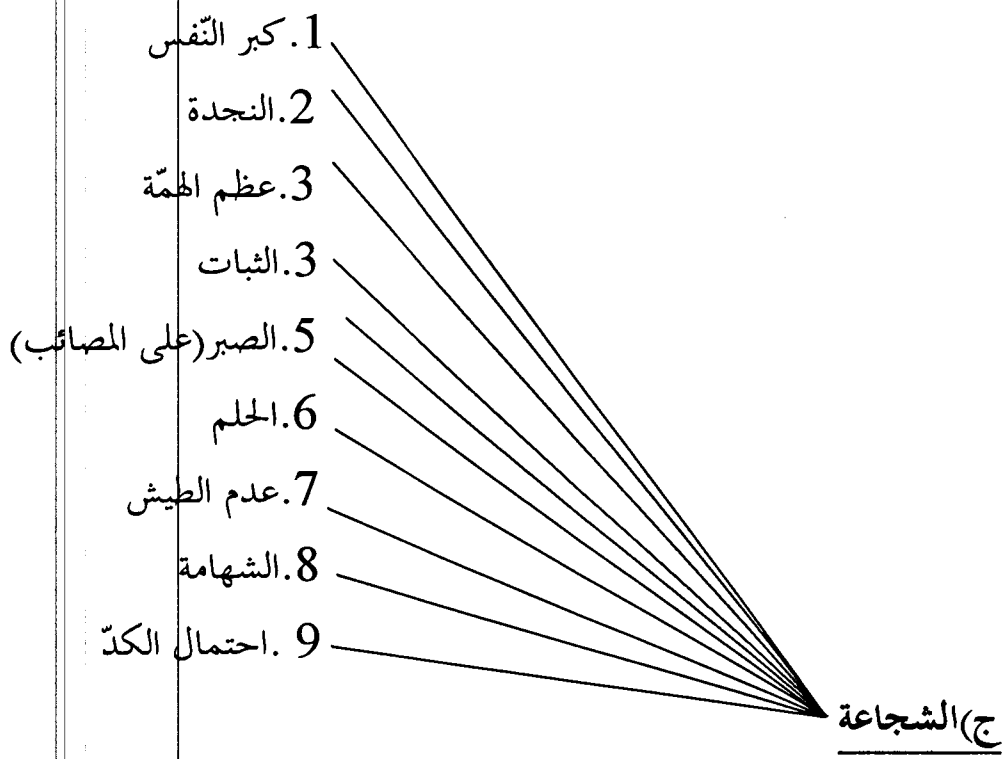
1. كبر النّفس
2. النجدة
3. عظم الهمّة
3. الثبات
5. الصبر(على المصائب)
6. الحلم
7. عدم الطيش
8. الشهامة
9 . احتمال الكدّ
ج)الشجاعة

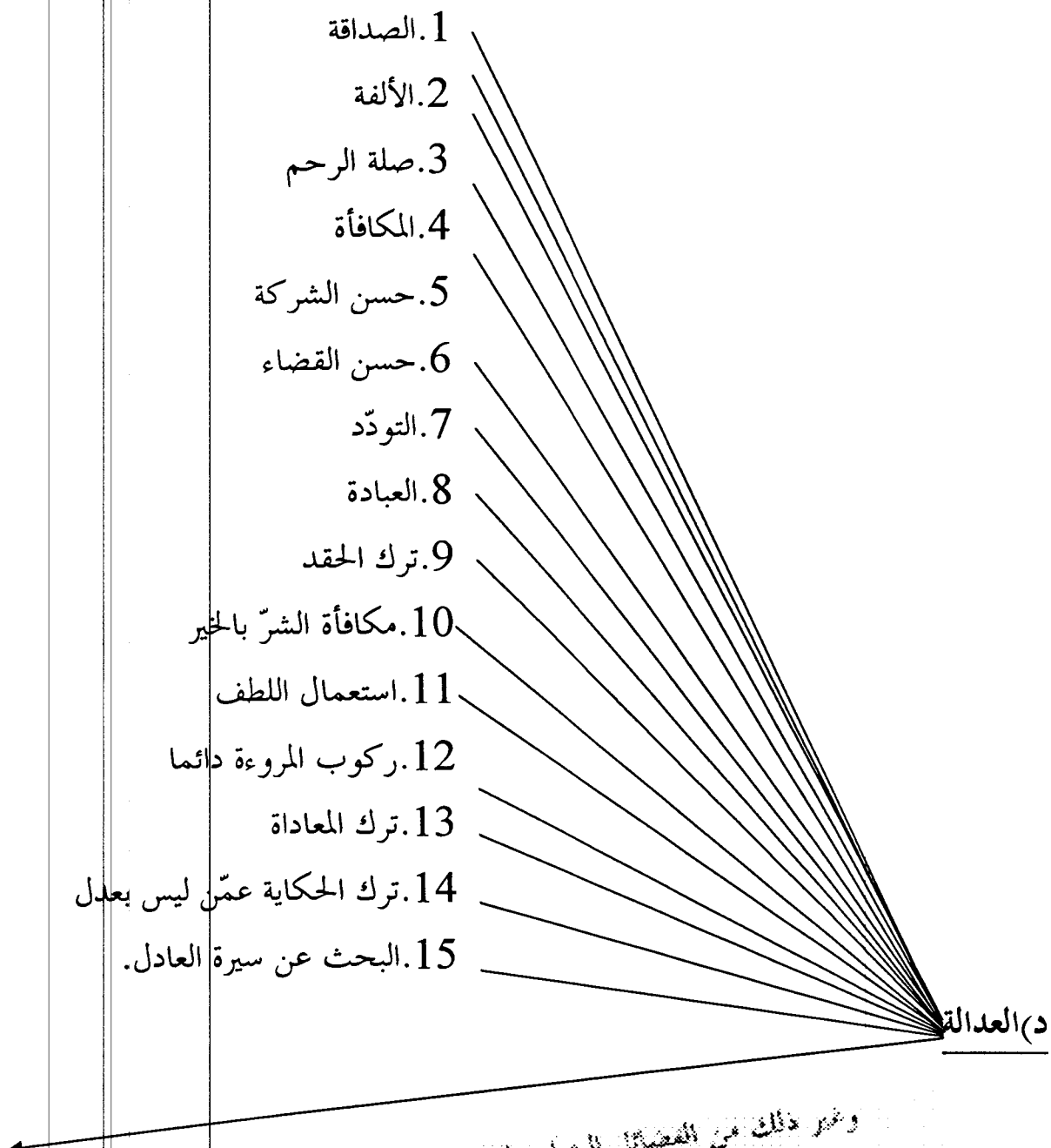

وغير ذلك من الفضائل التي أدخلها تحت العدالة كخمس معاشرة الزوجة،وترك

للقارئ أن يجد لها مفاهيم ويضع لها مصطلحات من عنده.

ومع ذكره هذه الفروع التي تنضوي تحت العدالة، يقرّر مسكويه أنّها فضيلة تحدث للنّفس من اجتماع الفضائل الثلاث التي سبق ذكرها"وذلك عند مسالمة هذه القوى بعضها لبعض واستسلامها للقوّة المميّزة، حتّى لا تتغالب ولا تتحرّك لنحو مطلوباتها على سوم طبائعها ويحدث للإنسان بها سمة يختار بها أبدا الإنصاف من نفسه على نفسه أوّلا، ثمّ الإنصاف والانتصاف من غيره وله ".[52]

ويتّضح من هذا أنّ مسكويه يستعمل لفظ العدالة بمعنيين:أحدهما التوسّط والاتّزان والاعتدال بين الحكمة والعفّة والشجاعة من غير طغيان إحدى هذه الفضائل على الأخرى ، فهي إذاً "عدالة داخلية أو باطنية في النّفس الإنّسانية "،[53] والمعنى الثاني" هو هذا المعنى الاجتماعي المضادّ* للظلم ".[54]

وهنا يجدر بنا التّنبيه إلى أمرين اثنين:أوّلهما إنّه تبعا لهذه العدالة المتوخّاة ينتج ما سمّاه مسكويه بوسطيّة الفضائل.[55] فالحكمة ما هي إلاّ وسط بين السفه والبله، لأنّ السفه هو استعمال هذه القوّة الفكريّة فيما لا ينبغي وكما لا ينبغي، وبهذا يصير جريرة، أي خداعا ومكرا. ومن هنا جاء قول القائل المعروف والمشهور:"لست خبّا ولا الخبّ يخدعني ".[56] وأمّا البله فهو تعطيل هذه القوّة الفكريّة إراديا واطّراحها وعدم استغلالها الاستغلال الأمثل، وليس هو نقصان الخلقة كما يفهم بعضهم.[57] وينتج عن هذا أيضا كون الذكاء وسطا بين الخبث والبلادة. فالأوّل إفراط والثانية تفريط في حدّ الذكاء وموجبه، فالخبث والدّهاء والحيل الرديئة تنضوى كلّها تحت الإفراط فيما ينبغي

---

52) تهذيب الأخلاق،ص40 .

53) ابن مسكويه،مذاهب أخلاقية،ص40

54) نفســـــه،40 * المزاوج للظلم تبعا لقانون الزوجية

55) تهذيب الأخلاق.ص45.

56)ينسب إلى عمر بن الخطاب(ر)

57) تهذيب الأخلاق،46.

أن يكون الذكاء فيه، وكذلك البلادة والعجز عن إدراك المعارف تكون إلى جانب النّقصان من الذكاء.[58]

وهكذا يواصل مسكويه تعريف الفروع التي تشملها الحكمة كالذّكر (بضم الدال المعجمة) الذي هو وسط بين ما ينبغي أن يحفظ وبين العناية بما لا ينبغي أن يحفظ، وغير هذا من التعريفات ليصل إلى فضيلة العفّة التي هي أيضا وسط بين رذيلتين هما الشره والانهماك في اللذات، والخروج فيما عمّا ينبغي من الطّيّبات التي أحلّها الله لعباده، وخمود الشهوة بالسكون عن الحركة التي تسلك نحو اللذة الجميلة التي رخّص فيها صاحب الشريعة والعقل[59]على حدّ قوله. وأمّا الشجاعة، فهي أيضا وسط بين الظّلم والانظلام.[60] وكلّ هذه الفضائل تنبع من زوجية متناسقة منسجمة ومتناغمة لتصبّ في وسيطيّة أمّة القرآن: «وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ». (القلم/28) بكلّ ما لها من ظلال.

وأمّا الأمر الثاني الذي ينبغي التنبيه إليه فهو " إنّ مسكويه لم يفته أن يوضّح أنّ هذه الفضائل ليست فضائل في ذاتها إلاّ بمقدار ما يتجاوز المتحلّي بها إلى أبناء جنسه، أي بعد وصول آثارها إلى من حوله، أو إلى المجتمع، فالجود، مثلا، إذا لم يتعدّ حدود صاحبه سمّي المتحلّي به مسرفا. والعلم-كذلك-إذا اقتصر على المتمتّع به و لم يصل إلى غيره سمّي صاحبه مستبصرا، وذلك ولا شكّ دليل واضح على أنّ مسكويه

58) تهذيب الأخلاق،47.

59) نفســـــه، 47.وينظر إحياء علوم الدين،82.

60) نفســـــه،48.وينظر الأخلاق لأحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1974، ص63.

لا يهمل النّظرة الاجتماعية للفضائل أو الأخلاق، بل إنّه ليرى ضرورة وجود المجتمع لتتحقّق الفضيلة والسعادة، وما ذلك إلاّ لأنّ الاختلاط بين الناس هو المحكّ الذي تظهر به الفضيلة أو الرذيلة ".[61] ولا جديد في هذه النظرة سوى التأكيد بهذه الكيفية على ما حثّ عليه الإسلام من فضيلة المعاملات بين الناس، بل ذهب إلى أبعد من ذلك حين جعل الدّين المعاملة.وهذا على ما يبدو هو ما حاول الشعراء إظهاره في ممدوحيهم حين ربطوا هذه الفضائل بما قام به هؤلاء من أعمال، وما تحلّوا به من مكارم الأفعال ومحامد الخصال التي أكّد مسكويه على أنّ صاحبها يستحقّ الثناء والمدح*1 (62)

وإذا كانت هذه الفضائل قد نُظر إليها من وجهة فلسفية وتربويّة في قالب إسلامي، فكيف يُنظر إليها في إطار غرض المدح وعبر صورة الممدوح في عهد ملوك الطوائف؟ ومنذ البداية ننبّه إلى أنّ الشاعر تكفيه اللمحة الدالة حينما يذكر هذه الفضائل ويصوّر بها ممدوحه أو يصفه بها أو ينسبه إليها في حيّز من الشاعر المكثّفة المضغوطة في قرص هذا البحر أو ذلك من بحور الشعر ذات الأوزان والقوافي المقيّدة- بكسر الياء- ولا نتوقع منه إسهاب الفيلسوف أو المفكّر أو المنظّر في عالم النثر الفسيح. إذ المعوّل عليه في البيان الذي يعني الشعر في أدبنا القديم هو: " إقامة الوزن وتميّـــز اللفظ وسهولة المخرج وفي صحّة الطبع وجودة السبك فإنّ الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير ".[63] وهذا ما يقودنا إلى تسليط الضوء على الصورة الشعرية .

---

61) مذاهب أخلاقية، 40

62) تهذيب الأخلاق، 86*1قال:ينبغي"أن ينشر ذكره بين أهل الفضائل، فيكون ممدوحا بينهم، يكثرون الثناء عليه لما يتصرّف فيه من المعروف والإحسان"نفسه، 86.

63) الحيوان،للجاحظ،تح/عبد السلام محمّد هارون،دار الكتاب العربي،بيروت،ط3 ،1969،ج3،ص132.

ج/ الصورة الشعرية:

الحديث عن الصورة الشعرية طويل وذو شجون ونأبـــى إلاّ أن نبدأه من تلك الصورة الجميلة جمال فرس امرئ القيس التي قيل حولها ما قيل، ألا وهي:

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبلٍ مُدْبرٍ معاً كجُلْمودِ صخْرٍ حطّهُ السيّلُ مِنْ عَلِ[1]*

ولولا ما في صورة الصّخر وهو يحطّه هذا السيل الجارف من عل من إشكالية التساؤل والمبالغة لكان معنى البيت بكلّ بساطة أنّ هذا الفرس من النجيبات المراسيل التي طاب لشعراء الجاهلية وصفها والتغنّي بها، وهو يتميّز بالسرعة الفائقة في حالة الكرّ كما في حالة الفرّ، وهو ما تدّل عليه كلمة " معا " التي ظلّ النقاد حولها في كلّ واد يهيمون حتّى ذهب بعضهم إلى القول بأنّها صورة سريالية لا تقيم للعقل ولا للشعور ولا للمكان ولا للزمان أيّ معنى.

وهذا ما كان كذلك بشأن الصورة الفنّية أو الصورة الشعرية أو الصورة الأدبية ، فقد وردت بهذه الأسماء جميعا بأقلام من نظّروا لها أو حاولوا تحديد طبيعتها ووظيفتها وإبراز عناصرها ، مستوحين ذلك كلّه ممّا جادت به قرائح الشعراء من عرب وغربيين جميعا ، فتعدّدت طبائع الصورة، وتعدّدت وظائفها ،كما تعدّدت وبشكل لافت للانتباه العناصر المكوّنة لها. ولا عجب فهذا التعدّد منشؤه اختلاف المذاهب والمدارس الأدبية في مفهوم الشعر، فعندما نأتي إلى ما صدر حولها من تعريفات مستوحاة من الشعر نفسه ،حتّى ليسعنا القول إنّها منه وإليه:فهي"إبداع ذهني مصدره الشعور واللاشعور في آن واحد أساسه إيجاد علاقات بين الأشياء تتنقل بواسطة استعارة أو وصف أو تشبيه وكلمات متوفّرة على طاقة تعبيرية مكثّفة

*1 أ.د/عفيف الدين بهنسي يذهب إلى أن الأدب العربي كان وعاء للصورة التشكيلية في مظاهرها الحديثة ويرى أن تصوير امرئ القيس هذا عبارة عن صورة مستقبلية وهي مدرسة تؤمن بالحركية وهو صـــاحب كتـــاب"الجماليـــة الإسلامية في الفنّ الحديث"

مشحونة بعاطفة إنسانية تثير في المتلقّي انفعالات وجدانية تساعده على الكشف ومعرفة غير المعروف وولوج العالم الداخلي والنفسي للشاعر، وتصوير ما يريد الإفصاح عنه."[64]

فهي بهذا التعريف تشخيص للحالة النفسية ومحاولة إثارة المشاعر في المتلقّي، وهي تسعى إلى التوضيح والشرح عن طريق الإيحاء والإشارة " وقد تعتمد المبالغة في تقديم المعنى وتوضيحه عندما يُراد بها مجرّد تمثيل المعنى أو تأكيد بعض عناصره الهامّة "[65]وهي بهذا تكتسب دلالتها وماهيتها من سياقها الذي وُجدت فيه أيّا كان هذا السياق ولذلك لا يمكن فصلها ولا قطعها عن هذا الإطار.

ولعلّ الحسّية هي الطابع المميّز لها بالدرجة الأولى ، وحسّيتها هذه نابعة من ماهيتها وحقيقتها في أنقى صورها فهي تخاطب كلّ الحواس غير متقيّدة بطريقة معيّنة في المخاطبة . وهو ما عبّر عنه الدكتور مصطفى ناصف بقوله:" إنّ الصورة في الأدب نتيجة لتعاون كلّ الحواس وكلّ الملكات." [66] وبهذا تمزج الصور الشعرية بين الأفكار الذهنية والصور الحسّية بواسطة الخيال مزجا لاحظت معه " إلزابيت درو " أنّ "الاستعارة تكون أكثر عمقا[وتأثيرا]حين تلتئم الفكرة أو العاطفة مع الصورة الحسّية"[67]، فهي إذاً " تلك التي تقدّم تركيبة عقلية وعاطفية في لحظة من الزمن"[68]وهي بذلك " تجسيد لفظي للفكر والشعور "[69]وقد ذُهب بها إلى أبعد من

---

64) أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث(1925-1976) محمّد بوحجّام ،ص204

65) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي،جابر عصفور،ص353.

66)الصورة الأدبية، مصطفى ناصف، دار الأندلس،ط 2 ، 1981 ، ص30 وينظر أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث ص191.

67) شعر الثورة عند مفدي زكريا،يحيى الشيخ صالح، ص302

68) التفسير النفسي للأدب ،غر الدين إسماعيل،ص71.

69)قصيدة المديح في الأندلس ،قضاياها الموضوعية والفنية "عصر الطوائف"د/أشرف محمود نجا،ص193.

هذا حين عُدّت كلّ قصيدة بحدّ ذاتها صورة[70]على أساس أنّها " كلّ تشكيل لغوي يستقيه خيال الفنّان من معطيات الحواسّ والنفس والعقل"[71] غير متعلّقة بظواهر الأشياء ومرتبطة أساسا بجوهر العمليّة الإبداعية[72].ولا غرو " فما الشعر إلا تصوير لخلجات النفس، وتعبير عن دفقات الشعور الصادرة عن تجربة شعورية في صور موحية ".[73]

وإذ يفسح علم النفس مجاله واسعا أمام النقاد لأخذ بعض مصطلحاته وتوظيفها في نقدهم نجد أنواعا شتّى من الخيال تُستنبط استنباطا؛ فهذا خيال علمي، وهذا خيال أدبي، وذاك خيال جمالي، وذلك منتج خلاّق. وعندما يربط هذا الخيال بالحواسّ الخمس والفكر والإدراك والتذكّر وعمليات الفهم بعامّة نجد ما يُسمّى بالخيال السمعي والخيال البصري*[1]والخيال اللمسي والخيال العضلي[74]وغيره كالخيال الإبداعي الذي يقيم علاقات جديدة غير مألوفة بين الأشياء المتباعدة والمتنافرة فتأتي مبهرة للقارئ ومستثيرة له عاملة في خياله أيضا[75].وإذا كانت هذه هي وظيفة الخيال الإبداعي ، فإنّه إذاً خيال خلاّق " يُخرج من الصامت صورا تفيض بالحياة ،ويحوّل المحسوس إلى معنى ، والجمال إلى مدرك وجداني تهتزّ له النفس، فترى المحسوس المجسّم وقد تحوّل إلى فكرة متموّجة جاثمة تنعم بجمالها الفنيّ وقوّتها المعنوية." [76] وعمله في كلّ

---

70) الصورة الشعرية،سيسل دي لويس.ترجمة أحمد نصيف الجنابي وآخرين ص23والنقد الأدبي الحديث لمحمد غنيمي هلال ص51.

71) الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري،د/علي البطل، ص30

72)ينظر قصيدة المديح في الأندلس ، ص193.

73) النقد الأدبي، سيد قطب ، ص7

*1 قال بشار: يا قوم أذني لبعض الحيّ عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا.

74) ينظر الأصول الفنّية للأدب ،عبد الحميد حسن ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط2، 1964، ص205

75) ينظر الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر .د/عبد القدر القط،النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت لبنان.ط1-1981 ص418.

76) الأصول الفنية للأدب، ص106.

هذا عمل تفكيك وتفتيت للمادّة وإعادة تشكيلها وصبّها في قالب جديد ،قالب من نفسه ليس عاكسا ولا محاكيا.[77] وبوسعنا القول: إنّ الخيال الإبداعي لم يكن ليكتفي بنقل الواقع ولا بنسخه ولا بتصويره تصويرا فوتوغرافيا ، وإنّما كان ليهدم هذا الواقع بالمعنى الايجابي للهدم ، ثمّ يعيد بناءه وتركيبه تركيبا تبدو صوره فنّية حيّة موحية يعلوها الابتكار وتجمّلها خصوبة التصوير وجلالة التعبير[78]. وحول هذا السياق نترك عبد الحميد حسن يقول: " إنّ الرصيد المختزن في العقل من الصور والمناظر والتجارب وأنواع المحسوسات من سمعيّة وبصريّة وغيرها كلّ هذا المنبع الذي يستمدّ منه الخيال مادّته الأوّلية التي ينسج منها صوره وينظم عقوده،وهذا الرصيد يرجع إلى نوع الحياة من ترف وحضارة وتقشّف وبداوة وإلى غزارة المعارف أو ضآلتها وإلى مدى الارتشاف من منهج التاريخ والقصص،فلهذه المناهل أثر قويّ في تغذيته وحفزه وإرهافه. "[79]

ومن هذا نعرف إلى حدّ ما من أين يأتي المدد للخيال لتركيب صوره، وما هو الماء المعين الذي يسقيها به لتدبّ فيها الحياة، وتخضرّ فيها أوراق الإبداع وجذور الابتكار، وبهذا يستحوذ الخيال " على خزين الصور الحسّية المكدّسة في الذاكرة، وعندما يكون محكوما بهدف فنّي يقدر أن يربط بينهما في أنماط جديدة مبهجة وهو بالطبع لا يقدر أن يبتكر جديدا بالمرّة لأنّ مادّته جميعا تأتي من خبرة حسّية ولكنّه يستطيع السموّ فوق الواقع التاريخي"[80].وما أجلّ قوله جلّ وعلا«يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ

77) ينظر التصوير والخيال (موسوعة المصطلح النقدي) ،لـ "ل "بريت" ترجمة عبد الواحد لؤلؤة ،دار الرشيد ، العراق،ص51.

78) ينظر، نفسه، ص51.

79) الأصول الفنّية للأدب، ص101.

80) التصوير والخيال، ص107

ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾»(الحج/73).

وصفوة القول:إنّ عمليّة الخلق من لا شيء أو من عدم مقصورة على الله ذي الجلال والإكرام بديع السماوات والأرض الخالق البارئ المصوّر، خلق فسوّى فتبارك الله أحسن الخالقين.*1 ويبقى الخيال بمنأى عن الخلق بمعناه الربّاني، بيد أنّه يقوم بتكسير الحواجز والموانع التي تفصل بين العقل ومادّته ويحطّم ما هو داخلي في سبيل إرضاء العالم الخارجي، أو ما هو خارجي في سبيل إرضاء العالم الداخلي، عالم النفس اللامحدّد، تلك النفس المطمئنّة المزكّاة أو تلك الأمّارة بالسوء المدسّاة، فيجعل من الطبيعية فكرا ومن الفكر طبيعة وإنّها لإحدى خاصياته الشعرية لمن أراد أن يصوّر أو ينقد أو يشعر.[81]

ولعلّ هذا هو أقرب ما ينطبق على" لوسيان غولدمان " حين يقول:"يمكن لكون تخيّلي*2 غريب عن العالم التجريبي تماما في الظاهر كخرافات الجنّ مثلا*3 أن يكون مماثلا تماما في بنيته لتجربة فئة اجتماعية بعينها أو على الأقلّ مرتبطا بها بطريقة ذات دلالة ولم يعد ثمّة أيّ تناقض بين أكثر الخيالات المبدعة قوّة...[إذ] أنّ البنى المقولاتية هي على وجه التحديد ما يمنح للعمل الأدبي وحدته أي ما يمنحه أحد

*1وقد وردت كلمة صورة مرة واحدة في القرآن الكريم في قوله تعالى:"يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ"(الانفطار،6_8)،ينظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص416.

81) وازن بـــ " الصورة الأدبيّة " ص27.

Univers Imaginaire 2*

*3 هذا بالنسبة لمن يرى أنّ عالم الجنّ خرافة من صنع الخيال، وإنما هو بالنسبة للإنسان المسلم حقيقة مسلّم بها بغضّ النظر عمّا نُسج حول الجنّ من أساطير وخرافات وخاصّة في الأدب الشعبي.

العناصر الأساسية المكوّنة لطابعه الجمالي النوعي وفي الحالة التي تهمّنا أحد العناصر المكوّنة لصفته الأدبية الخالصة ".[82]

فالخيال إذاً " مصدر الصورة وأداتها إذ به تتشكّل ومن خلاله تظهر للعين في رؤيتها، بهيئتها وحركتها وبألوانها وأصواتها ناطقة تنبض بالحياة. لذا فالحديث عن الصورة الشعرية بمعزل عن الخيال يصبح ضربا من العبث وجهدا ضائعا لا طائل من ورائه. "[83]

وقد أعطى الفلاسفة لهذه القوّة السامية من قوى الإنسان مكانة عظيمة وجعلوها " الملكة الوحيدة التي تمكّن الشاعر والفيلسوف من الوصول إلى الحقيقة".[84] ولهذا نجد فيلسوفا مثل "كانط"يقول:" إنّ الخيال أجلّ قوى الإنسان وأنّه لا غنى لأيّة قوّة أخرى من قوى الإنسان عن الخيال ".[85]وهذا ما نجده عند محيي الدين بن عربي حين يذهب كلّ مذهب عندما يعدّ هذه الملكة " أساسا لجميع القوى، وأنّ النفس لا تكون مدركة إلاّ بسبب الخيال لأنّه هو الوسيط بين النفس التي هي من عالم الغيب وبين الحسّ الذي هو من عالم الشهادة "[86]، فهما معا يجعلانه الأجلّ والأساس ويبدو تأثّر الثاني بعقيدته الدينية الإسلامية السمحاء في قوله عزّ وجلّ:« هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾»(الحشر/ 22). ومن هنا

82) المنهجية في علم الاجتماع الأدبي، لوسيان غولدمان، ترجمة مصطفى المسناوي ،ط1-1981،ص11.

83) الآداب مجلة جامعة قسنطينة"مجلة فكرية أدبية تصدر عن معهد الآداب واللغة العربية عدد1، 1415-1994-الخيال الشعري وعلاقته بالصورة الشعرية أ/الخضر عيكوس، ص67.

84) كوليريدج(نوابغ الفكر الغربي) د/محمد مصطفى بدوي،دار المعارف بمصر ،1981 ص11.

85) النقد الأدبي الحديث،"محمد غنيمي هلال"،دار العودة بيروت،1973 ص410

86) الخيال في مذهب محيي الدين بن عربي د.محمود قاسم،القاهرة 1969،ص5

يسعنا القول مع القائلين بأنّ الخيال" هو القوّة التي تجعلنا قادرين على أن نقيم جسور التواصل بين عالم العقل أو العالم المجرّد وعالم الطبيعة أو العالم المادي ".[87]

وإذا تعرّضنا إلى تقسيم الخيال نجده قد قُسّم إلى خيال أوّلي وخيال ثانوي، ولئن تعرّضنا إلى الفرق بينه وبين الوهم* نجد هذا الأخير قوّة غير مبدعة لا ترقى إلى مستوى الخيال ، لأنّه يخضع للمشاعر العريضة التي لا عمق فيها ، فهو بذلك يغترّ بمظاهر الصورة وسطحية الأشياء ، أي أنّه لا يصوّر الأشياء كما يصوّرها الخيال الشعري أصيلة في لونها وشكلها[88] والذي يبدو على الدوام قوّة موحّدة ومركّبة[89]، في حين يأتي الوهم سلسلة من الصور التي لا رابط بين أجزائها بفكرة واحدة، ولا خضوع لها لتجربة مشتركة أو قانون ضابط شامل[90] فلا غرو إذا عُدّ " الخيال هو الشعر. "[91]

وهكذا ، فالخيال الشعري يشكّل قوّة خلاّقة عبر ملكة موصلة إلى الحقيقة أو تحاول على الأقلّ الوصول إليها ، ولكن ليس عبر " تذكّر شيء أحسسناه من قبل وقد تجرّد من قيود الزمان والمكان ومن كلّ علاقاته وارتباطاته، ولا هو جمع بين أجزاء أحسّت من قبل لتأليف شيء لم يحسّ ولكنّه في الواقع خلق جديد، إنّه خلق صورة لم توجد وما كان لها أن توجد بفضل الحواسّ وحدها أو العقل وحده، وإنّما هو صورة تأتي ساعة تستحيل الحواسّ والوجدان أو العقل كلاّ واحدا في الفنّان ، بل كلاّ واحدا في الطبيعة[92] متآزرة كلّها على الخلق الأدبي المتميّز الذي يضفي فيه الشاعر أو الأديب " روحه على موضوعات العالم الخارجي ويفرض عليها عاطفته ووعيه وذاته، وفي أثناء

---

87) التصوير والخيال(موسوعة المصطلح النقدي) ،ص411

88) ينظر النقد الأدبي الحديث.غنيمي هلال ،ص411. * الخيال"Imagination-الوهم:illusion

89) ينظر الصورة الأدبية ،مصطفى ناصف،ص30.

90) ينظر نفسه:30،وكوليدبدج ص87

91) فن الأدب(المحاكاة) د/سهير القلماوي،مطبعة البابي الحلبي مصر1953 ،ص13

92) نفســـه،ص126.

هذه العملية يبدو له كأنّه يسبر أغوار هذه الموضوعات وكأنّ حقيقتها الجوهرية تنكشف له ".[93] ومن خلال هذه المشاركة الحميمية الوجدانية لقوى النفس بالخيال، وإدماج سائر عناصر الصناعة الأدبية من ألحان وتناغم وموسيقى ووجدان يكون الخيال " يكشف وسائل التجسيد للشعور والفكر ويصوغ التجربة النّفسية في رموزها الخاصّة ".[94]

وإذا كان هذا هو الخيال فإنّه موقظ للعاطفة باعث للتفكير وموجّه له، غذاء للأسلوب، وشراب للألحان، وعون على الإلهام من أقوى الأعوان.[95] فهناك إذاً علاقة تآزر على خلق الصورة الفنّية الجميلة خلقا جميلا بين الخيال والعاطفة، إذ هما عنصران أساسان في شعر الشاعر أو أدب الأديب لا تكتمل الصورة الفنّية إلا بهما. ذلك أنّهما زوجية حميمية تآلفية تعاونية تساهم بشكل كبير، وقسط وفير في صناعة الجيّد من الشعر والأدب بعامّة و" الخيال إذا كان دون أن تعزّزه العاطفة كان إنتاجه كالصورة الخالية من الحياة أو كالأشباح العمياء "[96].على حدّ تعبير الدكتور محمود قاسم .

فالخيال زوج للعاطفة، والعاطفة زوج للخيال، وإنّ وراء كلّ خيال مبدع عاطفة وأيّ عاطفة:إذ هي التي" تلهب خيال الشاعر وتبعث فيه القدرة على الخلق، واقتناص الأحاسيس وطبعها في صور شعرية مثيرة ومعبّرة هذا فضلا عن كونها توجّه الخيال، وتحدّد المجالات والمسافات المكانية والزمانية التي يجب أن يرتادها ويطوف فيها بحثا عن الصور والمعاني وحتّى الأشياء المختزنة في الذاكرة والأحلام النائمة في أعماق النفس. "[97]

---

93) السـابق ص126.

94) الأسطورة في الشعر العربي الحديث-د/أنس داود ،مكتبة عين شمس مصر ،دت،ص14 وينظر الآداب مجلة جامعة قسنطينة ص72.

95) وازن بالأصول الفنية للأدب ،ص107.

96) الخيال في مذهب محيي الدين بن عربي ، ص 5

97)الآداب ،جامعة قسنطينة-الخيال الشعري وعلاقته بالصورة ،ص73.

وهذا ما لاحظه بالفعل الدكتور عبد القادر الرباعي حين قال:" إنّ الحاجة للتعبير عن العلاقة بين الأشياء والمشاعر هي التي تتطلّب من الصور داخل الفنّان أن تكون موصولة بروابط داخلية أقوى من مجرّد ميل في الكلمات لتحشى في الأشكال"[98] وحين ذهب إلى أنّ " الفنّان من استطاع تحويل الذات إلى موضوع كما اتّفقت على ذلك أكثر الفلسفات الحديثة في الفنّ، والطريقة المثلى لهذا التحويل أن يجد الشاعر للفكرة أو المعنى الشعوري معادلا من الخارج ينقله وينقل معه انطباعه عنه وهكذا فعل أبو تمّام " [99]

وإذا كانت عظمة الصورة الشعرية تتجلّى حين تتجلّى في تكثيفها للدّلالات وفي نشرها ذلك المجال الرحب الفسيح للخيال، فالمتدبّر لها لا يقرأ أفكار الشاعر فحسب وإنّما يقرأ انفعالاته وعواطفه وشعوره العميق أيضا بحيث " تغدو الصور رموزا تتجوّل في أعماق البشر وليس فوق الأرض وبين الموجودات "[100] كما طاب للرباعي التعبير بعدما تأثّر بأبي تمّام أيّما تأثير.

وهكذا ، فإنّ الخيال يتظافر مع الملكات السليمة الصافية الأخرى وبابتعاده عن الأوهام الشاردة يكون ذلك الخيال الفعّال الايجابي، وإلاّ لكان سلبيّا خارجا عن المألوف ومناقضا للعاطفة والعقل معا، لأنّه بكلّ تأكيد إذا خلا " من الحقائق كان هشّا، وإذا ابتعد عن الطبيعة كان وهما وضلالا، وإذا تجرّد من الوجدان كان تصويرا خاليا من الحياة، فالخيال الذي لا ينبع من الوجدان ولا يرتكز على التشبيهات الخارجية أو الاتّفاقية يكون أقرب إلى الأوهام ".[101] وعليه فإنّ " أيّ مفهوم للصورة الشعرية لا يمكن أن يقوم إلاّ على أساس متين من مفهوم متماسك للخيال الشعري

---

98) الصورة الفنية في شعر أبي تمّام، ص 190

99) نفســه،ص72.

100) نفســه، ص78.

101) الأصول الفنية للأدب ص104 وينظر مجلة الآداب،قسنطينة ص78

نفسه[فما]الصورة[إلاّ]أداة للخيال ومادّته الهامّة التي يمارس فيها ومن خلالها فاعليته ونشاطه ".[102]

وبناء على كلّ هذا تكون العملية الإبداعية كيانا متكاملا هيكله الخيال وزوجه العاطفة، وقلبه الشعور وحواسّه اللغة الشعرية والموسيقى والألفاظ التي تحمله ويحملها في بلاغة وحسن بيان.

ولأمر ما ركّزت الدراسات البلاغية على الطبيعة الزخرفية التزيينية للصورة الشعرية منطلقة من تصوّر قاصر للأسلوب والصورة على أنّهما عنصران خارجيان في العمل الأدبي بوجه عام* " ويتوفّر هذا التصوّر في التراث الأوربي بشكل خاصّ منذ أرسطو حتّى كوليريدج st.Coleridge ومن الشيق أنّ التراث العربي يخرج على هذه النظرة للأسلوب والصورة في نقاط عديدة من تصوّره. ويبلغ الخروج ذروته في تصوّر عبد القاهر الجرجاني-الناقد الفذ-للخلق الأدبي والصورة باعتبارها عنصرا حيويّا من عناصر التكوين النفسي للتجربة الشعرية وتبلورها اللغوي في بنية معقّدة متشابكة لها نموّها الداخلي الفرد وتفاعلاتها الغنيّة "[103] بطبيعتها البنيوية ـــ إن لم نقل الزوجية ـــ على المستويين: النفسي والدلالي أو الوظيفة النفسية والوظيفة الدلالية باتّساقهما وانسجامهما معا[104]. ومن هنا راح كمال أبوديب يخطّئ المناهج النقدية في عدّها الصورة عنصرا دلاليا في العمل الفنيّ يستقي أهمّيته من مدى قدرته على التقرير والتوصيل لمعنى من المعاني.[105]

---

102) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي،والآداب،مجلة جامعة قسنطينة، ص78.

103) جدلية الخفاء والتجلي،دراسات بنيوية في الشعر ،كمال أبو ديب،دار العلم للملايين بيروت،ط3 .1984،ص19. * لعلّ أحد أهمّ الاتّجاهات الحديثة في دراسة الصورة الاتجاه النفسي....مثل تحليل كارولين سيرجن Caroline syrgen للصورة في شعر شكسبير،أما في النقد العربي الحديث فما يزال تحليل الصورة هشا ذوقيا جزئيا وقاصرا (جدلية الخلفاء،ص20).

104) ينظر ،نفسه ، ص22.

105) ينظر نفسه ، ص21.

ولا ندري إلى أيّ مدى يصدق هذا التخطيء إذا جرّدت الصورة من دلالتها التوصيلية ، إذ ما هي إلاّ " طريقة خاصّة في تقديم المعاني تعتمد على تمثيلها للنفس المتلقّي أو هي ذلك النوع من القياس الخادع الهادف إلى إثارة انفعال المتلقّي بترغيبه في الشيء أو تنفيره منه أو تحسينه له أو تقبيحه إليه وتشويهه في عينيه .[106] وهو أمر تناوله بالبحث والتنقيب بلاغيّونا القدامى وساقوا له أمثلة متعدّدة " لأنّ الغاية من إتقان أيّ عمل فنيّ عند العرب القدماء إنّما هي الوصول إلى المستوى الأبلغ والأجود وكلّ ذلك بهدف التأثير في المتلقّي ذلك أنّ الهاجس الذي يدور في خلد المبدع إنّما هو الوصول إلى أقوى تركيب، وأفخم لفظ،وأجمل بيان،يضاف إلى ذلك الحرص الشديد على إيصال شعوره وكلّ ما يجول في خاطره إلى ذهن المتلقّي، فكلّما نجح في نقل الحال الشعورية التي تعتريه كان أشدّ تأثيرا ".[107]

ولعلّ حازما القرطاجنيّ كان أعمق هؤلاء البلاغيّين تناولا لهذا الموضوع كما أجمع على ذلك نقّادنا العرب المحدثون الذين نوّهوا بما سطّرت يده في هذا المجال على وجه الخصوص[108]؛ فقد وجدوه مشيدا بدور المخيّلة في الشعر مبيّنا بأنّ التخييل الشعري عملية إثارة لصور شعرية ذهنية في مخيّلة المتلقّي وفي الوقت نفسه إثارة لانفعالاته ليتّخذ بموجبها موقفا سلوكيا خاصّا يؤدّي به إلى فعل الشيء أو طلبه أو تركه والتخلّي عن اعتقاده[109].

ولعلّ هذا ما تفصح به كلمات حازم من أنّ الصورة الشعرية هي أن" تتمثّل للسامع من لفظ الشاعر المخيّل أو معانيه أو أسلوبه ونظامه، وتقوم في خياله صورة

---

106) ينظر الصورة ..،جابر عصفور ،ص80، 430.

107) أصول العلاقة بين البلاغة والنقد القديم حتى نهاية القرن الرابع الهجري ،أ.حسين الأسود،مجله مجمع اللغة العربية بدمشق،مجلد 81،ذو الحجة 1426،كانون الثاني (يناير) 2006،ص116 و117.

108) ينظر النقد الأدبي الحديث، أصوله واتجاهاته، أحمد كمال زكي، ط2، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت 1981، ص122.

109) ينظر الصورة..، جابر عصفور، ص360و361

أو صور ينفعل لتخيّلها وتصوّرها أو تصوّر شيء آخر بها انفعالا من غير رويّة إلى جهة من الانبساط أو الانقباض "[110]، وكلّها كلمات تنضح بالدلالة التوصيلية للصورة وأثرها وتأثيرها في نفس السامع أو المتلقّي ؛ ولعلّ أهمّها تأثيرا تلك التي كانت قد أثّرت في نفس الشاعر نفسه، إذ ما صدر من القلب نفذ إلى القلب وحصل به التأثير والتطهير، إذ يفهم من كلام حازم هذا " أنّ الإثارة التخييلية لا تكون عن طريق الصورة فحسب بل عن طريق الفكرة أيضا ".[111]فلكي تحقّق الصورة غايتها النفعية ينبغي لها أن تكون قادرة على إثارة انفعال المتلقّي والعمل على تحريك خياله ومن ثمّ حمله على الاستجابة النفسية أو الذهنية دون تروّ أو إمعان نظر، أي ينبغي أن تكون استجابة المتلقّي من تلقاء نفسه عفوية ولا إرادية سيّان انبساطها أو انقباضها ولعلّ هذا ما عبّر عنه صلى الله عليه وسلّم بقوله المشهور: " **إنّ مِنَ البيانِ لَسحْراً وإنّ مِنَ الشعْرِ لَحِكْمةً** ".

والملاحظ أنّ البلاغيّين والنقّاد أمثال حازم وجّهوا اهتمامهم إلى أثر الخيال في نفس السامع أو القارئ وأغفلوا سيكولوجية التخييل بالنسبة إلى الشاعر على أساس أنّ الخيال هو إحدى قوى النفس[112] وعملا من أعمال الذاكرة ،[113]إذ هو عنصر هامّ في عمليّة الإبداع والصناعة الأدبية بخاصّة والفنّية بعامّة ، فلا يمكن أن يُبدع بمعزل عنه أيّ مبدع سواء أكان شاعرا ، أم رسّاما ، أم روائيا ،أم أديبا ، أم فنّانا بشكل عامّ.

وخلاصة القول إنّ ما يقدّمه الشاعر من صور شعرية قادرة على النفاذ إلى نفس سامعه أو قارئه مؤثّرة فيه وممكّنة إيّاه من رؤية الأشياء غير المألوفة مألوفة

---

110) منهاج البلغاء وسراج الأدباء،حازم القرطاجني ،تح محمد الخسن بن خوجة،ط2 ،دار الغرب الإسلامي،بيروت،1981،ص89.

111) الآداب مجلة جامعة قسنطينة ص69.

112) ينظر الخيال في مذهب محيي الدين بن عربي ص5 ،وينظر معارج القدس في مدارج النفس أبو حامد الغزالي،شركة الشهاب الجزائر 1989 ،ص77.

113) ينظر الصورة الأدبية، مصطفى ناصف ،ص31.

والمفكّكة موحّدة، تلك هي حقيقته وهذه هي فاعليته ، فإذا هو " يوحّد بين المادّي والحسّي، والفكري والمعنوي، ويذيب الحدود المصطنعة بينهما فيتناغم الحسّ مع الفكر دون أن يفصله أو يتميّز عنه ".[114] ولا غرو إذا قلنا إنّ ملكة الخيال – وأنعم بها من ملكة – قد "جمعت حولها شتّى التعاريف الطنّانة والمتضاربة على ما يبدو ".[115]

وإذا ما تركنا الخيال جانبا وعرّجنا على مكوّنات الصورة الفنّية وموادّها نجدها في الغالب تتألّف من حدّين أساسين، أحدهما حاضر ماثل أمام الشاعر يريد وصفه، وثانيهما مختزن في الداخل يماثله أو يزاوجه؛[116] فللموضوع أهمّية كبيرة في الصورة لأنّه جامع لاهتمام الشاعر وذوقه وفكره وانفعالاته أو بكلمة أخرى إنّه وذات الشاعر يشكلان معا الصورة الفنّية[117]. ويرى د/ الرباعي أنّ القيمة الكبرى للصورة الشعرية كائنة في عملها على تنظيم التجربة الإنسانية الشاملة للكشف عن المعنى الأعمق للحياة والوجود المتمثّل في الخير والجمال من حيث المضمون، والمبنى بطريقة إيحائية مخصبة من حيث الشكل[118].

هذا، وللصورة مصادر ثلاثة أساسة تنبع منها وهي:حياة الشاعر الخاصّة، وحياة مجتمعة، والطبيعة الحيّة أو الميّتة.[119]

ولعلّ خير ما نختم به عجالتنا هذه عن الصورة هو ذلك الكلام الجامع عنها في قول الجاحظ: " فإنّما الشعر صياغة وضرب من النسج وجنس من التصوير. *"[120]

---

114) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ص416.

115) الصورة الشعرية لدي لويس ترجمة د/أحمد نصيف الجنابي ،مالك ميري سليمان ،حسن إبراهيم ،دار الرشـــيد للنظر الجمهورية العراقية ،دت،ص73.

116) ينظر الصورة الفنية في شعر أبي تمام، ص29.

117) نفسه ص30.

118) نفسه ص14.

119) نفسه ص30.

وعلى الرغم من أنّ كلمة تصوير تشمل كلّ أنماط الصور الشعرية في هذه المقولة الجاحظية ، وأنّ كلمة صورة وصور تردّدت لدى نقّادنا وبلاغيّينا القدماء ؛ فقد عدّها من تعرّضوا لها من الدارسين مصطلحا نقديا حديثا انتقل عن الأوربيين إلى نقدنا العربي عن طريق الأدباء والنقّاد العرب المطّلعين على الثقافة الغربيّة أوالمولعين بها.

وقد لاحظ د/ أشرف محمود نجا[121] أنّ الصورة في قصيدة المديح العربي قد تأثّرت بسياق التجربة المدحية ذاتها ، وكشفت عن رغبة الشاعر الملحّة في خلع الثوب المثالي دائما الأسطوري أحيانا على ممدوحه ، اعتمادا على مبدإ التشخيص أو خلق الشخصيات التي يمزج فيها النموذج مع الفرد من أجل إظهار النموذج في الفرد أو الفرد في النموذج[122]، حتّى صارت هناك صورة مثالية للممدوح تجمّعت فيها كلّ الصفات المنشودة التي لا و لم تكن تقوم من حيث هي تعطي صورة حقيقية وصادقة للمدوح بمقدار ما تقوم من حيث نجاحها في أن تجعل المثال عظيما وكاملا[123]، الأمر الذي دفع هؤلاء الشعراء إلى تحسين صورهم والتباري فيها، وعرضها في أبهى ثوب وأظرف شكل لإرضاء طموحهم الفنّي بتوفير ملامح المثالية المطلقة في صورة الذات الممدوحة.

والجدير بالذكر في هذا المجال أنّ كثيرا ممّا دار عن الصورة في هذه الدراسة قد لا نجدله مثالا ممّا جادت به قرائح الشعراء في عهد الطوائف على وجه الخصوص، ذلك أنّ الحديث عن الصورة هنا كان عامّا شمل حتّى الصورة في الشعر العربي الحديث والمعاصر، ممّا قد لا ينطبق على شاعرنا العربي القديم بعامّة الذي كان وفي أغلب

---

120)) الصورة والبناء الشعري ،محمّد حسن عبد الله ص12، اثر القرآن...ص188. * ً هناك روايتان في قول الجاحظ .

121) ينظر قصيدة المديح في الأندلس ...عصر الطوائف ص194و195

122) ينظر نظرية الأدب،رينه ويلك وأستن وارين ،ترجمه محيي الدين صبحي،المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، مطبعة الطرابيشي،دمشق،1972 ،ص36.

123) ينظر الأسس الجمالية في النقد العربي، د/عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، القاهرة، 1974 ص199.

الأحيان يعمل على تحطيم عالمه الداخلي في سبيل إرضاء العالم الخارجي، وكلّما حاول أن يخرج عن ذلك كما فعل روّاد الشعر الحرّ [124] من تحطيم للعالم الخارجي في سبيل إرضاء العالم الداخلي وجد أمامه النقاد بالمرصاد . هذا ، والحديث عن الصورة متشعّب حتّى إنّه ليوجد علم كامل لذلك منفرد يسمّى " بعلم الصورة " أو الصورولوجيا.(IMATOLOGIE) [125]

وننتقل من الجانب النظري هذا إلى الجانب التطبيقي في هذه الزوجية، بادئين ذلك بصورة الممدوح من الناحية الخَلقية والخُلقية:

124) ينظر مفهوم الشعر عند رواد الشعر العربي الحرّ،د/فاتح علاق ،منشورات اتحاد الكتاب العرب،دمشق،2005،ص258 وما بعدها.

125) ينظر الرحلة في الأدب .د/شعيب حليفي ،رؤية للنشر والتوزيع،2006،ص282

الفصل الأول:
صورة الممدوح الخَلقية والخُلقية

أ- صورة الممدوح الخَلقية

ب- صورة الممدوح الخُلقية

1- فضيلة الكرم

2- فضيلة شدّة البأس

3- فضيلة العلم

4- فضائل أخرى

الفصل الأوّل: صورة الممدوح الخَلقية والخُلقية.

أ/ صورة الممدوح الخَلقية:

قديما قال النابغة الذبياني في ممدوحه النعمان بن المنذر:

أَلَمْ تَــرَ أنّ اللّــهَ أعْطاكَ سورةً * ترى كلّ مَلْكٍ دونَها يَــتَذبْذبُ*

بأنّــكَ شمسٌ والــملوكُ كَواكِبٌ إذا طــلعتْ لَمْ يبْدُ منْهنّ كوْكبُ

ولا ندري إذا كان هذا المدح خَلقيا أم خُلقيا أم هما معا ؛ فالشمس كذلك جــذبت انتباه الشاعر الأندلسي ، فوصف بها ممدوحه مريدا بذلك السموّ والرفعة والإشراق الذي يعمّ ضوؤه أنحاء الأرض الساطع عليها ، كأنّه نور وجه الممدوح الذي جَمُل حتّى صار كالشمس المتلألئة نهارا إلاّ أنّها تغرب وتكون من الآفلين ؛ وكأنّ شاعرنا الأندلسي المتمثّل في شــخص ابن شهيد الذي وصف ممدوحه المؤتمن صاحب بلنسية، قد أحسّ بمعنى الأفول هــذا، أو أنّ جمال الممدوح عبر ما مدح به النابغة نعمانه يقتصر على النهار، حيــث تظهــر الشــمس، فأضاف إلى ذلك القمر الذي يتجلّى ليلا، فالمؤتمن شمس بالنهار وقمر بالليل. وما أكثر مــا تردّد وصف الجميل أو الفائق الجمال بالقمر و البدر، وإن كان ذلك يكثر في وصف المرأة في شعر الغزل لا في المدح ، وفي ذلك قال :[1]

تُبْصرُ العيْنان مِنْهُ إنْ بَــدا قمرَ السرْجِ وشمْسَ الموْكِبِ.

أَنْجبتْه لِلْمعالي أسْــــــرةٌ نَزلُوا لِلْمجْد أعْلى الرتَــبِ.

---

* سورة : منزلة و فضيلة * يتذبذب: يضطرب.

1) قال ابن بسّام:"من رسالة ضمّنها [ابن شهيد] هذه القطعة ووجّهها إلى صديقه المــؤتمن صــاحب بلنســية بعــد عــام (412هـ).

بنُفوسٍ مِنْ سَناءٍ غَضّـــــةٍ في جُسومٍ بَضّةٍ مِنْ حَسَبِ.[2]

وكأنّ الشاعر أحسّ بأنّ وصف الممدوح بالشمس والقمر قد لا يليق بالرجل، وإنّما يليق بالمرأة حتّى سمّيت "بشمس وبقمر" فراح يلطّف من ذلك حين جعل غضاضـــة نفـــس ممدوحه من سنائه وبضّة جسمه من حسبه ، للدّلالة على عراقة النسب . ثمّ أضاف :

ووُجوهٍ مشْرقاتٍ أوْمضَتْ ضاحِكاتٍ في وُجوهِ الكُرَبِ.

وهو مدح جمع بين الخَلْقي والخُلُقي، الروحي والجسدي. وقد حظيت هذه الصـــورة باهتمام الشاعر ابن الحدّاد الوادي آشي ، حين جمع بين جمال ممدوحه المعتصم بن صُـــمادح وجزيل عطائه ، متّخذا من الشمس التي هي هذه المرّة الغزالة وما فيها من اتّقاد وسناء ، وبين ما يتمتّع به المعتصم من جود وسخاء قائلا :[3]

فمِنْ جودِه ما في الغمامةِ منْ حيا ومنْ نورِه ما في الغزالةِ منْ وَقْدِ.

وقد أبدع ابن شهيد في مدح ممدوحه بجمال الشمس والقمر ، وهو هذه المرّة هلال بعد أن أخلى هو وأصحابه الحمّام للحاجب أبي عامر محمّد بن المظفّر لشأن عـــرض لـــه في حمّامه منعه من دخوله :

يا حُسْنَ حمّامِنا وقدْ غَرُبـــتْ شمْسُ الضحى فيه بعْدما مَتَـــعا*

أيْقنَ أنّ الهلالَ راكبُـــــهُ فضاءَ للْحاضرينَ واتّسعـــــا

فأنْعِمْ أبا عامرٍ بنعْمتـــــــهِ وأَعْجِبْ لأمريْن فيه قدْ جُمِعـــا

نيرانُهُ منْ زِنادِكُمْ قُدِحـــتْ وماؤهُ منْ بَنانكمْ نَبعـــــــا[4]

---

2) الذخيرة1/1: 211،212

3) الذخيرة 2/1 :720.

4) ديوان ابن شهيد، ص، 92 و 93. * يقال متع النهار والضحى بلغ غاية ارتفاعه وهو ما قبل الزوال.

صورة جميلة مأخوذة من الواقع الاجتماعي الدالّ على حرص العرب والمسلمين بعامّة على النظافة التي من شأنها الوحي بالجمال ، لأنّ الإنسان وخاصّة إذا كان على قدر من الجمال بهيّ الطلعة فإنّ الاستحمام يزيده جمالا على جمال . فهذا حمّام يدخله أبو عامر وكأنّه شمس لدى الغروب في العين الحمئة . وهي صورة ضياء في ظلام ، الداخل شمس والمدخول ظلام ، والأعجب من ذلك أنّها شمس الضحى فكيف تغرب ؟! إنّه خيال الشاعر الذي استطاع أن يجمع ويؤلّف بين المختلف، فإذا هي بعد ذلك هلال ليتناسب مع ظلام الليل الذي دلّ عليه ظلام الحمّام، وكلّها أوصاف خارجية معادلة لأوصاف خارجية كذلك.

وإذا كان ممدوح ابن شهيد عند دخول الحمّام شمس وهلال معا ، فإنّه هو نفسه قمر في الليالي الحالكات المدلهمّة يضيء خطوبها ويفرّج كروبها :

مِنْ عامرٍ أهْلِ المصـــــا نعِ والصنائعِ والكرائِـــمْ

قمرٌ تُضيءُ له الخُطـــوبُ على دَآدِيـــها*[1] الفواحِـــمْ[5]

فالخنساء حاضرة فيما مضى من تمثيل بزناد صخرها الذي منه النار قد قدحت ، وبنانه الذي منه المياه قد نبعت ، ممّا يحملنا حملا سريع الخطى إلى معجزة نبع الماء من بين أصابعه الشريفة صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم ، فاليد وصف خَلقي لكنّه بعمليّة كيميائية في خيال الشاعر وثقافته تحوّل إلى خُلقي نُسجت عليه هالة من الجلال والدلال حين راحت تغرف من أوصافه صلى الله عليه وسلّم ، وهو هنا جمال لكنّه ليس جمال الفراشة الذي لا نفع فيه ، إنّه قمر تضيء له الخطوب ، وجمال تنكشف أمامه الأهوال ، ينطوي على معنى الشجاعة والكمال التي تفتقدها الكثيرات من ربّات الحجال .

وإذا كان ذلك الماء لم ينبع إلاّ من بين أصابع محمّد صلى الله عليه وسلّم ، فإنّ صنوه وخليله وصهره عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه لم يغب عن أبي عبد الله بن شرف البرْجي حين راح يصف ممدوحه المنصور حفيد بن أبي عامر، وهو يمرّ بشاعرنا وكأنّه غصن في

5) ديوان ابن شهيد:155 *1 الدآدي: ثلاث ليال من آخر الشهر وهي ليال شديدة الظلمة.

اعتدال قدّه وقمر في جمال وجهه الذي سطع منه نوره ، إلاّ أنّه دائم ليس كنور القمر الذي ينجلي ولا يبدو للأعين إلاّ ليلا . وكأنّ الشاعر أحسّ بأنّ رشاقة القدّ وتشبيه الرجل بالقمر، وخاصّة إذا كان ملكا ، قد ينازع فيه المرأة ، فأصبغ عليه جمال باب مدينة العلم عليٍّ وشجاعته بذي فقاره الواضع حدّا للأجل لأهل الشرك والباطل أو لأصحاب العناد ونزغات الشيطان الخاذل ، لنتركه يقول :[6]

مرّ بي غصْنٌ عليْه قمَرٌ مُتجلٌّ نورُه لا ينْجَلي

هزّ عِطْفيْه فقلْنا إنَّهُ ذو الفَقارِ اهْتزّ في كفّ عَلي

ورأيْتُ الناسَ صرْعى حوْلهُ فكأنَّ اليوْمَ يوْمُ الجَمَلِ

تلْك أخْبارُ زمانٍ قدْ مضى وأُمورٌ في السنينَ الأُوَل

وشتّان ما بين الجوّ الذي تضفيه هذه الأبيات على نفسيّة الشاعر سواء كان مدحه هذا مدح الصادق أو المتقوّل وبين جوّ:

زمنُ المنْصورِ قوّى منّتي وسرَى همّي وأحْيا جَذَلي

وسرورُ النفْس مِنْ بعْد الصّبا ناشرٌ عصْرَ الصّبا والغَزَلِ

فاسْتُطيبَ العيْشُ في بلْدته فكأنّ الناسَ في قُطْرُبُلِ

وكأنّ الشمْسَ منْ بهْجتِها أبداً فيها ببُرْج الحَمَلِ[7]

فقد أضفى جمال القمر وصاحب الوجه البدريّ والقوام المعتدل على نفسيّة الشاعر جوّا من الانشراح والجذل ، فغدت الدنيا في وجهه ربيعية وكأنّها أبدا ببرج الحمل، وكأنّ الوطن والمرابع في عين الشاعر الثمل ببهاء ممدوحه المنصور ليس مرابع الغربة بالأندلس ، وإنّما هي مرابع وطن الأرومة الأمّ الذي وجد له الشاعر معادلا نفسيّا سخيّا وفيّا في قطربل.

---

6) الذخيرة: 4/1: 218.

7) نفسه : 218.

وفكرة الليالي المدلهمّة الدآدي والخطوب المتراكمة العوادي ، وكيف أنّ الممدوح هو تلك الشمس التي تبدّد سوادها ، وذاك القمر الذي ينير غياهبها ، أو الصّبح ، أو الوجه الصبوح المشرق الوضاء المتهلّل الذي ينبلج في سوادها فيمتّعها قلبا وقالبا ، جسدا وروحا ، وكأنّه البنفسج بجماله وطيب ريحه ، أو كأنّه المسك الذي عمّت رائحته الأجواء فذكت ونفحت ؛ وهو ما ترنّمت به نفسية ابن الحدّاد في شخص المعتصم بن معن بن صُمادح الذي بهت طلعته، ومُزجت وتعانقت فضائله :[8]

وما الدّهْرُ إلاّ لَيْلَةٌ مُدْلهمَّـــــةٌ وكوْنُ ابْنُ مَعْنٍ صُبْحُها المتبـــالج*1

سماحٌ وإقْدامٌ وحِلْمٌ وعِفَّـــــةٌ مُزِجْن فأبْدى مُهْجةَ الفضْلِ مازجُ

فقدْ صاك*2منْ فضْلِ العوالمِ طيبُه وهلْ يَكْتُمُ المسْكَ الذكيَّ نوافِجُ*3

مساعٍ أحلّتْكَ العُلا فكأنّهـــا مَراقٍ إلى حيْثُ السّها*4 ومعارجُ.

ويبدو أنّ المعتصم بن صُمادح كان على قدر كبير من الجمال بهيّ الطلعة ، فتداعت معاني الشاعر بذكر اللؤلؤ وما فيه من جمال وبهاء إلى وصف المعتصم بالجمال الذي فاق كلّ جمال ، وبالحسن الذي لا يستطيع الرائي أن يمعن فيه النظر، فقد تجاوز الحدّ الذي تستحيل معه الرؤية :[9]

تجاوزَ حدَّ الوهْمِ واللحْظِ والمُنى وأعْشى الحِجى لأْلاؤهُ المتلأْلِئُ

فتنْعكسُ الأبْصارُ وهْي حَواسِرٌ*1 وتنْقلبُ الأفْكارُ وهْي خَواسِئُ*2.

---

8) السابـــــق 2/1 : 721مدلهمّة=كثيفة الظلام *1 المتبالج=المضيء المشرق*2 صاك=عبق،فـاح*3 النافجـة:وعـاء المسك*4 السها:كوكب خفي من بنات نعش الصغرى

9) نفســـــه 2/1 : 710 ،*1حسر البصر : كلّ وانقطع من كلّ مدى،*2خسأ : كلّ وتعب . وينظـر الأدب في المرية، الغوتي العربي الشريف ص 103 .وفيه نظر إلى قوله تعـالى : (فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝) (الملك / 3 و 4)

كما يبدو أنّ ممدوح شاعرنا كان يستحسن مثل هذا المدح وترتاح إليه نفسه ، ولذلك وجدناه يمدحه بالحسن والجمال في أكثر من موضع في شعره على غرار قوله مختارا له ما في السيف من لمعان -وإن كان عنترة قد شبّه به بارق ثغر عبلة المتبسّم-وما في الذهب الخالص من نظارة وصفاء وما في الورد من عطر وبهاء وكلّ ذلك مقارنة بما كان يتمتّع به الممدوح من جود وسخاء :[10]

تلألأَ كالإفْرِنْدِ*1 في صارمِ النُّهى وكُرِّر كالإبْريزِ*2 في جاحِمِ الوَقْدِ

ومنْكَ أخذْنا فيكَ القوْلَ جَلالةً وما طابَ ماءُ الوِرْدِ إلاّ مِنَ الوِرْدِ.

وكأنّ ابن الحدّاد قد أحسّ بأنّ هذه الصورة التي رسمها لجمال المعتصم الخلْقي من المبالغات المتطرّفة التي عابها النقاد والتي تجاوزت حدّ الوهم واللحظ والمنى على حدّ تعبيره هو نفسه فضلا عن كونها من عيوب المديح حسبما يورد أبو هلال العسكري ،[11] فراح يعدّل منها فيرسم للمعتصم صورة أخرى جمعت بين جلالة سليمان عليه السلام وعظمته ، وجمال يوسف عليه السلام وعفّته ، إذ يقول :[12]

جلالةٌ لسُلَيْمانَ ومُلْتَمَحٌ ليوسفَ يوْمَ للنّسوانِ مُتّكأُ*4

ملتمح وظهور وخروج للممدوح على قومه فيه كثير من الإكبار والإعجاب الشديد بجمال الممدوح حتّى إنّه خرج عن البشرية الآدمية ودخل إلى الروحية الملائكية ، ممّا يذكّرنا بقول صاحبات يوسف عليه السلام «فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ.» (يوسف/31). وكلّ هذا احتملته لفظة ملتمح ، ممّا

---

10) الذخيرة 2/1 :720 ،*1الافرند :السيف، *2 الإبريز :الذهب الخالص .

11 كتاب الصناعتين: 95وينظر الأدب في المرية ص104.

12 الإحاطة في أخبار غرناطة:ابن الخطيب لسان الدين181/2. *4 يشير هنا إلى إكبار النسوة ليوسف عليه السلام وشغفهنّ بجماله في قوله تعالى: "فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئًا..." الآية 31من سورة يوسف.

يجعلنا نردّد بأنّ الصورة قد تكون لفظة ، إلاّ أنّ هذه الصورة التي رسمها ابن الحدّاد لممدوحه ثمّ راح فعدّلها أيّما تعديل نجدها تتردّد في قوله :[13]

مُتلألئٌ يُثْني العُيونَ نواكِساً كالشمْسِ تعْكِسُ لحْظَ مَنْ يَتأمّلُ.

وإذا كان الممدوح هنا وهناك وهنالك كالشمس ، فإنّ الممدوح عند ابن اللبّانة قد فاق الشمس اتّقادا ، بحيث لو استمدّت منه أشعّتها لتسنّ لها السطوع حتّ في الليل الشديد السواد الأقتم :[14]

صفا فلوْ أنّ الشمْسَ تُعْطى شُعاعُهُ لما احْتَجَبتْ في ليْلٍ أَرْبدَ أقْتَمِ

وقد كشف الممدوح " عند ابن عمّار عن جبين أغرّ وضاء ، أحلّه محلاّ مكينا محبّبا في القلوب ، كما أنزله في نفوس الأعاظم منزلة جليلة يقول :

أغَرُّ مَكينٌ في القُلوبِ محبَّبٌ إليْها عظيمٌ في نُفوسِ الأعاظِمِ ".[15]

وهو-المعتمد بن عبّاد-عند ابن زيدون تبدو عليه وسامة أخّاذة بتلابيب القلوب ، محبِّبة إيّاه إلى النفوس ، حتّ إنّ العين لا تشبع من النظر إليه والتأمّل في محيّاه ، فلا تكتفي بالنظرة الأولى إليه لولا مهابته ووقاره الذي أضفاه عليه جماله ووسامته :[16]

تَبْدو عليْكَ مِنَ الوَسامةِ حُلّةٌ يَهْفو إليْها بالنفُوسِ وِدادُ

لمْ يَشْفِ منْكَ العيْنَ أوّلُ نظْرةٍ لوْلا المهابةُ راجَعتْ تَزْدادُ.

ولا يقتصر الأمر على جمال الوجه وكأنّه الشمس في إشراقه والقمر في ضيائه واستدارته ، ولا على اعتدال القوام ورشاقة القدّ ، بل يتعدّى ذلك إلى جمال الحديث وعذوبته ، ولطف الحوار والجدال وحكمته . ولنترك ابن زيدون يصوّر ممدوحه بقوله :[17]

---

13) شعر ابن الحدّاد ص244.

14) شعر ابن اللبانة الداني، ص.96.

15) قصيدة المديح في الأندلس. .ص42

16) الديوان، ص224

قسيمُ المحيّا ضَحوكُ السّماحِ لطيفُ الحوارِ أديبُ الجَدَلْ.

وهذا ما التقطته عدسة الشاعر ابن اللبّانة في هذا الممدوح المعتمد بن عبّاد من "حلاوة كلم ، وعذوبة حديث حتّ لكأنّ ألفاظه التي ينساب بها لسانه خمر معتّقة وغناء مطرب[فهو]عذب المناجاة لا ينطق بالفاسد المضطرب من الكلام طاهر الذات ، ليس في خلقه شين أو عيب ، كما في قوله :

رَطْبُ اللسانِ كأنَّ في ألْفاظِهِ راحاً مُعتَّقَةً وشَدْواً مُطْرِبَا ".[18]

وقوله :[19]

عذْبُ المناجاةِ ما في نُطْقِهِ خَطَلُ وطاهرُ الذاتِ ما في طَبْعِهِ طَبَعُ.

وكأنّ الشاعر لم يفطن إلى أنّ الخمر المعتّقة قد تذهب ببيان النطق وسلامة الألفاظ ، فأساء إلى ممدوحه من حيث لا يشعر ، حين صوّر رطوبة اللسان بالخمر المعتّقة ، وهي تؤدّي حسَب ما ندري إلى التلعثم والخطل في القول الذي نفاه عن ممدوحه ، وكأنّه ذمّ في مدح أو خلط لوصف صالح بآخر طالح .

وإذا كان الدين المعاملة كما ورد عنه صلى الله عليه وسلّم ، وأنّ على الإنسان أن يجمع بين زوجيّة اللين والصلابة : فلا يكون يابسا فيكسر ولا ليّنا فيعسر، كذلك كان "الممدوح عند أبي الوليد حسّان بن المصيصي[20] يكشف في وقت السلم عن وجه حييّ ، خجول في معاملة الناس، وفي وقت الحرب يرتدي قناع القسوة والشدّة حتّ يرهب أعداءه ، يقول :[21]

---

17) الديوان، ص232.

18) شعر ابن اللبّانة الداني:ص15 ، وقصيدة المديح في الأندلس ص37.

19) نفسه :ص65.

20) عليّ بن حصن الإشبيلي من مشاهير شعراء المعتضد بن عبّاد وكتابه المجيدين ، وأحد وزرائه المرموقين ،إلاّ أنّ المعتضد فتك به لطيش كان فيه كما يقول ابن سعيد (المغرب في حلى المغرب251/1 و قصيدة المديح في الأندلس. . ،ص38.

21) الذخيرة 2/1: 444 وقصيدة المديح في الأندلس. .ص38و 39.

وكمْ لكَ في السّلْمِ وجْهٌ حَيِـيٌّ وكمْ لكَ في الحرْبِ وجْهٌ وَقاحُ ".

وهذا ما صوّر به ابن اللبّانة ممدوحه حين قال :[22]

وَرَقَّ فلوْلا أنّ فيه جزالـــةً مِنَ البأْسِ لاسْتَنْشقْتَهُ في التنَسُّمِ .

ولهذا فالممدوح في عصر الطوائف وخاصّة الملك ،كلّ ما فيه جميل، وكلّ ما يوصف به قليل " فقد تنبّل هذا الممدوح مرأى ومخبرا، خَلقا وخُلقا حتّ فتنت بحسنه العيون،وشغفت بحبّه القلوب ، يقول عليّ بن حصن الإشبيلي :[23]

تَنَبَّلَ منْه كلُّ مَرْأىً ومَخْبَرٍ فقدْ فُتِنتْ فيهِ قُلوبٌ وأعْيُنُ ".

وهذا الجمال ، وهذه الوسامة جلبت إليه القلوب، وحبّبته إلى النفوس حتّ إنّ العين لا تملّ من رؤياه لولا مهابته وعلاه ، يقول ابن زيدون :[24]

تبْدو عليْكَ مِنَ الوَسامَةِ حُلّـةٌ يهْفو إليْها بالنفوسِ وِدادُ

لمْ يشْفِ منْكَ العينَ أوّلُ نظْرةٍ لوْلا المهابةُ راجعتْ تزدادُ.

وهذا ما حدا بالدكتور أشرف محمود نجا إلى القول : " ولعلّنا لا نجد شعراء الأندلس في تلك الحقبة [أي عصر الطوائف]يتجاوزون هذه الصفات السابقة إلى غيرها من الصفات الحسنة المحضة كالتنويه باكتمال الخلق والبسطة في الجسم وامتشاق القامة وتلألؤ الوجه ، وقمريّته ، وطلاقة المحيّا والوسامة ..*1وما شابهها ، وربّما يردّ ذلك إلى إحساس الشعراء الأندلسيين آنذاك بقضيّة البقاء والزوال في الحياة بسبب كثرة الهزّات والخطوب والانقلابات

22) شعر ابن اللبانة،ص96.

23) الذخيرة 2/2 :183،وقصيدة المديح ..ص39.

24) ديوان ابن زيدون ص224

*1 تمّ حذف : (واكتحال العينين) وما شابهها : إذ لم يأت بمثال واحد يدلّ على أنّ الشاعر مدح ملكه بسواد العينين سوى ما أورده من قول ابن زيدون:

من لنا فيك بعيب واحد تحذر العين إذا الفضل كمـلْ

شرف تغني عن المدح به مثلما يغني عن الكُحْل الكَحَلْ : (قصيدة المديح في الأندلس ص44.)

والسقوط في المجتمع الأندلسي ، وإدراكهم أنّ القيم التي ينبغي أن يُعوّل عليها في المفاضلة بين ممدوحيهم إنّما هي القيم المعنويّة والنفسية والعقلية التي سرعان ما تتحوّل من خلال ربطها بشخص الممدوح إلى قيمة تبقى وتخلد ولا تزول أو تفنى بسقوط الأشخاص أو زوال ملكهم . بالإضافة إلى ارتقاء الذوق الأندلسي نتيجة اختلاط الدماء وامتزاج الثقافات،وكثرة الأجناس في المجتمع وتنوّع خصائصهم وملامحهم الخلقية، الأمر الذي تضعف معه قيمة التنويه بالصفات الحسّية المحضة ويصبح الاتّكاء عليها في مدح [ملوك]الطوائف والمفاضلة بينهم شيئا عديم الفعالية والتأثير ".[25]وما أصدق المقولة القائلة: " إنّ الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأفعالكم " أو كما قال الشاعر:

ليْس الجَمالُ بأثْوابٍ تُزيّنُنا إنّما الجمالُ جمالُ العلْمِ والأدَبِ .

وقد انتبه إلى هذه القضيّة عبد الملك بن مروان حين قال لمادحه : "يا معشر الشعراء ، تشبّهوننا مرّة بالأسد الأبخر ومرّة بالجبل الأوعر، ومرّة بالبحر الأجاج ، ألا قلتم فينا كما قال أيمن بن خُزيم في بني هاشم :[26]

نهارُكمُ مُكابَـدَةٌ وصـوْمٌ وليْلُكمُ صلاةٌ واقْتِـراءُ
وَليتُمْ بالقرْآنِ وبالتـزَكّي فأسْرَعَ فيكُمُ ذاكَ البلاءُ
بكى نجْدٌ غداةَ غدٍ عليْكمْ ومكّةُ والمدينةُ والجِواءُ
وحُقَّ لكلّ أرْضٍ فارقوهـا عليْكمُ لا أبا لكُمُ البُكاءُ
أأجْعلُكمْ وأقْواماً سـواءً وبيْنكمُ وبيْنهمُ الهـواءُ
وهُمْ أرْضٌ لأرْجُلِكمْ وأنْتمْ لأرْؤسِهمْ وأعْيُنهمْ سماءُ.

---

25) قصيدة المديح في الأندلس،ص43.

26) الأغاني 20/ 273،و ديوان المعاني :25و26 و أمالي المرتضى 24/2. وينظر الاتّباع والابتداع في الشعر الأموي – محمد أمين المؤدب،ص 37.

وإذا كان قدامة بن جعفر " قد حصر وجه عتب عبد الملك في كون الشاعر عدل عن الفضائل النفسية التي هي : العقل والعفّة والعدل والشجاعة وما جانس ذلك ودخل في جملته إلى ما يليق بأوصاف الجسم كالبهاء والزينة فإن الآمدي لا يوافقه في ذلك لأنّ في الشعر العربي ذكرا لتيجان الخلفاء ولأنّ جمال الوجه وحسنه ممّا يجب المدح به ، فإنّ الوجه الجميل يزيد في الهيبة وتتيمّن به العرب لأنّه يدلّ على الخصال المحمودة[27] ولأنّ الأخذ بما ذهب إليه [قدامة] يجعله قد عدل .. عن مذاهب الأمم كلّها عربيّها وعجمها ، وأسقط أكثر مدح العرب وهجائها ".[28]

والواقع أنّ المدح بالفضائل الخَلقية والخُلقية وارد في الشعر العربي قديمه وحديثه وأنّ المديح بالفضائل الخَلقية من حسن ، وبهاء ، وطول قامة ، ورشاقة قدّ ، وطلاقة محيّا وصباحة وجه يستند إلى كثير من الواقعيّة وإلاّ لكان مَقْدحا لا ممدحا .

كانت هذه صورة عن صورة الممدوح الخَلقيّة فماذا كان بشأن صورة الممدوح الخُلقية ؟ ذاك ما نسلّط عليه الأضواء في الصفحات الآتية .

---

27) الموازنة 2/367،368.

28) نفسه 2/369 والاتّباع والابتداع في الشعر الأموي ،ص36.

ب/ صورة الممدوح الخُلقية:

1- فضيلة الكرم :

أصبح من المسلّم به أنّ المنطلق الشرعيّ لأيّ عمل تكون عاقبته محمودة في الدنيا والآخرة ، ومن هنا كان ذلك الدعاء الخالد: " **رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ** " .(**البقرة/201**) ولعلّ ماكتبه الدكتور عائض القرني تحت عنوان " الذكر الحسن عمر طويل " يعدّ أحسن منطلق لما نحن بصدده إذ قال :

" من سعادة العبد أن يكون له عمر ثان، وهو الذكر الحسن وعجبا لمن وجد الذكر الحسن رخيصا و لم يشتره بماله وجاهه وسعيه وعمله.

[وإنّ].. إبراهيم عليه السلام طلب من ربّه لسان صدق في الآخرين وهو الثناء الحسن والدعاء له.

وعجبت لأناس خلّدوا ثناء حسنا في العالم بحسن صنيعهم وبكرمهم وبذلهم حتّى إنّ عمر سأل أبناء هرم بن سنان:ماذا أعطاكم زهير، وماذا أعطيتموه ؟ قالوا مدحنا وأعطيناه مالا. قال عمر: ذهب والله ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم ".[1]

وإذا كان ملوك الطوائف قد أعطوا شعراءهم مالا وأغدقوا عليهم الجوائز السّنية والهدايا، فقد ذهب ما أعطوا وبقي ما أعطى هؤلاء الشعراء عبر مديحهم لهم.

وتعدّ فضيلة الكرم من أكثر الفضائل تردّدا في مديح شعراء الطوائف لممدوحيهم، وقد علّل الدكتور أشرف محمود نجا ذلك بأنّها مظهر من مظاهر القوّة والسيادة ،[2] ذلك أنّ الكرم قوّة اقتصادية للنفس الإنسانية بها تعلو على غيرها من بني جنسها . وقد ورد في هذا الباب أنّ اليد العليا خير من اليد السفلى. وقد يكون الكرم عن طبع وسجيّة حتّى بدون غنى،

1) لا تحزن،مكتبة العبيكات،ط14 ،2004 ،ص285.

2) قصيدة المديح في الأندلس . . ،ص33.

، فيعطي الكريم ما بيده لغيره إيثارا على نفسه.وأحسن ما ورد في هذا مدح الله سبحانه وتعالى المؤثرين على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، وما ذلك إلا وقاية لشحّ النفس. وقد أدرك الإمام الشافعي – رحمه الله – كلّ الإدراك أنّ السخاء ومالفّ لفّه ودخل في بابه كالجود والكرم والندى يغطّي كلّ العيوب الاجتماعية ، كما ورد في قوله :[3]

وإنْ كَثُرَتْ عيوبُك في البرايا وسرَّكَ أنْ يكونَ لها غطاءُ

تستَّرْ بالسخاءِ فكلُّ عَيْبٍ كما قيلَ يُغطّيه السخاءُ

ولا ترْجُ السماحةَ مِنْ بخيلٍ فما للظّمْآنِ في النارِ ماءُ.

وقد اجتهد شعراء الطوائف على تجسيد هذه الفضيلة في ممدوحيهم أحسن تجسيد، من ذلك قول ابن شهيد مادحا بني الحكم بالكرم ممزوجا بالرفعة والعلا والمجد والعظمة، إذ يقول:[4]

وقالَتِ النفْسُ لّما أنْ خلَوْتُ بها أشْكو إليْها الهوى خِلْواً مِنَ النِّعَمِ

حتّامَ أنْتَ على الضرّاءِ مُضْطجِعٌ مُعرِّسٌ في دِيارِ الظُّلْمِ والظُّلَمِ ؟

ثمّ اسْتمرّتْ بفضْلِ القوْلِ تَنْهضُني فقلْتُ إنّي لأسْتحْيي بني الحَكَمِ

الملْحِفينَ رِداءَ الشمْسِ مجْدَهمُ والمنْعلينَ الثريّا أخْمَصَ القَدَمِ

وذادني كرمي عمّن ولهت بـه ويْلي مِنَ الحبّ أوْ ويْلي منَ الكَرَمِ

قُدّامَ أرْوعَ منْ قوْمٍ وجدْتُهمُ أرْعى لحقّ العُلا مِنْ سالفِ الأُمَمِ.

3) ديوان الإمام الشافعي،دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر ، 43

4) ديوان ابن شهيد ،148.

فهو يحبّهم لذاتهم ذلك الحبّ الذي ينتهي حين ينتهي في سموّه ونبلـه إلى " أحبّـك حبيّن "وهو هنا حبٌّ من أجل الحبّ للحبّ ذاته، وحبّ من أجل الكرم وكثرة الـنعم مـن ممدوحيه بني الحكم.

والمدح بالكرم قديم قدم غرض المدح ذاته و قد يسبقه في كثير من الأحيـان ، لأنّ أيادي الممدوح المبسوطة هي التي تزيد في التهاب قرائح الشعراء فتشكر وتعظّم، إلا أنّه هنـا أخرج في هذه الصورة الجميلة جمال هذا الحوار الذي جعل الشاعر يصوّر لنا كرم ممدوحـه وكأنّه مصيبة حلّت به ، أو خطر يحذَره ، فكانت كلمة " ويلي " :

"ويلي من الحبّ أو ويْلي من الكرم"

وهي صورة قائمة على هذا النمط من التعبير عن الوله بالممدوح وبكرمه ، فلا خيال ولا استعارة ولا تشبيه ، ومع ذلك كانت هذه الصورة التي يبدو الشاعر فيها وكأنه في رزيّة حلّت به ويستحقّ عليها الإشفاق والمواساة ، في حين أنّه يُحسد على ذلك من أقرانه الـذين ربما لم يحظوا بما حظي به. وإخراج كرم الممدوح على هذه الصورة نلمسه كذلك في قـول ابن شرف البرْجي في ممدوحه المعتصم[5]:

قدْ وَقفَ الشكْرُ بي لديْكمْ فلسْتُ أقْوى على الوفـادَه

ونلْتُ أقْصى المرادِ منْكـمْ فصرْتُ أخْشى منَ الزّيـادَه.

ويذهب ابن الحدّاد ذات المذهب حين يقول: " لم امتدح المعتصم طالب جدى، ولا راغب ندى على أنّ جميعنا رائد في رياض إنعامه، وارد في حياض إكرامه "[6]. فهو مـدح الحبّ والإعجاب والشكر على المعروف، ولذلك نجده يصرّح بأنّه أوقف مديحه عليـه ولم يسخّر نفائس الكلام إلاّ له:[7]

---

5) الذخيرة:2/3 :880 ونفح الطيب:395/3.

6) نفسـه:2/1:/697

7) الإحاطة:179/2.

هُو الحبُّ لم أُخرجْه إلاّ لمجْدِهِ ومثْلِيَ لأعْلاقِ النّفاسةِ خابئُ .

وإذا حاولنا أن نتتبّع هذا النوع من المدح بالكرم ، فإنّنا نجد لذلك أنواعا من الصور والمعاني تحمل في طيّاتها مدح الإعجاب ، والتقدير ، والشكر ، وما إلى ذلك من المعاني التي يحاول الشاعر دائما إخراج نفسه في مديحه من دائرة الاستجداء والكدية ، لأنّ صاحب المدح كما قال يوسف بن تاشفين " شحّاذ بائس يطلب خبزا ".[8] ومهما يكن من أمر ، فإنّ الشاعر الأندلسي في عهد الطوائف أسبغ على ممدوحه هذه الخصلة الجليلة من الخصال الحميدة التي كان يتحلّى بها العربي ومُدح بها في أكثر من قصيدة، فالممدوح يعطي بلا حدود أو كما قال ابن حمديس في المعتمد بن عبّاد:[9]

مَلكٌ إنْ بدأ الحمْدُ بهِ ختمَ الفخْرُ بهِ ما يَبْتدي

لا تلمْهُ في عَطاياهُ التي إنْ ترُمْ منْهنّ نقْصاً تَزْددِ

فهو في عطاياه في ازدياد دائم، فمهما أعطى الفقراء والسائلين والمحرومين من ماله فإنّ كرمه لا ينقص كما يتوهّم السائل وكأنّه يغرف من بحر:[10]

فنَداهُ البحْرُ والبحْرُ مَتى تَعْصِفِ الريحُ عليْهِ يُزْبِدِ

ومُحالٌ نقْلُكَ الطبْعَ الذي كان منْه في كريمِ الموْلدِ.

والكرم يصدر منه طبعا وسجيّة، فهو كالبحر إذا ما حرّكته الرياح وعصفت به أفواه السائلين زبد وعلا موج كرمه، وقد يعطي من غير سؤال، فهو متفهّم لأوضاع شعرائه من غير مديحهم أحيانا.

---

8) الشعر في عهد المرابطين والموحّدين بالأندلس، محمّد مجيد السعيد، الجمهورية العراقية، دار الرشيد 1980، ص81.

9) ديوان ابن حمديس ص140.

10) نفسه ،ص141.

وهذا ما جادت به قريحة الشاعر الحصري في ممدوحه المعتمد وآله بني عبّاد ، فالمعتاد هو ترويض الفرس الجموح ، أمّا الشاعر فقد راض الأيّام واختبر الناس ، فلم يجد مثيلا لممدوحه الذي أعطاه وأعطاه حتّى قيّده بالعطاء :[11]

رُضْتُ الأيّامَ جَوامِحَها ... وكَفَفْتُ اللدَّ عنِ اللدَدِ*1

وبلوْتُ النّاسَ فلسْتُ أرى ... كبني عبّادٍ منْ أَحَدِ

القومُ بحارٌ مسْجورا ... تٌ محْفوفاتٌ بالزَّبَدِ

لم يَعْدمْ واردُها دُرَرَ الـ ... آدابِ ولا دُرر الصفَدِ*2

صورة جميلة دائما للفرس ، إنها أيّام جموح ذللها الشاعر ؛ ثمّ إنّ هناك المحبّة الآتية لا عن عاطفة آنية ، ولكن عن تبصّر ودراية ، فكانت النتيجة أن لا أحد مثل ممدوحيه فهم بحار قامت قيامتها محفوفة بالكرم المزبد، زادهم الله بسطة في العلم والجسم والمال ، ثالوث قلّما يجتمع لأحد ، وإذا ما اجتمع كان هو الخير كلّه.صورة جميلة موحية ومعبّرة تغوص في أعماق قلب الشاعر الجموح وتمتطي نفسه المسجورة شوقا إلى نيل عزّ المال وجمال العلم والأدب من كرم ممدوحه الفيّاض.

زوجية يسعى إليها الشاعر ليحقّق بها توازنه النفسي والعاطفي ممّن في يدهم هذه الزوجية، ويتحكّمون فيها بسلطان القوّة . وتبقى هذه الصورة بقاء البحر حتّى يُسجر لا مع بحر سلطان بني عبّاد وقد سُجّر وأدبر. فكأنّ الشاعر يلمّح إلى ذلك اليوم المهول الذي تضع فيه كلّ ذات حمل حملها، إنّه يوم التنادي، ولذا يرجو من ممدوحه المعتمد ألاّ يعدمه خير المال وهو الذي على قدر كبير من الجمال، جمال السخاء من جود وكرم وبذل وعطاء ، وجمال ما يسطره القلم من الألف إلى الياء ، آداب في حسن خطاب كأنّه درر الصَّدف وصفَد ما لذّ وطاب من متاع الدنيا :

---

11) الذخيرة4/1 :262. *1اللد:الشديد الخصومة. *2 الصفد:صفده:أعطاه حتّى قيّده بالعطاء:(المعجم الوسيط 517/1.

أبني عبّادٍ ما حَسُنـــــــتْ إلاّ بكُـــمُ الدنْيـــا فـــقِدِ .

والكلام مفتوح افتتاح هذه القافية الدالية.

وإذا كان الحصري رأى هنا أن لا أحد مثل ممدوحيه ، فإنّ أبا عبد الله بن شـــرف صوّر ممدوحه يعطي بسخاء وجود أكبر من السخاء ، وما ذلك إلاّ لأنه يعطي وهو يعتـــذر لمن ينعم عليه ، فلربّما لم يوفّه حقّه أو إنّ نفسه السخيّة لم تقنع و لم ترض بعطائها، وفي ذلك يقول :[12]

يُعْطي الجزيلَ منَ التنْويلِ مُعتذراً ورُبَّ مُعْطي قليلٍ غيْرِ مُعْتـــــذرِ

أتى الزمانُ على يأْسٍ بهِ لبني الدّ نيا كبُشْرى بمَوْلودٍ على الكبَـــرِ

إني ومجْدُكَ صيَّرْتُ الورى نَهَـــراً وقلْتُ ما قالهُ طالوتُ في النهَـــرِ

فأنْتَ عنْديَ منْهمْ غَرْفةٌ بيـــدي حَلَّتْ وحُرّمَ باقي النّهْرِ في الزّبُرِ.

فهو الوحيد الذي يغترف من كرم نهر ممدوحه ، وكأنّه نهر طالوت عليـــه الســـلام الذي اختبر به طاعة جنوده وولاءهم له. ولا نذهب بعيدا عن هـــذا اللانظـــير في الكـــرم والواحد الأوحد في الجود والسخاء ، حتّى نجد الحصري يكرّر ذلك في المعتمد، فهـــا هـــو الدهر بذاته يتخيّر الكرماء فلا يجد أكرم منه وفي ذلك يقول:[13]

نَقَدَ الكُرماءَ الدهْرُ مَعي فتَخيَّرَكُـــمْ في المنْتقَـــــدِ

وقَضى لَكُمُ بالفضلِ على مَنْ في أدْنى أوْ في البُعُـــدِ.

صور تترى، وما الدهر إلا تجارب والدنيا عجائب وغرائب، فها هو الدهر حيّ خبير ناقد يختبر كلّ الأحياء ، فينتقي ابن عبّاد على رأس العباد القاصي منـــهم والـــداني بفضـــله ورشده وشعره أيضا. فأين ملوك الطوائف منه وعلى رأسهم آل جهور بقرطبة ؟ فها هـــي

12) الذخيرة 4/1: 223.

13) نفســه:262.

تدين له ويفتحها فتحا مبينا ، رجله فيها وعينه على باقي المدن الأندلسيّة برمّتها ، وحتّى على بغداد الرشيد ، ولِمَ لا وقد فاق المعتمد هارون في الرشد والرشاد ، وتفوّق على ابن المعتزّ في الشعر والإنشاد ؟ :[14]

دانتْ بغْدادُ لقُرْطُبَـــةٍ وخلائفُها للمُعْتمِـــدِ
سَمِعوا برشادِ فتى لخْـــمٍ فنَفوْا هارونَ عنِ الرشَدِ
قرأوا شعْرَ اللخْمي فلـــمْ يرْضَ المعتزُّ عنِ الولَـــدِ[15]
..مُرْ وافْتحْ باقيَ أنْـــدلسٍ ما في صَبَبٍ أوفي صَعَدِ.

وإذا كان هذا هو المعتمد ، فإنّ الحسن بن عليٍّ بن حمّود ممدوح ابن حمـــديس قـــد ملك الأرض جميعها فصارت خاتما في يده ، وأسبغ عليها جوده الفيّاض حتّى كـــأنّ البحـــر رشح أو قطرة منه :

ومراتعُ الروّادِ بيْن رُبوعِـــهِ محْفوفةٌ بمنـــاهِلِ الـــورّادِ
..والأرْضُ في يمْناهُ حَلْقةُ خاتمٍ والبحر في جدْواهُ رَشْحُ ثِمادِ .[16]

فأين هو من قول شاعرهم؟ :

وكفّكَ بحْرٌ والأناملُ أنْهُر رعى الله كفّا فيه بحرٌ وأنْهُرُ.

وإذا كان هنا الممدوح بحرا أو البحر بالنسبة إلى جوده وكرمه عبارة عن حفرة ليس فيها إلاّ قطرة ماء ، كما تبادر إلى خيال شاعرنا ، فإنّ أبا الحسن ممدوح أبي الفضل محمّد بن عبد الواحد قد نظم سلكا من الدرّ أو المرجان أو الياقوت أو الذهب وقـــد تـــرك الســـلك

14) الذخيرة 1/4: 262
15) إشارة إلى ابن المعتـــزّ. وفيه كناية على تفوّقه على فحول شعراء المشرق.
16) ديوان ابن حمديس ص 147.

مفتوحا للاحتمالات، وهو سلك للإحسان ، فلمّا علق به الشاعر ورجاه بدّد هذا السلك على نفاسته وأكرم به الشاعر أيّما إكرام ، يقول :[17]

وكنْتُ إذا ما رماني الزمانُ أوْ كاد أوْ همّ بي أوْ عَزَمْ
عَلِقْتُ أبا الحسنِ المُرْتجى فأمْسيتُ منْ صَرْفِه في حَرَمْ
فتًى لوْ رأى البخْلَ في نوْمِه أوِ الجبْنَ خُلقاً لهُ لم ينمْ
..فمالي أرى عِقْدَ إحْسانِه تَبدَّدَ منْ سِلْكِه ما نَظمْ ؟

أمّا المأمون بن ذي النون ، فهو أكثر واقعية في مدّه وعطائه وإحسانه وكرمه للشاعر عبد الواحد أبي الفضل حين جعله يهب له الألف ، وهو مبلغ من الذهب الخالص لا من الأوراق النقدية ، منعما عليه بذلك أيما إنعام ، كما جاء في قوله :[18]

ما بالُ بالي إذا سكّنْتُه نَفَرتْ عِشارُه وإذا كَففْتُه انْسرَبا
أللتبرُّمِ بالدّنْيا وزينتِها أمِ البعيدُ منَ الآمالِ قدْ قَرُبا
بهمّةِ الملكِ المأْمونِ حين غدا إفْضالُها لتَناهي همّتي سَببا
الواهبِ الألفَ عيْناً ولا وَرِقاً ولا عِشاراً ولكنْ أنْعُماً قُشُبا

ومن الألف العينية والأنعم القشب الموجودة على الأرض يأتي عبد الله بن خليفة المصري المأمون بن ذي النون وسحب سمائه اللامع برقها تمطر جودا وعطاء :[19]

وقدْ كان لي[في] مصْرَ دارُ كرامةٍ ولكنْ إلى المأمونِ كنْتُ أُشوّقُ
حَللْتُ عليْه والمكارِمُ جمّةٌ وسُحْبُ العطايا برْقُها يتألّقُ.

---

17) الذخيرة4/1: 117
18) نفسه:112.
19) نفسه: 141 والمغرب 129/1 وفيه "كان التشوّق."

وقد أشاد ابن حيّان بهذين البيتين بقوله: " فكان الذي أبدى كيرُ نفخه من خالص سبكه ".[20]

وهكذا تتوالى معاني الكرم بين الفضّة والذهب والبحر والسحب والبرق اللامع والرياح المزجية للكرم، حتّ ولو كان الطلب بحرا من السائل هذه المرّة . يقول ابن حمديس :" مؤكّدا اتصاف ممدوحه بالكرم حتّ إذا ما لمس سائلوه ارتياحه للنّدى ونشاطه إلى المعروف أبحرت سفن آمالهم نحوه لتجد لديه من الحفاوة والتكريم :[21]

كريمٌ إذا هبّتْ رياحُ ارْتياحِه جَرتْ سفنُ الآمالِ في بحْرِ سائلِهْ ".

ولا يذهب ابن زيدون بعيداً عن هذا المعنى حين ينزع " منزعا نفسيّا في عرض فضيلة الكرم في الممدوح كالبشر أو تهلل الوجه الذي يستشرف على أثره عطاؤه الجزيل، وهباته الكثيرة مثلما ينبئ الغمام عن المطر الذي يعقبه، فإذا ما استعجل المرء أولى عطاياه فاضت عليه بغزارة وأغنته كما يفيض البحر الخضمّ بالأمواج الكثيفة، يقول:

هوَ البِشْرُ شِمْنا منْه برْقَ غمامةٍ لها باللُّها* في المعْتفين* مَصابُ

جوادٌ متى اسْتعْجلْتَ أولى هِباتِه كفاكَ منَ البحْرِ الخِضمِّ عُبابُ ".[22]

وهذا ما لمسه ابن درّاج القسطلي في ممدوحه حين جعله يلبّي رغائبه ومطالبه، كما يقابل وسائله وأواصره بالتكريم والتقدير المتميّز، قائلا:

وأُهِلّ نحْو فِنائِه وعطائِه فيُهِلُّ نحْو وسائلي ورغائبي

---

20) الذخيرة 4 :1: 141

21) ديوان ابن حمديس ص.371 وينظر قصيدة المديح في الأندلس ص.31.

22) ديوان ابن زيدون ص.116 وقصيدة المديح في الأندلس،ص 32. * اللها:ج.لهوة وهي أجزل العطايا وأفضلها. * المعتفون: السائلون ،الطالبون المعروف

وأشيمُ* برْقَ يـــمينِـــه وجبينِـــهِ ويشمُّ ريحَ أواصري ومطالبـــي[23]

وإذا كان الشاعر يتطلّع إلى عطاياه التي كأنها المطر يصيب به مـــن يشـــاء ، فـــإنّ الممدوح يشمّ رائحة هذا الشيم ويلبّيه من دون تصريح من الشاعر وكأنّه يكفيه التلميح، فهو يصوّره على قدر كبير من التفهّم .

وممدوح ابن درّاج كذلك :

فذُّ المكارمِ لا شبْهٌ ولا مثلٌ والناسُ مِنْ بعْدُ أشْباهٌ وأمْثالُ.[24]

فهو قد " تفرّد في المكارم والفضائل وعدم الشبيه والمثيل، وصار مثلا يحتـــذي بـــه الناس ويتشبّهون به في حسن الصنيع والتحلّي بالمناقب والمحامد ".[25]

وقد أخرج ابن الحدّاد هذا المعنى مخرجا آخر،وأبدع فيه أيما إبداع حينمـــا جعـــل المعتصم بن صُمادح مركز الكون سيّد الملوك مستفيدا من علمه بالرياضيات الهندسية حيث يقول:

كأنّكَ في الأمْلاكِ نقْطةُ دائرٍ وأمْلاكُها منْها خُطوطٌ خوارجُ.[26]

وإذا كان هناك من اشتهروا بكرمهم في الجاهلية كحاتم الطائي وكعب بـــن مامـــة وهرم بن سنان، فإنّ ابن الحدّاد يشكّ في ما نقله الناقلون عن جود هؤلاء وسخائهم ، وكأنّه ضرب من الأساطير والاختلاق ، ومن ثمّ يثبت كلّ معاني الكرم لممدوحه بقوله :

فخلّ ما قيل عنْ كعْبٍ وعنْ هرمٍ فلْلأقاويلِ مُنْهارٌ ومُنْهـــــــرأُ

---

23) ديوان ابن درّاج:تح.د/محمود علي مكّي، المكتب الإسلامي، دمشق سنة 1961، ص.112. * أشيم : شمت البرق إذا نظرت إلى سحابته أين تمطر.(لسان العرب. 330/12 .مادّة شيم.)

24) نفســـه، ص: 350.

25) قصيدة المديح في الأندلس:ص.44.

26) الذخيرة 2/1: 720.

وتلْكَ أنْباءُ غيْبٍ لا يقينَ بهـــا وقلّما في ألتّنائي يصْدقُ النّبـــأُ

وما اخْتبارٌ كإخْبارٍ وما ملِـــكٌ إلاّ ابْن معْنٍ وذرْ قوْماً وما ذرأوا*

سيّان منْه فُتوحٌ في العدى طرأتْ ومُعْتفون على إنْعامهِ طـــرأوا.[27]

وإذا تتبّعا مديح ابن الحدّاد للمعتصم بن صُمادح وخاصّة فيما نحن بصدده فإنّ ابـــن معن جواد كريم :

مفيضُ الأيادي فوْق أدْنى وأرْفعٍ وصوْبُ الغوادي شاملُ الغوْرِ والنّجْدِ .[28]

وكأنّ ابن الحدّاد قد أحسّ بحكم انفعاله أو إعجابه بالمعتصم أنه ضرب بكـــلّ مـــا حكي عن الكرم قبله، فراح يلطّف من ذلك حين قال في مدحه:

شاد ابنُ مَعْنٍ في تُجيبَ مكارماً ليْستْ لمعْنٍ في بني شيـــبانِ

يا منْ يُضيفُ إليْـــه حاتمَ طيّءٍ مرْعًى ولكنْ ليْس كالسّعْدانِ*.[29]

ولا داعي لإنكار كلّ هذا على ابن الحدّاد فقد صارت المريّة في عهد المعتصم بـــن صمادح قبلة يتوجّه إليها العافون والمعوزون، وملجأ أمينا يأوي إليه الخـــائفون . وإذا كـــان الحجّاج يحجّون بيت الله الحرام للتكفير عن الذنوب والآثام ، فإنّ الفقراء يقصـــدون ابـــن صمادح لالتماس الإحسان والإنعام :

فلا تُنْكروا منّي بديعاً فمجْـــدُهُ نوادِرُ قـــدْ أوْحـــتْ إليّ النّـــوادِرا

يحجّ ذُراهُ* الدّهْر عافٍ* وخائفٌ جُموعاً كمـــا وافى الحجيجُ المشاعِرا*

فزرْ مكّةً مهْما اقْترفْتَ مآثمـــاً وزرْ أفْـــقهُ مهْما شكـــوْتَ مفـــاقِـــرا

---

27) الإحاطة:لسان الدين بن الخطيب 197/2. * ذرأ:خلق: الاختلاق وتقول الأقاويل

28) الذخيرة2/1: 720.

29) نفســه:718 *السعدان:نبت من أفضل مراعي الإبل ومنه المثل (مرعى ولكن ليس كالسعدان) .(ترتيـــب القـــاموس المحيط 564/2 مادة سعد.)

تهيمُ بمرآهُ العصـــورُ جَلالـــةً وتَحســـدُ أولاها عليْه الأواخِـــــرا.[30]

والمعتصم بن صُمادح فضلا عن كلّ هذا-مثلما يصوّره الشاعر- أكبر مـــن الجـــود نفسه، إذ هو الذي أذعن له الجود حتّى لا يكون قرار الحرب في النّاس أبد الآبدين:

جوادٌ لوْ أنّ الجـــودَ باري يمينَـــهُ لكانَ قرارُ الحرْبِ في النّاسِ سرْمَدا.[31]

ثمّ هو بعد ذلك يناديه عاليا:

ويالكَ منْ نَهْرٍ صَؤول* مُجَلْجِـــلٍ كأنَّ الثرى مُزْنٌ به دائمُ الرّعْـــدِ

إذا صافحتْه الريحُ تَصْقـــلُ متْنَـــهُ وتصْنعُ فيهِ صُنْعَ داوُدَ في السرْد*

كأنّ يدَ المُلْكِ ابْـــنِ مَعْنٍ محمّـــدٍ تُفجّرهُ منْ منْبع الجودِ والرّفْـــدِ

فمنْ جودِه ما في الغمامةِ منْ حَيـــاً ومنْ نورِه ما في الغزالةِ منْ وقْـــد

وإنْ ولـــهتْ فيه أُذيْهـــانُ معْشـــرٍ فلا فضْلَ للأنْوارِ في مقْلةِ الخلْـــدِ.[32]

ويرى أنّ له يمينين لا يدانيهما في الرفد والعطاء لا نهر دجلة ولا نهر الفرات في قـــوّه انصبابها وكثرة خصبهما وما يدرّان به من خير عميم ، فهو ينفق بيمينه وينفق بشماله . وإذا كان الناس قد حكموا أن المريّة في عهده هي بغداد الأندلس ، على غرار ما شبّهوا به بعض المدن الأندلسية الأخرى بعواصم الحضارة العربية في المشرق ، فإنّها بفضل عطـــاء ملكهـــا اللامحدّد السخيّ هذا ، صارت جنّة لا يرى فيها صاحبها قرّا ولا حرّا، وفي ذلك يقول:

تسحُّ بأهْواءِ الورى منْـــه راحةٌ شآبيبُها* فيها لُجيْنٌ* وعِقْيـــانُ*

---

30) الأدب في المريّة في عهد بني صُمادح:ص.106. * الذرا و الذرة:أعلى الشيء،وتراب المعدن . *العافي:المعوز ،الطالـــب للحاجة * المشاعر: مناسك الحج ومواضعه

*صؤول: صؤل البعير بالهمز،صآلة اذا صار يشل النّاس ويعدو عليهم فهو صؤول .(اللسان 387/11 مادّة صول).

31) الذخيرة2/1: 721* السرد: اسم جامع للدروع وسائر الحلق

32) نفســـه :719 و 720

وما كيمينيْه الفُراتُ ودجْلــةٌ وإنْ حكموا أنّ المريّةَ بغْدانُ

به اعْتدلتْ أزْمانُها وهواؤهــا فكانونُ أيْلولٌ وتمّــوزُ نيسانُ.[33]

وعلى هذه القافية النونية طاب لأبــي محمّد بن مالك القرطبي أن يصّور ممدوحــه يوسف بن هود بمعان تدور في فلك ما سبق ، وكأنّ الفضائل الإنسانية عجينــة مشــتركة يشكّلها كلّ شاعر كيف يشاء :

فضائلٌ لكَ تسْتدعي فضائلُها لكَ الأفاضلَ منْ آفاقِ بُلْدانِ

وليْس فضلُكَ مَطويّاً صحيفتُه فيُسْتدلُّ على ضِمْنٍ بعنْــوانِ

فالصبْحُ أبْينُ لألاءٍ لمبْصــرِهِ مِنْ أنْ يُعانَ بشرْحٍ أوْ بتبْيــانِ.[34]

وكما سبق أن ذكرنا:

وليْس يصحّ في الأفْهامِ شيْءٌ إذا احْتاج النهارُ إلى دليلِ.

فالكلّ كريم ابن كريم ، سخيّ جواد معطاء ، يعرف أين يضع معروفــه وإحســانه ورفده أو كما قال أبو حفص عمر بن الشهيد شاعر بلاط المعتصم بن صُمادح :

مكارمٌ لمْ تزلْ تجْري لغايتها كالسّهْم سدّدهُ الرّامي إلى الهدفِ.[35]

هذه إذاً فضيلة الكرم أو القوّة الاقتصادية التي يتمتّع بها الممدوح فيســتطيع بهــا أن يعيش في عزّ يعود عليه وعلى شعبه ومنتجعيه. فماذا الشأن بالنسبة للقوّة الجسدية أو القــوّة العسكريّة وقوّة الشكيمة أو شدّة البأس ؟

---

33) الســـابق: 724* تسحّ :تسبل. * الشآبيب:م:شؤبوب:وهو الدفعة من المطر. * اللجين:الفضة. * العقيان:الذهب

34) الذخيــرة2/1: 754.

35) نفســه،2/1: 689.

2- فضيلة شدّة البأس :

ولا شكّ أنّ قوّة الممدوح وشدّة بأسه هي فضيلة من الفضائل ، ركّز عليها شعراء الطوائف في ممدوحيهم لما لها من قيمة اجتماعية تتطلّبها مستلزمات دعائم الملك وخاصّة في عهد الطوائف حيث لا مكان للضعيف في عصر ساد فيه منطق القوّة أكثر فأكثر ، وكأنّ القوم في جاهلية جهلاء حتّى اضطرّ بعض ملوك الطوائف للتحالف مع عدوّهم من الفرنجة الذي كان يعمل على إضعافهم ويتربّص بهم وبخلفهم الدوائر لاسترداد الأرض التي أورثهم الله إيّاها حتّى كان له ذلك ، وضاعت الأندلس إلى الأبد إلاّ ما شاء الله .

والملاحظ أنّ الشاعر الأندلسي في هذا العصر كثيرا ما ربط بين فضيلة الكرم وفضيلة البأس والقوّة ليعمل على إرهاب العدوّ الداخلي والخارجي بقوّة اليد، سواء من الناحية الدفاعية أو الهجومية أو من ناحية البذل والعطاء والكرم الذي استفضنا في نقل صوره المختلفة . فهذا ابن درّاج القسطلي يرى أنّ كلتا الفضيلتين تصدر عن بعضهما بعض، حتّى إنّه ذهب إلى أنّ الجود يتفجّر من نار البأس ، وأنّ البأس يستعر ويضطرم من بحر جود الممدوح ، يقول :

وجود تَفجّرَ منْ نارِ بأْسٍ وبأْس تَسعّرَ منْ بحْر جودِ.[1]

في هذه الجدلية الزوجية التي تستمدّ كلّ منهما مادّتها من الأخرى ، فلا قوّة جسدية بالمعنى الدقيق للقوّة إذا لم تدعمها قوّة مالية وغنى وكفاف . ولذا ، فأينما كان الكرم كانت القوّة وشدّة البأس. ولذا نجد الشاعر ابن اللبانة الداني ينوّه " بهتين الخلّتين في ممدوحه، فيشبّه شدّة بأسه بصلابة الحديد، وكرمه الجاري بين النّاس بسيلان الزئبق، ويراهما ضدّين اجتمعا في شخص ممدوحه، فالسيف يجمع المال وينتزع الثروة في وقت الحرب، والجود يفرّق هذا المال ويمنحه السائلين في وقت السلم ، يقول :

بأْسٌ كما جمدَ الحديدُ، وراءهُ كرمٌ يسيلُ كما يسيلُ الزئْبقُ

---

1) ديوان ابن درّاج:ص219

..ضدّانِ فيه لمعْتدٍ ولمعْتـــــفٍ السيْفُ يجْمَعُ والعطاءُ يُفَــرّقُ "[2]

عَبقتْ بنارِ الحرْبِ نغمَةُ عودِهِ ما كلّ عودٍ في وقود يعْبَـــــق

..يَا أوّلَ الأعدادِ في أهْلِ الندى ولأنْتَ في جمِّ الكريهةِ فيْلَــق

والواقع أنّ البأس والكرم هما زوجان لا يقوى أحدهما بمعزل عن الآخر فهما يقويان معا أو يضعفان معا، وليس ضدّان كما تبادر إلى ذهن الشاعر ذي العقلية الضّدية التي كانت تتحكّم في عهد الطوائف.

وقد أصاب ابن الحدّاد الوادي آشي حين صوّر هاتين الفضيلتين في ممدوحه وكأنهما شخصان يتباريان ويتنافسان لإحراز قصب السبق لدى ممدوحه الذي تفوّق بهما على أقرانه من الملوك ، وذلك في قوله :

فتى البأْسِ والجودِ الذيْن تباريا إلى غايةٍ حازا لهُ قصباتِها.[3]

فهو قويّ بماله، قويّ بسيفه وكلتا القوّتين عمل على إنمائهما ، مما جعل الشـــاعر يصوّرهما وكأنهما متسابقتان " وهذه العلاقة بين صفة البأس والكرم جعلت ابن حمـــديس يتصوّر أنّ جود الممدوح وتفانيه في بذل المال هو اقتفاء لخطى بأسه الشديد في أعدائه الذين يشبهون الليوث الهواصر في حومة الوغى ، يقول :

هلْ كان جودُكَ في الأمْوالِ مقْتفياً آثارَ بأْسِكَ في أُسْدِ الوغى الهُصُر*.[4]

وإذا ما اجتمع في الممدوح الجود الفيّاض الذي كأنّه البحر الزاخر، وشدّة البـــأس، أدهش مجرّد ذكرهما شجاعة الشجعان ، يقول أبو عمر بن الباجي:

---

2) شعر ابن اللبانة الداني، جمع وتحقيق د/محمد مجيد السعيد البصرة سنة1977، ص.71. وقصـــيدة المـــديح في الأنـــدلس ص.33.

3) شعر أبي عبد الله بن الحدّاد الأندلسي، تح ، منال منيزل ، مؤسسة الرسالة ، 1985، ص43 .

4) ديوان ابن حمديس :ص208 وقصيدة المديح في الأندلس: ص34.*الهصور:الشديد الكاسر المفترس.

جودٌ يفيضُ البحْرُ منْهُ ومِنّــةٌ في البأْسِ يُدْهشُ ذكْرُها الأنْجادا*[5]

وبجاه القوّة ، وعزّ السلطان وكثرة المال تحلو الأيّام ، وتقبل الدنيا، وتقام الـدول. فهذا الأديب أبو محمد غانم المالقي (ت470هـ) يقول في مدح العالي بالله إدريس بن علـيّ بـن حمّود :

إنّما العالي إمامُ هــدًى حَليتْ في عصْرِه الحالُ
ملِكٌ إقْبالُ دوْلتِــــه لذوي الأفْهامِ إقْبـــالُ
قُلْ لِمنْ أكْدتْ مطالبُه راحتاهُ الجاهُ و المـــالُ.[6]

ونشير هنا إلى أنّ هذه الأبيات إنما قالها الشاعر بأمر العالي بالله بتذييل لبيـت مـن الشعر لابن المعتزّ ، كان يغنّـيه المغنيّ محمّد بن الحمامي بحضرته وهو :

هلْ يُزيلُ البيْنَ محْتالُ أنْ غَدتْ للبيْنِ أجْمالُ.[7]

ممّا قد يدلّ على أن فضائل الممدوح بعامّة يكون قد تشبّع بها الشاعر فيتغنّى بها على البديهة، أو أنها تكون جاهزة لديه فيمدح بها هذا الملك أو ذاك ، وكأنّه يقول: هكذا ينبغي على الملوك أن تكون في كرمها وإحسانها وعطائها بلا حدود، الناتج عن قوّة يدها المانحـة وكأنها راحة شآبيبها لجين وعقيان ؛ ثمّ في جاهها وقوّة بأسها الناتج عن قوّة يدها الباطشة، وسيفها المسلول، فإذا أضافت إلى ذلك القوّة الفكرية : قوّة العلم والأدب، حصلت على كلّ أسباب القوّة المثالية التي من شأنها أن تجعل صاحبها هماما ذا عزيمة تنوء وتلين لقوّتها الجبال أو كما قال الحصري في ممدوحه عليّ بن حمّود :

هُمامٌ إذا [ما] همَّ بالأمْرِ فامْتطى عَزيمَتَهُ ناءتْ برَضْوى ويَذْبُلِ.[8]

---

5) الذخيرة 1/2 : 199*الأنجاد :ج: نجد ،يقال :الرجل النجد أي الشجاع الماضي فيما يُعجز غيره.
6) الذخيرة 2/1 : 853،863.
7) نفســـه: 863.
8) الذخيـــرة: 4/1: 260.

ومن هنا وجدنا القرآن الكريم يشير إلى هذا الثالوث في المُلْك في قوله جلّ من قائل:« وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ.»(البقرة/247) ، ممّا يقودنا إلى فضيلة العلم.

3- فضيلة العلم :

وإذا كانت فضيلة الكرم قد وُضعت ضمن دائرة العفّة متفرّعة عن السخاء الذي يشمل الإيثار والنبل والمواساة والسماحة والمسامحة ؛ وإنّ شدّة البأس تنتمي إلى الشجاعة ، وكبر النفس، والثبات واحتمال الكدّ وعظم الهمّة ، فإنّ فضيلة العلم التي هي من ضمن دائرة الحكمة والتي أعطيت لها المكانة العليّة والأهميّة القصوى من ذكاء ، وصفاء الذهن، وسرعة الفهم، وحسن التقدير والتدبير ، فإنّ شعراء الطوائف قد لمسوا في ممدوحيهم هذه الخصلة التي من أوتاها فقد أوتي خيرا كثيرا كما نصّ على ذلك القرآن الكريم . فهذا ابن الحدّاد يشيد بذكاء ممدوحه الذي فاق الشمس اتّقادا، بحيث لو أنّ الشمس حوته لحار الظمآن في الاهتداء إلى موارد الماء ، كما أنّ في ذهنه حدّة واقية فاقت في وقايتها دروع داود عليه السلام المسرّدة ، ذلك بما له من دراية وحسن تدبير، تُغنيه عن استعمال الدروع ، يقول :[1]

ذكيٌّ لوَ انّ الشمْسَ تحْوي ذكاءَهُ لما وَجدَ الظمآنُ للْماءِ مـوْرِدَا

ولوْ في الحِدادِ البيضِ حدّةُ ذهْنِهِ لما صاغ داودُ الدّلاصَ* المسرّدَا.

إذًا ، فهو ذكيّ حتّى كأنّ ذكاءه يعمل على تجفيف موارد الماء لشدّة اتّقاده، ولو أنه كان موجودا أيّام داود عليه السلام لما احتاج إلى صنع الدروع الواقية التي

1) شعر أبي عبد الله بن الحدّاد الأندلسي ،ص50* الدلاص المسرّد: الدرع المثقوب(لسان العرب مادة سرد).

تستعمل في الحرب، فالممدوح بحكمته وسياسته وحسن تدبيره في غنى عن مثل هـذه المعدّات ، وفي هذا ما فيه من مبالغة وتهويل.

وهذا ما صوّره ابن زيدون في ممدوحه ولكن بصورة أخرى ، حيث يستطيع هذا الممدوح يشدّه دهائه وواسع حيلته أن يترل بأعدائه ما تعجز الجيوش الجرّارة عن إنزاله بهم ، وفي ذلك يقول :[2]

زَعيمُ الدّهاءِ أنْ تُصيبَ منَ العِدا مكايدُهُ مالا تُصيبُ الجحافلُ.

و لم تغب هذه الصورة عن عليّ بن حصن الإشبيلي، فممدوحه صافي الذهن متّقد الذكاء ، جمع بين السكينة والتؤدة والثبات ، وكأنّ ذكاءه النار الكامنة في الزّند، فيقول :[3]

..تَوقُّدَ ذهْنٍ في خُمودِ سكينـةٍ ذكيٌّ كمثْل النارِ في الزَّنْدِ تَكْمنُ.

وكأنّ ابن الحدّاد كان قد اطّلع على ما صاغه ابن زيدون وعليّ بن حصن في ممدوحيهما ، فجمع في ممدوحه بين ذلك مبالغا وكأنّه يتحدّاهما، أو يتثبت لممدوحه ما كان منهما معا.

وإذا كانت هذه هي صورة الممدوح من ذكاء خارق للعادة ، وحسن تدبير، وحيلة في ثبات تنبثق عن الشجاعة والدهاء ، فإنّ ممدوح أبي محمّد بن سفيان لا يخرج عن هذه الدائرة فهو " ذو بصيرة نافذة تستشرف الخفيّ من الخطوب النازلة والأخطار الجسيمة التي لم تكن متوقّعة وكأنّها مرآة تعكس الغيب وتبديه أمام ناظريه ، يقول :[4]

---

2) ديوان ابن زيدون،ص155

3) الذخيرة 2/1: 184. * الزّند:العود الأعلى الذي تقدح به النار (المعجم الوسيط 402/1.)

4) خريدة القصر وجريدة العصر،العماد الأصفهاني،تح،محمد المرزوقي،ومحمد العروسي المطوي،والجلالي بن حـاج يحيى،الدار التونسية للنشر،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر،سنة 1973،جـ3/ 419وقصـيدة المـديح في الأندلس. . ص40و41.

وبصيرةٍ تَذرُ الخُطوبَ لوائحاً فكأنّها في كفّهنّ سَجنْجَلُ. "

وهي صورة محبّبة إلى نفس الممدوح، لأنّه لو كان يتمتّع بها فعلا لما عاش في ذلك الاضطراب الذي كان يحدق بملوك الطوائف جميعا. فكان كلّ واحد منهم يتربّص بالآخر، ناهيك عن عدوّهم من الفرنجة الذي كان يتربّص بهم الدوائر جميعا. ولهذا كان ملوك الطوائف بالإضافة إلى القوّة المادّية في حاجة إلى الحيلة ، وحسن التدبير واقتداح الذهن ، وإعمال الفكر حتّى يتسنّى لهم العيش في هذا المجتمع الذي لا مكان فيه للضعفاء ، وبهذا صوّر ابن زيدون ممدوحه قائلا :[5]

مَليكٌ يسوسُ المُلْكَ منْه مقلّدٌ روى عنْ أبيهِ فيهِ ما سنَّهُ الجدُّ

زعيمٌ لأبْناءِ السيادةِ بارعٌ عليْهِمْ به تُثْنى الخناصِرُ إنْ عُدُّوا

يُوكّلُ بالتدْبيرِ خاطرَ فكْرةٍ إنِ اقْتَدحتْ في خاطرٍ أثْقبَ الزَّنْدُ.*

وإذا كان الممدوح قد صُوّر على جانب من الخَلْق وطلاقة المحيّا وصباحة الوجه فإنّ شدّة الذّكاء ورجاحة العقل تتطلّب فصاحة اللسان ، وحوك الكلام والنبوغ في ميدان البلاغة والبيان ، يقول ابن حصن الإشبيلي :[6]

مَليكٌ لهُ مَرْأىً جميلٌ ومخْبرٌ نبيلٌ وفعْلٌ مُسْتطابٌ ومنْطقُ

لهُ منْ نبيلِ الرأْيِ سيْفٌ وذابلٌ * ومنْ حزْمِهِ درْعٌ حصينٌ ويلْمقُ*

ذكيٌّ إذا حاكَ الكلامَ رأيْتَهُ يُصمِّمُ في أوْصالِهِ ويُطبِّقُ.

ولذا ، " حبا الله هذا الممدوح طبعا رقيقا صافيا هيّأ له أن يسوق بيانه واضح المعاني وضوح الثغور في الوجوه ، يقول ابن عمّار:

---

5) ديوان ابن زيدون ص.211. * أثقب الزّند : أورى .

6) الذخيرة 1/2: 178.* قناً ذابل : دقيق لاصق الليط، (اللسان : ذبل ، 255/11) * لَمَقَ الشيء يلْمَقُه لَمَقاً : كتبه ومحاه ، وهو من الأضداد .(اللسان : لمق ، 332/10)

رقيقُ حواشي الطّبْعِ يجْلو بيانُه وجوهَ المعاني واضحاتِ المباسمِ ".[7]

وإذا كان قد ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلّم أنّه قال: " إنّ مِنَ البيانِ لسحْراً وإنّ مِنَ الشعْرِ لحِكْمة ".فإن ابن زيدون قد تمثّل هذا المعنى حين جعل أقلام ممدوحه تستوفي فنون الكلم البليغ التي يمليها عليه فكره في بلاغة وحسن بيان ، يسحر به السامعين ، كما يظهر من قوله :[8]

توشّي البلاغةَ أقْلامُهُ إذا ما الضّميرُ عليْها أمَلْ

بيانٌ يُبيّنُ للسّامعيـ نَ أنّ منَ السّحْرِ ما يُسْتحَلْ.

كما أنّ هذا الممدوح بالإضافة إلى بلاغته وسحر بيانه، يتمتّع بحسن الخطّ وتنميقه، وكأنّه رسّام ماهر يرسم بالخطّ ما تدلّ عليه الكلمات، وهي ميزة صرفها في قرطاسه، نترك ابن عمّار مع قوله:[9]

وبارعُ حسْنِ الخطّ حتّى كأنّما يصْرفُ في القرْطاسِ راحةَ راسمِ.

وهكذا صوّر الشاعر الأندلسي في عهد الطوائف ممدوحه على أنّه مثال للحكمة ، والتعقّل ، والذكاء ، والدهاء ، وحسن التقدير، والفطنة والسياسية :

أعطتْه أهواءَ القلوبِ سياسةٌ خَفِيتْ لطائفُها على ساسانِ.[10]

هذا بالإضافة إلى طلاقة اللسان وحسن الخطّ، مما يدلّ دلالة عميقة على أنّ الشاعر الأندلسي بوجه عام ، وفي عهد الطوائف بشكل خاصّ كان على دراية تامّة بمكامن القوّة العقلية ومدار الحكمة ، فجسّدها في ممدوحه أيّما تجسيد .

---

7) قصيدة المديح في الأندلس...،ص.41 و "محمّد بن عمّار الأندلسي،دراسة أدبية تاريخية:ص.217.

8) ديوان ابن زيدون ،ص232

9) محمد ابن عمار الأندلسي،دراسة أدبية تاريخية،ص.217.

10) الذخيرة 2/1: 718 والبيت لابن الحداد*ساسان:قوم من الفرس اشتهروا بحنكتهم في السياسة.

فإذا ما ذكر الرّشد، فالممدوح قد فاق هارون الرشيد في حنكته ورجاحة عقله ورشده؛ وإذا ما ذكر الشعر فالممدوح قد بزّ ابن المعتزّ في ذلك. يقول الحصري في المعتمد الذي يرجع في نسبه إلى قبيلة لخم العربية العريقة :

سمعوا برشادِ فتًى لخـــمٍ فنَفوا هارونَ عنِ الرّشَدِ

قرأوا شعْرَ اللخْمي فلـــمْ يرْضَ المعتزُّ عنِ الولـــدِ[11]

و لم يكن الحصري متوهّما صفة العلم والأدب في ممدوحه، إذ كان لبني عبّـــاد كما ورد في فضائل أهل الأندلس " من الحنوّ على الأدب ما لم يقم به بنو حمـــدان في حلب، وكانوا هم وبنوهم ووزراؤهم صدورا في بلاغتي النظم والنثر، مشـــاركين في فنون العلم ".[12]

والملاحظ أنّ كلاً من الشاعر الحصري والمؤلّف الشقندي ينظر إلى المثـــال في وطن الأرومة الأمّ، ويحاول تبيان التفوّق عليه، فالمعتمد أفضل من هارون الرشيد وهو الذي أوتي ملكا عظيما، كما أنّه تفوّق على ابن المعتزّ وكان ما كان في ميدان الشعر والأدب، كما أنّ بني عبّاد بصفه عامّة فاق اهتمامهم في هذا المجـــال مـــا قـــام بـــه الحمدانيون بحلب الشهباء .

وإذا كان بنو زيري بغرناطة وكور إلبيرة قليلي الاهتمام بالأدب ، فإنّه لم يخل بلاطهم من علماء أكابر وشعراء أفاضل،[13] وهو ما أسبغه عليهم الأديب أبو محمّد غانم المالقي، متمثّلا ذلك في شخص الملك باديس بن حبّوس إذ يقول: [14]

أمنْ لِبيرةَ تَسْري الروحُ حاملةً رَوْحَ النّسيمِ فأحْياني وحيّاني؟

---

11) الذخيرة 4/1 :262

12) فضائل الأندلس وأهلها،لابن حزم وابن سعيد و الشقندي،نشر المنجد،دار الكتاب،1968،ص32.

13) نفســـــه،ص.56.

14) الذخيرة 2/1: 856.

مَقرُّ مُلْكِ الرئيسِ المسْتجارِ بهِ باديسَ فاز بتمْكينٍ وإمْكانِ.
طوْدٌ منَ العلْمِ والآدابِ راسيةٌ أصولهُ وذُراهُ فوْق كيــوانِ
حرُّ الفضائلِ معْسولٌ شمائلُــهُ يُخصُّ منْ زِنة العَلْيا برُجْحانِ.

وإذا ما ذُكر العلم والأدب ذُكر معه عراقة النسب والأصل الرفيع الذي فــاق في شهرته كيوان وهو النجم العالي في السماء ، هذه العلياء اختصّت برجاحة العقل.

ثمّ إنّ الممدوح بعد ذلك خطيب مِصقع إذا ما علا المنبر ، وكأنّه في جمال بيانه وجمال طلعته يوسف في محراب دواد عليهما السلام ، وهذا ما رآه ابــن زيــدون في ممدوحه لمــّا قال :[15]

ولّما قضيْنا ما عَنــــانا أداؤُهُ وكلٌّ بما يُرْضيكَ داعٍ فمُلْحِفُ*
رأيْناكَ في أعْلى المصلّى كأنّما تَطلّعَ منْ محْرابِ داودَ يوسفُ.

والممدوح يجمع بين الشجاعة وشدّة البأس ، وبين قوّة العلم ورجاحة الفكر، وبهما حاز أسباب المعالي والمجد ، فقوّة اليد جمعت بين قوتين: قوّة السيف وقوّة القلم، فضلا عن قوّة العطاء والبذل وكأنّها غمامة تمطر النعم، وهو ما مُدح به أبــو الجــيش مجاهد العامري :[16]

قدْ آن للسيْفِ ألاّ يَفْضلَ القلــما مذْ سُخِّرا لفتىً حازَ العُلى بهــمَا
إنْ يُجْتَنى المجْدُ غضّاً منْ كمائمهِ فإنّما يُجتنى منْ بعْضِ غرْسِهــمَا
..راحا بكفِّ أبي الجيْشِ التي خُلِقتْ غمامةً كلّ حيــنٍ تُمْطرُ النّعــمَا

15) الســـابق :1/1: 377. * ألحف الرجل ولحّف إذا جرّ إزاره على الأرض خيلاء وبطرا (اللسان / لحف ، 9 / 314)
16) نفســـه : 528.

..يا أيّها الملِكُ السّامي بهمّـــــته إلى سماءِ عُلاً قدْ أعْيتِ الهِمـــمَا

لوْلا طِلابي غريبَ المدْحِ فيكَ لَما وصفْتُ قبْلَ عُلاكَ السيْفَ والقلمَا

وهكذا، فإنّ الممدوح قد اكتمل قوّة عقلٍ وقوّة بأسٍ وقوّة سخاءٍ حتّى صـــار مثالا لذلك، فتوطّدت دعائم ملكه.

بالإضافة إلى هذا الثالوث في الملك وقوّة السلطان ، فهناك فضـــائل أخـــرى جسّدها شعراء الطوائف في ممدوحيهم متفرّعة عن هذه الفضائل البارزة التي لا يقـــوم ملك ولا سلطان إلاّ بها، وتتمثّل في الأصل وعراقة النسب والعدل الذي هو أســـاس الملك ، والذي به تتوطّد دعائمه ويفشو الأمن والأمان بين الرعيّة فلا ظالم ولا مظلوم، فتنتشر المحبّة، ويعمّ الإخاء بين الرعيّة وملوكها، ممّا يجعلنا نقف عند هذه الفضائل التي لا يستطيع الدارس لها أحيانا أن يمثّل لفضيلة بمعزل عن الأخرى.

4- فضائل أخرى:

فالممدوح دائما في تطلّع إلى إحراز معالي الأمور في كلّ ميدان من ميادين الفضل، وهو كثير الورع والتقى،كاس من ذلك حلّة تقيه من السقوط في براثن الفحش والأوزار، يقول أبو الحسن علي بن حصن الإشبيلي في ممدوحه:[1]

طموحٌ إلى العلْياءِ كاسٍ منَ التقى غَضيضٌ عنِ الفحْشاءِ عارٍ منَ الوِزْرِ

يروقُك منْه خِلْقةٌ وخليقَـــــةٌ متى شئْتَ إطْراءً أرثْك بما تطْـري.

وهذا الورع وهذه التقوى تصدّه عن سماع القول الكريه المشين الذي من شأنه إيغار الصدر على الأصحاب ، وتدفعه إلى مناجدة كلّ بغيض كريه من الأعداء ، يقول إدريس بن اليمان العبدري اليابسي في ممدوحه :

يَحيدُ عنِ القوْلِ الكريهِ سماعُهُ وليْس عنِ القِرْنِ الكريهِ يحيـدُ.[2]

ولهذا ، فهو بجمال خصاله ومناقب أفعاله وبجبينه الأغرّ المنبئ عن اليُمن والبِشر قد احتلّ محلاّ مكينا في القلوب ، وأُنزل منزلة عظيمة في نفوس الأعاظم، يقول ابن عمّار في ممدوحه :

أغرُّ مَكينٌ في القلوبِ مُحبَّبٌ إليْها عظيمٌ في نفوسِ الأعاظمِ.[3]

وعليه " ومهما يكن من أمر فإنّ هذه المثل والقيم التي اتّسم بها الممدوح سواء أكانت في الخلق أم في العقل أم في النفس أم في الجسد اكتملت في شخصه حتّى تمنّى الشاعر أن يجد في ممدوحه عيبا واحدا يقيه حسد العيون لأنّ الكمال مجلبة للحسد ، كما أنّ كلّ ما تحلّى به ممدوحه من فضائل وما أحرزه من مجد يُغنية عن المدح والثناء مثلما يغني الجمال الطبيعي عن الجمال المصنوع[أو مثلما يغني عن الكُحْل الكَحَل] يقول ابن زيدون " :

---

1) الذخيرة1/2: 167

2) الذخيرة 3/1: 359.

3) محمّد بن عمار الأندلسي...ص217

مَنْ لنا فيكَ بعيْبٍ واحدٍ تُحْذَرُ العيْنُ إذا الفضْـــلُ كَمُلْ

شرفٌ تَغْني عَنِ المدْحِ بهِ مثْلما يَغْني عنِ الكُحْلِ الكَحَلْ.[4]

وإذا كان هذا الممدوح قد كمل خلْقًا وخُلُقًا-والكمال لله وحده لا شـــريك له- فإنّه كما يضيف ابن زيدون :

هُمامٌ خَطَّ بالهِمَمِ السَّوامي مِنَ العلياءِ في الخِطَطِ الفِساحِ.[5]

واجتمعت فيه كلّ المكرمات وهو الذي عليه مدارها ، وخاصّة في العـــدل ومدى الابتعاد عن الظلم الذي فيه ما فيه من سند للمضطرّ الضعيف ، يقـــول ابـــن حمديس :

يا منْ عليْه مَدارُ المَكْرُماتِ ومَنْ بعدْلِه كلُّ مضطرٍّ لهُ سُنِدَا.[6]

وهذا الممدوح ذو حنكة سياسية عالية خفيت على المحـــنّكين في السياســـة قبله.ولذلك فمن الحنكة في السياسة العدل ، وخّاصة اذا ما قرن هذا العدل بعدل عمر بن الخطاب(ر)، وعدل عمر بن عبد العزيز من بعده ، وسيرتهما المحمودة في الرعيّـــة وهو ما جعله محبّبا إلى القلوب أكثر فأكثر ، يقول ابن الحدّاد:

أعْطتْه أهْواءَ القلوبِ سياسةٌ خَفِيتْ لطائفُها على ساسانِ

وبَدتْ إليْنا منْه صورةُ سيرةٍ تُنْبيكَ عمّا سَنَّهُ العُمـــرانِ[7].

وإذا كان ابن الحدّاد قد تمثّل هذه السيرة وهذا العدل في ممدوحه ، فانّـــه راح يدعو كلّ الملوك إلى التحلّي بها في ملكهم والابتعاد عن الجور والحيف ابتعادا كلّيا وإلاّ فليزجر الظالم منهم المتّبع لسبيل الحيف حتّ يحكم بين النّاس بالعدل ، يقول:

4) الديوان ص128. وقصيدة المديح في الأندلس ص43و44

5) الديوان ص191

6) ديوان ابن حمديس ص171.

7) الذخيرة 2/1 : 718

والعدْلُ ألْزمُ ما يُعْنى الملوكُ بهِ فلْيُزْجروا عنْ سبيلِ الحيْف وليزَأوا*[8]

ومن هنا وجدنا المعتصم بن صُمادح ملك المريّة يرتاح ارتياحا كبيرا إلى مدحه بهذه الخصلة النبيلة من قبل شاعر بلاطه أبي الفضل بن شرف البرْجي ، ويعيّنه واليا على قرية من قرى مملكته ، وما ذلك إلاّ لقوله :

لمْ يَبْق للْجورِ في أيّامهمْ أثرٌ إلاّ الذي في عيونِ الغيدِ منْ حَوَرِ[9]

فقد نفى عنه وعن آله الظلم الذي انمحى أمام سلطان عدله، إلاّ ما كان من ظلم العيون الفاتنة الجميلة التي لا سبيل للممدوح إلى ردّ ظلمها. يقول محمّد الخضر الحسين: " ولو وصلنا إلى ما في نفوس الشعراء لذلك الحين لوجدنا الذين اغتبطوا الشاعر على هذا البيت المصنوع من درر الألفاظ أكثر ممّن اغتبطوه على تلك البيوت المصنوعة من الطين والحجارة ".[10]

وإذا كان ممدوح ابن شرف وآله قد عملوا على محو كلّ آثار للظلم في عهدهم ، فكذلك فعل عليّ بن حمود حين أعاد للعدل مكانته المرموقة في عهده حتّى صار لا مثيل له، بعدما ساد زمان من الظلم قبله، يقول ابن الحنّاط الكفيف :

و لمْ أَر مثْلي كيْف صار بقلْبهِ منَ الوجْدِ برْكانٌ وفي الجفْنِ طوفانُ.

ولا مثْل هذا العدْل كيْف أعادهُ عليّ وقدْ مرّتْ منَ الظّلْمِ أزْمانُ[11]

والممدوح كذلك اتّصف بالعفو مع المقدرة في أناة وحلم ورزانة وسكينة زاوجت بين الحمّية والغضب ورهبة الجانب، فهو كالأرض تطلع أزهارا جميلة كأزهار السوسن، ونباتات شائكة كالقتاد، يقول أبو عمر بن الباجي :

---

8) شعر ابن الحدّاد ص34 * وليزؤوا: وزأ القومُ القومَ:دفع بعضهم عن بعض في الحرب وغيرها .

9) نفح الطيب 396/3.

10) الخيال في الشعر العربي، ص99.

11) الذخيرة 1/1: 446

وأناةُ حِلْمٍ في إباءِ حفيظةٍ كالأرْضِ تُطْلِعُ سوْسناً وقَتادَا [12]

ولهذا ، فهو كما يصوّره ابن زيدون كالسيف الذي لان متنه واخشوشن حدّه :

لهُ عزْمةٌ مَطْويّةٌ في سَكينةٍ كما لانَ متْنُ السيفِ واخْشوْشنَ الحدُّ [13]

ويقول ابن اللبّانة :

مُوطّأ الأكْنافِ* رطْبُ الجَنى مُقدَّمُ السبْقِ مُعلّى القِداحْ [14]

وهذا الحلم هو بمثابة الجبال التي تمنع الأرض من أن تميد بأهلها، ولو أنّها بدون جبال لأغنى حلم الممدوح عن ذلك، يقول الحصري في المعتمد :

ولوْ أنّ الأرْضَ بلا جبلٍ وعليْها حِلْمُكَ لمْ تَمِدِ. [15]

فهو يعمل على حفظ التوازن في مملكته حتّى لا تضطرب وتدبّ فيها الفوضى والفتن العارمة، كما تعمل الجبال الراسيات على حفظ توازن الأرض.

ثمّ إن الممدوح بعد هذا كلّه عريق النّسب، عربيّ أصيل، ينتمي إلى القبائل العربية العريقة، مقيم لدين الله في أرضه فانحسر عنها الكفر، فزاده ذلك ذكرا على ذكر سرت بمجده الرياح فانتشر في الآفاق، يقول ابن شهيد في ممدوحه عبد العزيز المؤتمن صاحب بلنسية وآله:

أبْناءُ مَلْكٍ حمْيَرَ يٍّ قامَ بالغُرِّ القَمائمْ

الكفْرُ عنْهمْ قاعدٌ قُدْماً ودينُ اللهِ قائمْ

---

12) الذخيرة 2/1 :199.

13) ديوان ابن زيدون،ص211.

14) شعر ابن اللبانة الداني ص 30 * الكنف: جانب الشيء وكنفا الرجل حضناه عن يمينه وعن شماله (ج) أكناف (المعجم الوسيط801/2).

15) الذخيرة 4/1: 263.

ذِكْرٌ على ذكْرٍ يَصو لُ وصارِمٌ يسْطو بصارِمْ

إيهٍ هيا عبْد العزيـــــــزِ وأنْتَ رجَّامُ المراجِـــمْ*1

تسْري الرياحُ بمجْدِه فنسيمُها بالغوْرِ فاغِـــمْ*2

رعْياً لمؤْتمنٍ رعـــى فينا الحَدايثَ والقدايمْ 16

فهو ينتسب إلى الحميريّين، كما أنّه يتفرع عن المناذرة وعلى رأسهم النعمان بن المنذر، وهو الذي أحيى ملك بني أميّة بعدما طفئت أنواره في المشرق والأنـــدلس، وبنى وشاد، وكأنّ قصره إرم ذات العماد الّذي أتى على كلّ ما شـــادته بـــني أميّـــة وكأنّها لم تشد، ثمّ إنّه زاد في بقائه على سدّة الحكم أكثر ممّا بلغه عبد الرحمن الناصر. يقول الحصري في المعتمد :

يا فـــــرْعَ المنْذرِ والنعْمـــــا نِ بلغْتَ النّـــجْمَ فطُلْ و زِدِ

طُفِئـــــتْ أنْوارُ أميّةَ فـــــي قصْرِ الخلفاءِ فقُلْتَ قِـــــدِ

نافَسْـــــتَ بقصْرِهمُ إرَمـــاً فكـــأنَّ أميّةَ لَمْ تَشِـــــــدِ

..عبْد الـــرحْمنِ ولِيَ خمسينَ وأنْتَ تزيدُ على العَـــددِ 17

ثمّ إنّ الممدوح في عهد الطوائف دوحة في عراقة النسب ممتدّة الجذور يتفيّـــأ الشاعر بظلالها، ومعقلا حصينا يأوي إليه ويتحصّن بـــه، وإذا انتســـب النـــاس إلى أسلافهم وسلالاتهم في الأرض ، فهو قد ارتقى بنسبه عاليا في السماء، يقول ابن عبادة القزّاز :

---

16) ديوان ابن شهيد،ص155و156. *1 المراجم:الملائكة التي ترجم الشياطين عند اســتراقها الســمع . *2 فاغم:يملأ الخياشيم طيبا.

17) الذخيرة 1/4 : 262و263.

يا دوْحةً بظـــــلالها أتفيَّـــأُ بلْ معْقلاً آوي إليْـــهِ وأَلجْـــــأُ

يا منْ إذا انْتسبَ البرايا للثرى فـــلهُ منَ الشمْسِ المنيرةِ ضِئْضئُ

فَخرَ الزمانُ بنا لأنّكَ حاتِـــمٌ في جـــودِه ولأنّني المتنبّـــــــيءُ

لمْ أخْترِعْ فيكَ المديحَ وإنّمـــا منْ بحْرِكَ الفيّاضِ هذا اللـــؤْلؤُ[18]

وإذا كان هذا الممدوح قد عرّج عاليا في السماء ، وإذا كان يرجع في نسبه إلى المشرق العربي متمثّلا في بلاد الشام على سبيل المثال ، فإنّ هذه النسبة قد تجاوزت حدود المكان ،كالنجوم الزاهرة التي تُرى من كلّ مكان من الأرض، يقول ابن شُهيد:

طرَقَتْكَ بالدّهْنا* وصحْبُكَ نُوَّمُ والليْلُ أدْهمُ بالثريّا مُلْجَمُ

والشامُ خُطّتكُمْ وليْستْ نسبةً إلاّ كما نُسِبتْ إليْهِ الأنجمُ[19]

وهذا النسب الصريح الذي هو كالشمس التي لا تحتاج في إشراقها إلى دليل يدلّ عليها، فقد بلغ في هذا المجال مبلغا بوّأه مرتبة عالية من المجد والعظمة والعلياء التي لا يدانيه فيها أحد، وكأنها لبست من نجاره سمطا من الذهب والدرّ، حتّى إنّه لو قابل بذلك الشمس لانطفأت أنوارها، ولو أشار بذلك إلى البدر لنزل من عليائه إليه، يقول الأسعد بن بلّيطة في ممدوحه أبي يحيى بن معن بن صُمادح :

حَيّاً ألْبـــسَ البسْتانَ وشْياً مُرصّعا ومَدّ على العِقْيانِ منْ سُنْدسٍ بَسْـــطاَ

كأنّ أبا يحْيى بْنَ مَعْـــنٍ أجازهـــا فعلّمها منْ كفّهِ الوكْفَ و البسْـــطاَ

---

18) الذخيرة 1/ 2: 804.

19) الديوان ،ص142. * الدهناء:الفلاة،وقوم مدهنون عليهم آثار النعمة(المعجم الوسيط 301/1)

تألّفَ منْ درٍّ وشــذْرٍ نجــارُهُ فجاءتْ بهِ العلْيا على جيدها سمْــطاَ

أقولُ لركْبٍ يمّموا مسْقطَ الندى وقدْ جاورَ الركبانُ منْ دونها السِّقْــطاَ

أفي المجْدِ يُبْغى لابْنِ مَعْنٍ مُناقِضٌ ومَنْ يوقدِ المصْباحَ في الشمْسِ قدْ أخْطا

ولوْ قابلَ الشمْسَ المنيرةَ أظْلمتْ سناها ولوْ أوْما إلى البدْرِ لانحطّــا[20]

وإذا ما رأى الشاعر ممدوحه يرجع في نسبه إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم وآله راح ينسبه إلى ذلك منوّها بخاتم الهدى محمّد صلى الله عليه وسلّم ، وابن عمّــه وصهره عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه ، إذ بلغ بانتسابه إليهما ذروة المجد مشــرقه ومغربه ، يقول غانم المالقي في إدريس عليّ بن حمّود :

إنّ إدْريــــسَ ماجِــــدٌ للْعُلا فيهِ مذْهــــبُ

جدُّهُ خــــاتَمُ الهُــــدى وعليٌّ لــــــهُ أبُ

فهْو للْمــجْدِ مَطْلِــــــعٌ وهْو للْمجْدِ مَغْرِبُ[21]

وقد استغلّ ابن درّاج القسطلي هذا النسب الشريف في ممدوحه حتّى ينــال عطاياه، ويحظى بالقرب منه، فتوسّل لديه بكلّ ما يمتّ إلى نسبه بصلة، كبني هاشــم، وأبي طالب، وفاطمة بنت الرسول صلّى الله عليه وسلّم، جــاعلا منــه ومــن آلــه الحمّوديّين هداة حياة وموت ، يصدّق فعلهم قولهم ، فهم أئمّة دنيا ودين :[22]

لعلّكِ يا شمْسُ عنْد الأصيــــلِ شَجيتِ لشجْوِ الغريبِ الذليــلِ

---

20) الذخيرة 1/ 2: 800.

21) نفســه، ص859.

22) نفســه 1/1: 88 ،90 ،91 .

فكوني شفيعي إلى ابْـنِ الشفيعِ وكوني رسولي إلى ابْنِ الـرسولِ
..ويَـعْجَبُ كيْف دنـا مِنْ عليّ ولَمْ تـنْفَصِمْ حَـلَقاتُ الكُـبولِ
وكـيْف تَـنـسّمَ آلَ الـنبيِّ وأبْـطَأ عـنْهُ شِـفاءُ العـليلِ
وأطْـوادُ عِـزّهمُ مـاثلاتٌ لـهُ وهْو يـرْنو بـطَرْفٍ كَليلِ
وأبْحُـرُهمْ زاخِـراتٌ إلـيْه ويَـرْشُفُ في الثـمَدِ المسْتحيلِ
..إلى الهـاشمـيِّ إلى الطالـبيِّ إلى الفـاطميِّ العَطوفِ الوَصولِ
..فـأنْـتمْ هُـداةُ حـياةٍ وموْتٍ وأنْتـمْ أئـمَّـةُ فـعْـلٍ وقـيلِ
وأنْـتـمْ خـلائفُ دنْيا ودينٍ بحُـكْمِ الكـتابِ وحكْمِ العُقولِ
ووالـدُكمْ خـاتَمُ الأنْـبياءِ لكـمْ مـنْهُ مجْـدُ حَفِـيٌّ كفيلِ

وهكذا تعدّدت معاني المديح، وامتزجت حتّى كأنّ الشاعر في عهد الطوائف كان يودّ أن يسبغ على ممدوحه كلّ الفضائل، وكلّ الخصال، وكلّ السجايا التي تتفرّع عن الدوائر الأخلاقية أو الفضائل الأربعة عند مسكويه.

والصورة التي بوسعنا أن نرسمها للمدوح في هذا العصر، هي صورة كبيرة الحجم تمثّل الإنسان النموذجي الذي تتوفّر فيه كلّ الصفات المنشودة . فهو جميل في خَلقه، جميل في خُلقه ، جميل بكلّ ما تحمله كلمة جمال من معنى . فإذا عمدنا إلى السخاء والكرم فهو مصدر للسخاء وأكبر من الكرم نفسه، وهو قويّ في منتهى القوّة والشجاعة وشدّة البأس، وهو عاقل عالم مثال للذكاء والكياسة والفطنة، حكيم عادل حليم، عريق في أصله وفي نسبه.

وإنّنا نحاول عبثا أن نجد لهذه الصورة نظيرا في الواقع . وإذا كنّا نجد الشعراء قد ارتكزوا في مديحهم على بعض ما اتّصف به هؤلاء الملوك من هذه الفضائل، فإنّهم أضافوا إليها كثيرا من خيالهم الفنّي ، وكبّروا حجمها إلى أقصى الحدود ، وكأنّ لسان

حالهم يقول: هكذا ينبغي على الملوك أن تكون ، مراعين في ذلك ما استساغه نقّادنا القدماء من أنّ الممدوح إذا كان " ملكا لم يبال الشاعر كيف قال فيه ولا كيف أطنب..[وأنّ] الملوك لا تُمدح بما يلزمها فعله كما تُمدح العامّة وإنّما تمدح بالإغراق والتفضيل بما لا يتّسع غيرهم لبذله ".[23] من جهة، ثمّ إلى عدّهم مبالغات الشعراء وغلوّهم أحد معايير الجودة البلاغية[24] من جهة ثانية، " فأعذب الشعر- على ما كانوا يقولون أكذبه: أي هو الذي يغيّر شكل الواقع أكثر ويضع أمامه عالم الطموح والمطالب الأكثر جرأة.أي ذلك الشعر الذي لا تلبيّه المطالب اليومية أبدا ".[25]

كانت هذه صورة عن معاني المديح بعامّة، ويجدر بنا أن نسلّط عليها المزيد من الضوء عبر صورة الممدوح الرسميّة: أثناء السلم، وأثناء الحرب.

---

23) العمدة في صناعة الشعر ونقده) ابن رشيق، 1983، بيروت 2/ 343,344 .

24) ينظر كتاب الصناعتين، لأبي هلال العسكري، ص394، 403، والعمدة 1/ 281.

25) سوسيولجية الأدب العربي،طاهر لبيب،ص38

الفصل الثاني:

صورة الممدوح الرسمية

1- صورته في السلـــم

2- صورته في الحرب

الفصل الثاني: صورة الممدوح الرسمية

1- صورته في السلم:

كان شعراء الطوائف يمدحون ملوكهم وقت السلم كما كانوا يمدحونهم وقت الحرب، وكان الشعر مواكبا للحياة في شتّى المناسبات، وكانت هذه الحياة مضطربة في عمومها ؛ غير أنّ الشعراء كانوا يتتبّعون حياة ممدوحيهم وكانوا يفدون عليهم في الأعياد وفي الأعراس والمصاهرة ، وعند القدوم من سفر من الأسفار أو الإبلال من مرض ، أو في رحالات الصيد وما شابه ذلك ؛ فيمدحونهم بجلّ المعاني التي تردّدت معنا في صورة الممدوح الخلقية والخلقية ولكن بهذه المناسبة أو تلك سلما أو حربا في أوقات الفرج أو الفتوحات.

فهذا ابن زيدون يهنّئ ممدوحه المعتضد بن عبّاد بعيد الأضحى مادحا إيّاه بالعلم ،والتفقّه في الدين ، والحلم ، والأناة ، وشدّة البأس في الحرب أمام الأعداء من العصاة المارقين ؛ وكأنّ العيد مناسبة فقط لذكر هذه الفضائل كما يبدو من قوله :[1]

هُمـــامٌ يَزِينُ الدهْـــرَ منْهُ وأهْـلَهُ ... مليكٌ فقـيهٌ، كـــاتبٌ مُتفلْسِفُ

يتيهُ بمَـــرْقاهُ سريـــرٌ ومِنْـــبرٌ ... ويحمَدُ مسْـعاهُ حُسامٌ ومُصْـحفُ

رَوِيَّتُهُ في الحـــادثِ الإدِّ لحْـــظةٌ ... وتوْقيعُه الجالي دُجى الخطْبِ أحْرفُ

يَـذِلُّ لـهُ الجبّـارُ خيفـــةَ بـأْسه ... ويعْنـــو إليْه الأبْلـجُ* المتغطْرِفُ*

.. جحيمٌ لعـــاصيه، يُشَبُّ وَقُـودُهُ ... وجنّةُ عـــدْنٍ للمـطيعينَ تُزْلَـفُ*

.. طـلاقةُ وجْـهٍ في مَضاءٍ كمثْلِ مـا ... يَـروقُ فِرِنْدُ السيْفِ والحدُّ مُرْهَفُ

---

1) الديوان،ص 104و105 * الأبلج: الأبيض،* المتغطرف: المختال في مشيته، * تزلف: تقرّب. وفيه إشـارة إلى قوله تعالى : {وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝} (التكوير / 12و13)

على السيْفِ منْ تلْكَ الشـــهامةِ ميسَمٌ وفي الروْضِ منْ تلْك الطلاقةِ زُخْرُفُ

وهكذا يستمرّ في تعداد المناقب، مركّزا على جانب القوّة، ليصل إلى ذكر العيد متمنّيا له أعيادا بعده كلّها أفراح ، وسرور ، وكرم ، وعطاء ، وإغاضة لكلّ الأعداء :(2)

وبُشْـــراكَ عيـــدٌ بالســـــرورِ مُظلّلٌ وبالحـــظّ في نَيْـــلِ المُـــنَى مُتَـــكتّفُ*

بشـــيرٌ بأعْيـــادٍ تُـــوافيـــكَ بعْـــدهُ كـــما يَنْـــسُقُ النظْمَ المُوالي ويَـــرْصُفُ

تجُـــرِّدُ فيهِ سيْفَ دوْلتِـــكَ الـــذي دمـــاءُ العِـــدى دأْبـــاً بغـــرْبيْهِ* تُظْلَفُ*

هُو الصارمُ العَضْبُ الذي العزْمُ حدُّهُ وحِـــلْيـــتُهُ بـــذْلُ النـــدى والتعفُّفُ

هُمـــامٌ سمـــا للْمُلْـــكِ إذْ هُـــو يافِعٌ وتمّـــتْ لهُ آيـــاتُهُ وهْـــوَ مُخْـــلِفُ*

كريمٌ يَعُدُّ الحمْـــدَ أنْفـــسَ قِنْيـــةٍ فيُـــولَعُ بالفعْـــلِ الجميلِ، ويُشْغَفُ

غـــدا بخـــميسٍ يُقْـــسمُ الغيْم أنّهُ لأحْـــفلُ منْها مُكْفهِـــرّاً وأكْـــشَـــفُ

هُو الغـــيْمُ منْ زُرْق الأســـنّةِ بـــرْقُهُ وللـــطّبْـــلِ رعْـــدٌ في نـــواحيهِ يَقْصِفُ

..لقدْ جُدْتَ حتّى ما بنفْسٍ خَصاصةٌ وأمّـــنْتَ حتّى مـــا بقـــلْبٍ تَـــخَوُّفُ

ولولا ذكر العيد في هذه الأبيات لقلنا بأنّ هذه القصيدة هي قصيدة في مواكبة الحرب ، لما تردّد فيها من ذكر للسيف ، والجيوش ، ومظاهر القوّة والعظمة التي فيها إرهاب للعدوّ وطمأنينة لنفس الرعيّة التي غدت في عهد هذا الممدوح تعيش بفضل حمايته ورعايته في أمن وأمان نابعيْن من جوده وقوّة شكيمته.

2) الديوان ص. 107 و 108 و 109، * متكنف: محاط، * بغربيه: بحديه، * تظلف: تهدر وتسفك، * مخلـف: الذي راهق الحلم.

وكما مدح ابن زيدون المعتضد بن عبّاد بمناسبة عيد الأضحى فإنّه لم يفتْه كذلك تهنئة ابن جهور ومدحه بمناسبة عيد الفطر، متمنّيا له طول العمر، وذلك بالعيش ألف عام كلّها أعياد تعود عليه باليمن والخير والبركات، ذاكرا صالح أعماله في شهر رمضان من أداء للفرض ، والتقرّب إلى الله بالنوافل، وملازمة بيت الله والاعتكاف فيه وإقامة عماد الدين، ورفع راية الملك عاليا ؛ ولذلك فهو يستحقّ المدح والثناء حتّى إنّ كلّ مديح لا يتعلّق بذكر سخائه أو يتجاوز شخصه فهو مديح باطل بقوله : (3)

هنيئاً لكَ العيدُ الذي بكَ أصْبحتْ ... تروقُ الضّحى منْهُ وتَنْدى الأصائلُ
تلقّاكَ بالبشْرى وحيّاكَ بالمُنى ... فبشْراكَ ألْفٌ بعْد عامكَ قابلُ
لئنْ يَنْصرمْ شهْرُ الصيامِ لبعْدهُ ... نشا* صالحِ الأعْمالِ ما أنْتَ عاملُ
رأيْتَ أداءَ الفرْضِ ضرْبةَ لازِمٍ* ... فلمْ ترْض حتّى شيّعتْهُ النوافلُ
سَدَنْتَ ببيْتِ اللّهِ حبَّ جوارِهِ ... لكَ اللهُ بالأجْرِ المضاعَفِ كافلُ
هجرْتَ لهُ الدارَ التي أنْتَ آلفٌ ... ليعْتادَهُ محْضُ الهوى منْكَ واصلُ
فإنْ تَتناقلْكَ الديارُ فطالما ... تَناقلَتِ البدْرَ المنيرَ المنازلُ
ألا كلُّ رَجْوى في سواكَ عُلالةٌ * ... وكلُّ مديحٍ لمْ يكنْ فيكَ باطلُ
فما لعمادِ الدينِ حاشاكَ رافعٌ ... ولا للِواءِ المُلْكِ غيْرَكَ حاملُ

وإذا كانت هذه الأبيات قد جاءت متعلّقة بالعيد أكثر من سابقتها ، فإنّ القصيدة التي نُظمت فيها جاءت مصوّرة للمدوح بهذه المناسبة بأنّه أغرّ، معطاء متهلّل

3) الديوان، ص 156 و 157 * النشا: ما نقل من الأخبار . *العرب تقول : ليس هذا بضرب لازِم ولازِب يبدلون الباء ميما لتقارب المخارج .. وصار الشيء ضربة لازب أي لازما ؛هذه اللغة الجيّدة ، وهي فالواهابة بالميم ، ولأول أفصح . (اللسان/ لزب 1 / 738) * العلالة: ما يتلهى به أو بقية كل شيء.

للجود والكرم، وفيّ يتميز بالحلم والأناة، ذو عزيمة قويّة وسداد في الرأي ، ولولاه ولولا آله لكان العيش لا طائل من ورائه : (4)

أغــرُّ إذا شِمْنــا سحائبَ جــودِهِ تهــلّلَ وجْــهٌ واسْتهلّتْ أنــاملُ
يُبشِّــرُنا بالنــائــلِ الغَــمْرِ وجْهُهُ وقبْــلَ الحيا مــا تَسْتطيرُ المخايلُ*
لــديْه ريــاضٌ للسّجايــا أنيــقةٌ تَغَلْغَــلُ فيها للعــطايا جــداولُ
أنــيٌّ فــما تــلْكَ الســماحةُ نُهْزةٌ وفيٌّ فــما تلْكَ الجبــالُ حبــائلُ
.. فما سيْفُ ذاكَ العــزْمِ فيهمْ بمعْضَدٍ ولا سهْــمُ ذاكَ الرأْيِ أفْوَقُ ناصلُ
بني جهْــورٍ عشْــتُمْ بأوْفــرِ غبْــطةٍ فــلوْلاكمُ ما كان في العيْشِ طائلُ
..لئنْ قــلّ في أهْــل الزمانِ عديدُكُمْ فإنّ دراريَّ النــجــومِ قــلائــلُ

ويستغلّ ابن حمديس مناسبة العيد ، فيصوّر ممدوحه على جانب من القوّة ، والعظمة ، والهمّة العالية ، واليد المعطاءة السخيّة ؛ حتّ غدا للعيد عيدا مبهجا حين ورد المصلّى في جلال معظّم جلب إليه الهيبة والوقار بجيشه العرمرم الجرّار الذي أعدّه لأعدائه ، ووفّر به السلم والسلام لبلاده ، فانتشر الأمن والأمان بعدله الذي آخى بين الناس وأنصف بينهم،حتّ صارت الشاة في أرضه لا تتّقي عداوة الذئب،وفي ذلك يقول : (5)

ذو همّــةٍ بــذلَ النــدى وحمى الهُدى بمــهنّدٍ ذَربٍ بــكفٍّ ضَــروبِ
حــامي الحــقيقةِ عــــادلٌ لا تتّــقي في أرْضــهِ شــاةٌ عــداوةَ ذيبِ
مــــلِكٌ غــــدا للــعيدِ عيداً مبْهِجاً هُمُــعُ العُلى حوْليْه ذاتُ ضُروبِ

4) الســابق، ص 155، * المخايل: مفردها مخيلة وهي السحابة التي تحسبها ماطرة.
5) ديوان ابن حمديس، ص.59.

وَرَد المصلّى في جلالٍ مُعظَّمٍ ووقارِ مُختشِعٍ وسمْتِ مُنيب
بعرمْرمٍ رَكِبتْ لإرْجالِ العِدى عُقْبانُ جوٍّ فيه أسْدُ حُروب

وواضح أنّ الممدوح كان يأتي إلى المصلّى في يوم العيد ومعه حرّاسه الذين يحيطون به حماية له من كيد الغادرين ، ممّا جعل الشاعر يبالغ في وصف ذلك على أنّه جيش عرمرم ، وكأنّ الممدوح يخوض معركة لا يؤمّ صلاة .

ولا ينسى الشاعر ، وهو في غمرة مديحه ، أن يذكر حجّاج بيت الله الحرام الذين لم يفتهم الدعاء لهذا الممدوح بالأماكن المقدّسة في مكّة ومنىً ويثْرب وما تسنّى للشاعر ذكره ؛ ممّا يدلّ على ارتباط رعيّته به ومحبّتهم له ، وهو الذي اقتفى سنّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم في نحر الأضاحي الحسنة في عيد الأضحى المبارك ، يقول : (6)

صلّيْتَ ثمّ قفوْتَ ملّةَ أحْمدٍ في نحْرِ كلّ نجيبةٍ ونجيبِ
.. يدْعو لكَ الحجّاجُ عنْد عَجيجهمْ وصياحهمْ بالبيْتِ في ترْجيب*
مِنْ كلّ أشْعثَ محْرمٍ بلغ المُنى بمنىً وأدْركَ غايةَ المطْلوب
يبْكي بمكّةَ والحَجونِ* مُردّداً وبيثْربٍ يدْعو بلا تثْريب
فبقيْتَ في العلْيا لتدْميرِ العِدى وغِنى الفقيرِ وفرْجةِ المكْروب

ولابن حمديس قصيدة أخرى يمدح فيها المعتمد في شخص ابنه الرشيد ولا يذكر فيها العيد إلاّ في الختام قبل البيت الأخير، على أنّه أتى ناظما لما قيل فيه من

---

6) ديوان ابن حمديس، ص.62 و 63 * ترجيب: تعظيم. * الحجون : موضع بمكة ناحية من البيت . [قيل : جبل ، وقيل : مقبرة]. (اللسان/ حجن 13 / 109).

مديح على كلّ لسان منوّها بمجده وعلاه، وإذلاله لمن عاداه، وعزّه لمن والاه، مشيدا بقوّته وإعماله السيف في أعدائه، وبذله المال لمستحقّيه بكلّ كرم وسخاء، يقول : (7)

مَـلْكٌ بـه تُخْتَـمُ أهْـلُ العُـلى ... إذا بـدا فبـأبيـه افْتِـتـاحْ

وعـمّ منْه الـذلُّ أهْـلَ الخـنى ... وعـمّ منْه العـزُّ أهْـلَ الصلاح

مُـسْتَهْدِفُ المعْـروفِ سمْـحٌ لهُ ... عِـرْضٌ مَصـونٌ وثنـاءٌ مُبـاح

تُـهرُ أرْواحَ العِـدى بَيْضُـهُ ... إذا أرادتْ مِنْ حُـروبٍ نِكـاح

فكـلّما غنّتْـهُ في هـامِـهِمْ ... أبْقتْ على إثْـرِ الغِنـاءِ النيـاح

كـمْ ليْلـةٍ أشْرقَ في جُنْـحها ... بخضْـرمِ الجـيْش إلالُ الصبـاح

تسْـري بهـا عقْبـانُ رايـاتِه ... مُـهْتَدِيـاتٍ بنُجـومِ الرمـاح

كـأنّها والريـاحُ تهفـو بهـا ... قـلوبُ أعْـدائِـكَ يـوْمَ الكفاحْ

.. فـأنْعِمْ بعيـدٍ قـدْ أتى ناظماً ... كـلُّ لسـانٍ لكَ فيه امْتِـداح

فقـدْ أرثنـا في ابتذالِ اللـهى ... كـفُّـكَ أفْعالَ المُدى في الأضاحْ

هذا، و لم يفت ابن اللبّانة وهو الشاعر المشهور ببلاط بني عبّاد أن يتعجّب من موافاة ممدوحه مبشّر بن سليمان لأعياد ثلاثة تمثّلت في الفتح الذي هو عيد في كلّ الأوقات ، والعروبة التي هي يوم الجمعة ، وقد وافق فيها انتصار ملوك الطوائف على عدوّهم من الفرنجة انتصارا ساحقا ، ويوم النحر وهو عيد الأضحى ، وقد عدّه الشاعر رابع الربعان تماشيا مع ما اقتضته القافية على ما يبدو، فضلا عن الإشادة

7) السـابق، ص. 91 و 92.

بعظمة الجيش ، وكثرة العدد والعدّة التي هي من خصال الممدوح بهذه المناسبات ووقت السلم بالذات ، يقول : (8)

عـجَبـاً لأعْيـادٍ أتتْكَ ثـلاثةٌ متنـاسقـاتٌ في اتّسـاقِ زمـانِ
الفتْـح عـيدٌ والعـروبـةُ مثْله والنـحْرُ عـيدٌ رابـعُ الـربْعـان
فكـأنّ نجْـمَ المشْتـرى في سعْده والـنيّريْـنِ تجـمّعتْ لقِـران
مـلأ البسيطةَ فيه جنْـدُك كثْرةً فـكأنّ جنْـدَك جـاء مِنْ غسّان
هَـللْتَ صـفْحتَـهُ بنيّـةِ مُخْلِصٍ فتهلّلتْ بـكَ صـفْحـةُ الإيمـانِ

وإذا كان هذا شأن الممدوح في الأعياد بورعه وتقواه ومظاهر قوّته، فإنّه ذائد عن حمى الدين مستعدّ دوما لنصرته والتصدّي لأعدائه حتّ اعترف له الملوك بذلك اعتراف الموالي. يقول ابن زيدون في ممدوحه المعتضد شاكرا أياديه البيض بعد أن أباح له أن يتنـزّه وحرمه في إحدى جنّاته : (9)

غَـمَرتْني لكَ الأيـادي البيضُ نَـشَبٌ* وافِـرٌ وجـاهٌ عريضُ
كُـلّ يوْمٍ يَجِـدُّ منْكَ اهْتبـالٌ* عهْـدُ شُكْري عليْه غـضٌّ غَريض*
بـوّأتْني نُعْمـاكَ جنّـةَ عـدْنٍ جـال في وصْفها، فضَـلّ القريض
مُجْـتنًى مُـدَّنٍ وظلٌّ بَـرودٌ ونـسيمٌ يَشْـفي النـفوسَ مريض
.. مَلِكٌ ذاد عنْ حِمـى الدينِ منْه مَنْ إليْـهِ في نصْـرِهِ التفْـويض
وسَمـا نـاظرٌ منَ المجْـد في دُنْيا هُ قـدْ كـانَ كفّـهُ التغْميـض
إنْ أسـاءَ الزمـانُ أحْسنَ دأْبـاً مثْـلما بـاينَ النقيـضَ النقيـضُ

8) شعر ابن اللبانة الداني، ص.101.
9) ديوان ابن زيدون، ص.142 و143 و144، * النشب: المال والعقار.

.. حسْبيَ النصْـــحُ والودادُ وشكْرٌ عـــطَّرَ الدهْرَ منْه مِسْـــكٌ* فضيضُ*

دُمْ مـــوقَّى وليُّـــكَ الدهْـــرَ مجْبو رٌ مســـاعيكَ والعـــــدوُّ مَهيـــضُ

فاعْتـــرافُ الملـــوكِ أنّكَ مـــوْلا هـــمْ حديثٌ مـــا بيْنهـــمْ مُسْتفيضُ

وهكذا ، فإنّ الشاعر إذا ما خوّله ممدوحه نعمة من نعمه الجمّة التي كان يتمتّع بها شكر له ذلك وأفاض في مدحه ؛ جاعلا إيّاه على رأس الملوك شهامة ، وبأسا، وسخاء، واستعدادا في وقت السلم لمواجهة الأعداء الذين يسيء الزمان بهم إلى استقرار أمن الرعيّة ، فيعمل الممدوح على تحسين ذلك وإصلاحه .

وإذا ما ولد لهذا الممدوح مولود بادر الشاعر إلى تهنئته بذلك ، مادحا إيّاه بأنّه نجم في علاه تراءى في سماء الحسب والنسب ؛ يقول ابن اللبّانه في مولود وقد وافقت ولادته في شهر رجب ، وكأنّه ليلة القدر أتت في هذا الشهر : (10)

نجْمٌ تراءى في سماءِ الحسَبْ

للشّـــهْبِ في أبانِـــه* مُنتسِبْ

وأعْـــربتْ ليْـــلةُ مـــيلادِه

بـــليْلةِ القـــدْرِ أتتْ في رجبْ

وإذا كان الممدوح في مجلس أنس مع ندمائه سجّل الشاعر ذلك في مدحه وأسبغ عليه جلّ الفضائل كقلّة النظير والواحد الأوحد في زمانه كرما وعطاء ، فهو في ذلك بحر وبقيّة الملوك أنهر . يقول ابن أرفع رأسه في المأمون بن ذي النون ، وقد

---

* الاهنبال : الغُنم . * الغريض : الطريّ الغضّ * الفضيض: المنتشر.

10) شعر ابن اللبانة، ص14. * أبانه:حسبه.

جرت مذاكرة في ملوك الطوائف، فداخله من الارتياح ما ليس عليه مزيد ، وأمر له بإحسان جزيل عتيد ، على حدّ تعبير المقري : (11)

دَعــوا المُــلوكَ وأبْنــاءَ الملوكَ فمَنْ أضْــحى على البحْرِ لمْ يشْتقْ إلى نَهَرِ
مــا في البسيطةِ كــالْمأمونِ ذو كرمٍ فانْظرْ لتصْديقِ ما أُسْمعْتَ مِنْ خَبَرِ
يــا واحــداً مــا على عُلْياهُ مخْتلفٌ مــذْ جاد كفُّكَ لمْ نحْتجْ إلى المطرِ
وقــدْ طَلعْتَ لنــا شمْساً فما نَظرَتْ عينٌ إلى كــوْكبٍ يَــهْدي ولا قَمرِ
وقدْ بَدوْتَ لنــا وُسْطى ملوكِــهمُ فــلمْ نُــعرِّجْ على شَــذْرٍ ولا درَرِ

ويتلمّس الشاعر أخبار ممدوحه ، ويحاول أن يعرف عنه كلّ صغيرة وكبيرة حتى يتسنّى له أن يصوّرها في مدحه له ، مضيفا إليها من عنده ما تقتضيه ضروب المديح ، فهذا ابن اللبّانة يعلم أنّ ناصر الدولة صاحب جزيرة " ميورقة " قد ألــمّ به ألم ، فيقيم لذلك الدنيا ويقعدها ، فالشمس والقمر يشتكيان لمصابه ويتألّمان لألمه ، والريح لا هبوب لها لذلك ، والزهر قد ذبل في روضه، وتقلّص الظلّ فاشتدّت حرارة الأرض، وغيض الماء فجفّت الينابيع والأنهار، وانقشعت السحب فانقطعت الأمطار، كلّ هذا ليومين غاب فيهما الممدوح عن رعيّته لهذا المرض الذي أصابه ، حتّى إذا أبلّ من المرض عادت الدنيا إلى طبيعتها وكأنّ كلّ شيء في الطبيعة مرتبط به، يتألّم لمصابه، ويفرح لعافيته : (12)

شــكا لشكْواكَ حتّى الشمْسُ والقمرُ وبــات درُّ الدرارى الزهْــر ينْتشرُ
وراحتِ الريحُ لا يــذْكو لها عبــقٌ وأصْبــحَ الروضُ لا يــنْدى له زهَرُ

11) نفح الطيب، 134/4 و135.
12) شعر ابن اللبانة، ص. 47 و48.

وقُلّــص الظــلُّ في فصْلِ الربيعِ لنا فكــادتِ الأرْضُ بالــرمْضاءِ تسْتعِر
والماءُ غــاض لنــا غيضاً فما نَبعتْ عــيْنٌ ولا ســال في بطْحــائها نَهَر
والسحْبُ صــاحبها ذعْرٌ فما نشأتْ ولا اسْتهــلَّ لهــا فــوْق الربَى مَطر
.. يوْمانِ غِبْتَ فغــابَ الأنْسُ أجْمَعُه وأيُّ أنْــسٍ إذا مــا غِــبْتَ يُنتظَــر
يــا نــاصرَ المُلْكِ إنّ المُلْكَ وجْهُ عُلىً وليْس غــيْرُكَ فيهِ السمْــعُ والبصَر
إبْــلالُ جسْمــكَ أهْــدانا بليلَ صبا فعــاد عــهْدُ الصبا واسْتبشرَ البشَرُ

وما كلّ هذا على الممدوح بكثير فهو الذي أقام صرح " ميورقة "وعمرها بالإحسان فبنى وشيّد ، فعل الإسكندر وهارون الرشيد في زمنيهما : [13]

وعَــمرْتَ بالإحْــسان أفْقَ مَيورْقةٍ وبنيْتَ فيهــا مــا بــنى الإسْكنْــدرُ
فــكأنّهــا بــغْدادُ أنْتَ رَشيدُهــا ووزيــرها- ولهُ الســلامةُ- جــعْفر

ولم يفت ابن زيدون كذلك تهنئة المعتضد وقد شرب دواء لمرض أصابه ، فراح يدعو له بالشفاء ، ودوام الصحة وطول البقاء ، في دولة آمنة من كيد الأعداء ، يقول :[14]

أَحْــمَــدْتَ عــاقبةَ الــدواءِ ونلْــتَ عــافيــةَ الشــفــاءِ
وخَــرجْــتَ مــنْــه مــثْلما خــرج الحُــسامُ مِنَ الجــلاءِ
وبــقيْــتَ للــدنْيــا فأنْــ تَ دواؤُهــا مــنْ كــلّ داءِ
.. يا خــيْرَ مَــنْ رَكِــب الجيــا دَ وســار في ظــلّ اللــواءِ
واجْــتــال يــوْمَ الحــرْبِ قُــدْ ماً واحْــتــبى يــومَ الحِبــاءِ*

13) الســـابق، ص.47.
14) ديوان ابن زيدون، ص.136 * الحباء: العطاء.

بُـشْـــراكَ عُـقْبى صِـــحّـةٍ تجْـــري إلـى غـــيْرِ انْـتهـاء
في دوْلـــةٍ تـبْـــقى بقـــا ءَ الـــدهْـــر،آمـنـةَ الـفَنـاء

ويبدو أنّ المعتضد في مرضه قد احتاج إلى فصاد فراح ابن زيدون يهنّئه بذلك ويشكر الله جزيل الشكر ويحمده على أن اجتاز ممدوحه هذا الفصاد بسلام ، ويتعجّب من قوّته ووفرة دمه الزكي ، مادحا إيّاه بإقبال الدنيا عليه ، وطيب العيش في ظلّ دولته :[15]

لِـيَهْنِكَ أنْ أحْمَـدْتَ عـاقبةَ الفصْـدِ فـللّهِ منّـا أجْمَـلُ الشكْرِ والحمْدِ
ويَـا عَـجَبًا مِنْ أنّ مِبْضَـعَ فـاصدٍ تَـلقّيْتَهُ لمْ يـنْصـرفْ نـابيَ الحدّ
ومِنْ مـتولّي فصْـدِ يُمْنـاكَ كيْف لمْ يَـهُلْهُ عُبـابُ البحْرِ في معْظمِ المدّ
سرى دمُكَ المُهْراقُ في الأرْضِ فاكْتستْ أفانينَ روْضٍ مثْل حـاشيةِ البُـرْد
فِصـادٌ أطابَ الدهْرَ كالقَطْرِ في الثرى كما طابَ ماءُ الورْدِ في العنْبرِ الوَرْد
لـقدْ أوْفتِ الدنْيـا بـعـهْدكَ نُصْرةً كأنّـكَ قـدْ عـلّمْتَها كرَمَ العهْد
..تُسـوّغُ منْه العـيْشَ في ظلّ دوْلـةٍ مُـقابَلةِ الأرْجـاءِ بالكوْكبِ السعْد

كما يبدو أنّ ابن زيدون بحكم وزارته للمعتضد بن عبّاد ولابنه المعتمد من بعده كان أكثر ملازمة لهما من غيره من الشعراء ، ولذلك وجدناه يرصد ظاهرة المرض والإبلال منه في ديوانه في أكثر من قصيدة ، فها هو كذلك يهنّئ المعتمد بقدوم وإبلال من مرض ، ويبدو أنّ المعتمد قد اضطرّ إلى مغادرة القصر جرّاء ذلك تغييرا للجوّ الذي ربما يكون أطباؤه قد نصحوه به طلبا للشفاء ، فيفرح الشاعر ويصف المرض الذي ألـمّ به وكأنّه وعكة أصابت أسدا لزم عرينه ، ناسبا إيّاه إلى العلياء

15) الســـابق، ص.137.

والمجد والعظمة ، ونصرة دين الله حتّى ازدانت الدنيا في عهده وغدت مثلا سائرا ، يقول : (16)

اقْـدَمْ كـما قَـدِمَ الـربيعُ البـاكرُ واطْلُـعْ كـما طلَعَ الصباحُ الزاهِرُ
..قَفْلٌ* وإبْـلالٌ عَـقيبَ مُـطيفَـةٍ* غَشِيَتْ كـما غَـشِيَ السبيلَ العابرُ
إنْ أعْـنتَ الجـسْمَ المُـكَرَّمَ وعْكُها فلربّمـا وُعِـكَ الهِـزَبْرُ الخـادِرُ*
.. أضْحى الزمـانُ نهـارُه كافـورةٌ والليْـلُ مِسْـكٌ منْ خلالِكَ عاطر
.. حتّى إذا آنسْتُ أوْبَـكَ بـارئـاً صَـفتِ القـريحةُ واستنـارَ الخاطر
.. يـا أيّها المَلِكُ الـذي عَلْيـاؤُه مـثلٌ تَنـاقَـلَهُ الليـالي سـائـر
.. أنْتَ ابْنُ مَنْ مَجَدَ الملوكَ فإنْ يكنْ للْمـجْدِ عـيْنٌ فهْـوَ منْـها ناظر
مَـلِكٌ أغَـرُّ ازْدانتِ الدنْـيا بـه وأعـزَّ ديـنَ اللهِ مـنْه نـاصـرُ

وإذا مرض الشاعر كذلك وجاء المعتمد ليعوده ، شكره على ذلك وصوّره بأنّه بدر العلا في كماله حلّ في منزله ، ويكفيه هذا فخرا ولا يهمّه بعد ذلك ما أصابه من مرض ، لأنّ مبادرة الممدوح هذه قد حمّلته ما لا طاقة له به ، يقول : (17)

لسْـتُ بـالجـاحـدِ آلاءَ العِـللْ كـمْ لهـا مِنْ ألـمٍ يُـدْني الأملْ
أجْـتلي* منْ أجْـلها بـدْرَ العُـلا مـشْرقاً في مـنْـزلي حـين كَمَل
.. مـا أبـالي منْ زمـاني بعْـدها إذْ أصـحَّ النـفْس إنْ جسْمي أعَل
أيـّها الـمـوْلى لقـدْ حُـمِّلْتُ ما لم يَـدَعْ في وُسْعِ عـبْدٍ مُحْتمَـل
.. لا تـزلْ دوْلتُـكُـمْ مبْسـوطةً بسْـطةً في طيِّـها قَبْضُ الدول

16) ديوان ابن زيدون، ص.196 و197، * قفل: رجوع. * مطيفة: غشيان المرض. * الخادر: الذي لزم عرينه.
17) ديوان ابن زيدون، ص. 194 و195 * أجتلي: أنظر.

وهكذا كان الشاعر في وقت السلم يسجّل كلّ ما وقعت عليه عيناه بالنسبة إلى ممدوحه ، يصف مجالس أنسه ويهنّئه على استعادة عافيته ، أو ولادة مولود له ، أو بمناسبة إعذاره وختانه لهذا المولود ، فلا شكّ أنّه يقيم لذلك حفلا بهيجا يدخل الفرح والسرور على المدعوّين وخاصّة الشعراء منهم ، فيمدحونه بالمكارم والعلا والتفنّن في البنيان وإشادة القصور ممّا يذهل كسرى أنوشروان ، وفي ذلك يقول الأديب عبد العزيز محمّد السوسي من جملة قصائد لغير واحد أُنشدت للمأمون يحيى بن ذي النون في صنيع احتفل فيه لإعذار حفيده ، على حدّ تعبير ابن بسام :[18]

لمّا بنيْتَ منَ المكارمِ والعُلا ... ما جاوزَ الجوزاءَ في الإجْلالِ

أعْملْتَ رأيَكَ في بناءِ مُكَرَّمٍ ... ما دارَ قطُّ لآمِلٍ في بالِ

لوْ زارهُ كسْرى أنوشرْوانَ لمْ ... يَصْرفْ إلى الإيوانِ لحْظَ مُبالِ

.. إعْذارُ يحيى أبْهجَ الدنْيا وبَيَّـ ... نَ عذْرَنا في نخْوةِ المخْتالِ

حشدَ السرورَ لنا طَهورُ مُطهَّرٍ ... منْ عائرِ الجُبناءِ والبُخّالِ

عَرَضٌ منَ الآلامِ يجْلبُ صِحَّةً ... وطفيفُ نقْصٍ فيهِ كلُّ كَمالِ

كان هذا قصر المكرّم* ليحيى بن ذي النون الذي فاق إيوان كسرى في حسن بنيانه ، والذي تسنّى للشاعر ذكره عرضا بمناسبة هذا الإعذار . كذلك وصف ابن الحدّاد قصر المعتصم بن صُمادح بأنّه جنّة على وجه الأرض عجّلها له الله الرحمن في الدنيا لورعه وتقواه ، وعدله وحسن جزائه ، يقول :[19]

رأْسٌ بظهْرِ النونِ إلاّ أنّهُ ... سامٍ فقُبّتُه بحيْثُ النونُ

---

18) الذخيرة 4/1 : 126 و127.

19) نفح الطيب، 4/ 101 و102، * وانظر وصف قصر المكرم والثريا، في ديوان ابن زيدون. ص 182، وقصر المعتضد، ص. 221 و222.

هو جَنَّةُ الدنْيا تبوّأ نُزْلَها مَلِكٌ تملّكهُ التقى والدين
فكأنّما الرحمْن عجّلها لهُ ليرى بما قدْ كان ما سيكون
وكأنّ بانيَهُ سِنّمارٌ فما يعْدوه تحْسينٌ ولا تحْصينُ
وجزاؤهُ فيهِ نَقيضُ جزائهِ شتّانَ ما الإحْياءُ والتحْيين
لا تُلْقَحُ الأحْكامُ حيْفاً عنْدهُ فكأنّها الأفْعالُ والتنْوينُ

ولّما " اصطبح المعتصم بن صُمادح يوما مع ندمائه فأبرز لهم وصيفة مهدويّة متصرّفة في أنواع اللعب المطرب من الدكّ ، وحضر أيضا هناك لا عب مصري ساحر فكان لعبه حسنا فارتجل أبو عبد الله بن الحدّاد : [20]

كذا فلْتلُحْ قمراً زاهِرا وتَجْني الهوى ناظراً ناضرا
.. صباحُ اصْطباحٍ بإسْفارِهِ لحظْنا مُحيّا العُلا سافرا
.. وأسْمعْتَنا لاحناً فاتناً وأحْضرْتَنا لا عباً ساحرا
يرفْرِفُ فوْق رؤوسِ القِيانِ فتنْظُرُ ما يذْهلُ الناظرا
.. وفي سَوْرةِ الراحِ منْ سحْرِهِ خواطِرُ دَلّتِ الخاطرا
.. ومنْ حسْنِ دهْرِكَ إبْداعُهُ فما انْفكّ عارضُها ماطرا
وسعْدُكَ يجْتلِبُ المُغْرباتِ فيجْعلُ غائبَها حاضرا

مما يدلّ على أنّ ملوك الطوائف وقت سلمهم كانوا يقيمون حفلات الرقص والألعاب السحرية إمعانا في الترفيه والتسلية ، ويقيمون المهرجانات يستعرضون فيها قوّتهم البرية والبحرية، يقول ابن اللبّانة زافّا البشرى لممدوحه لاحتفاله بذلك : [21]

---

20) السابق، 263/3 و 264.

21) شعر ابن اللبّانة، ص 72 و73 * شوذق: لعله سودق وهو الصقر.

بُشْرى بيومِ المهْرجانِ فإنّهُ ... يومٌ عليْه من احْتفالكَ رونقُ
طارتْ بناتُ الماءِ فيه وريشُها ... ريشُ الغُرابِ وغيْر ذلكَ شوْذقُ*
وعلى الخليجِ كتيبةٌ جرّارةٌ ... مثْل الخليجِ كلاهما يَتدفّق
وبنو الحروب على الجواري التي ... تجْري كما تجْري الجيادُ السُّبَّقُ
خاضتْ غديرَ الماءِ سابحةً به ... فكأنّما هي في سرابٍ أينُق
ملأ الكُماةُ ظهورَها وبطونَها ... فأتتْ كما يأتي السحابُ المُغْدق
عجباً لها ما خِلْتُ قبْل عيانها ... أنْ يحملَ الأسْدَ الضواريَ زوْرق
.. يا ناصرَ العلْياءِ دونَكَ منْ فمي ... درّاً على أجْيادِ جودِكَ يَنسق
وتقلُّ فيكَ الشهْبُ لوْ هيَ أحْرفٌ ... والليْلُ حبْرٌ والمجرّةُ مهرق

وإذا ما بادر بعض ملوك الطوائف إلى محاربة الفساد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي تفشّى بينهم كمعاقرة الخمر، بادر الشاعر إلى تسجيل ذلك مسبغا على ممدوحه كلّ معاني الورع ، والتقوى ، والخوف من الله عزّ وجلّ ، وإقامة حدوده، والذود عن حمى الدين ، والعمل على رضا الله . يقول ابن زيدون في مدح ابن جهور واصفا الخمر أمّ الخبائث بأرذل الصفات : (22)

هوَ الملِكُ المشْفوعُ بالنُّسْكِ ملْكُهُ ... فيا فضْل ما يخْفي ويا سرْو ما يبْدو
إلى اللّهِ أوّابٌ وللّهِ خائفٌ ... وباللّهِ مُعْتدٌّ وفي اللّهِ مُشْتدّ
لقدْ أوْسعَ الإسْلامَ بالأمْسِ حِسْبةً ... نحتْ غَرضَ الأجْرِ الجزيلِ فلمْ تَعْد
أباحَ حِمى الخمْرِ الخبيثةِ حائطاً ... حِمى الدينِ منْ أنْ يُستباحَ لهُ حدّ
فطوّقَ باستئْصالِها المِصْرَ مِنّةً ... يكادُ يؤدّي شكْرَها الحجَرُ الصلْد

22) ديوان ابن زيدون، ص.212.

هي الـــرجْسُ إنْ يُذْهبْه عنْه فمحْسنٌ شهيرُ الأيادي مـــا لآلائـــه جَحْـــد
مَـــظِنّـــةُ آثـــامٍ وأمُّ كـــبـــائـــرٍ يُـــقصِّـــرُ عـــنْ أدنى مـــعايبِها العدّ
رأى نَقْصَ ما يَجْبيـــه مـــنْها زيـــادةً إذِ العِوَضُ المرْضيُّ إلاّ يَرُحْ يغدو
غـــنيٌّ فـــحسْـــنُ الـــظنِّ باللهِ مـــالُه عـــزيزٌ فصُنْـــعُ اللهِ مِنْ حـــوْلِه جُنْد

كما أنّ إقامة الدين ، والامتثال لأوامر الله ، وسلوك الصراط المستقيم ، والاعتصام بحبل الله ، هو الذي يعمل الممدوح في محرابه على التوصية به في سلمه وإفشائه بين جنوده إذ هو خير ما تُقهر به الأعادي ، مع الحيطة والسهر على مجابهتها ، والتحلّي بالشجاعة والندى ، يقول ابن حمديس في ممدوحه : (23)

وأشـــدُّ مَنْ قـــهَرَ الأعـــادِيَ محْـــربٌ في ســـلْمِه للْـــحرْب ذو استعْـــداد
ســـيُثـــيرُ منْـــكَ العزْمُ بأْســـاً مُهْلِكاً والنـــارُ تنْبـــعُ عنْ قِـــداحِ زنـــاد
وغـــرارُ سيْفِـــكَ ســـاهرٌ لمْ تكْتحِلْ عـــيْنُ الـــردى في جـــفْنـــه بـــرُقاد
وزمائـــكَ العـــاصي لغـــيْرِكَ، طائعٌ لـــكَ طـــاعـــةَ المنْقـــادِ للْـــمُقْتـــاد
ونرى يمينَـــكَ والمُـــنى في لثْـــمِهـــا في كـــلّ أفْـــقٍ بالجُنـــودِ تُـــنادي
منْ كان على سَنَنِ الشجاعةِ والندى بـــئْسَ الـــمضـــلُّ فأنْتَ نعْمَ الهادي

وإذا ما حصل هناك ودّ وصفاء ومحبّة وإخاء بين ملوك الطوائف أو بين بعضهم، فإنّ ذلك من شأنه أن يُلهب قريحة الشاعر، فيصوّر ذلك في مدحه لهم بالوفاء والإخلاص وحفظ الذمّة، وكلّ ما من شأنه صرف الأعداء عن مجابهتهم. يقول ابن زيدون في ابن جهور باديس بن حبّوس صاحب غرناطة : (24)

---

23) ديوان ابن حمديس، ص. 146.

24) ديوان ابن زيدون، ص. 235 و236 * رسيلك: مواقفك.

سَلِ المَعْشرَ الأعْداءَ إنْ رُمْتَ صرْفَهمْ عنِ القصْدِ إنْ أعْياكَ منْه مَرامُ
.. فِداءٌ لبادِيسَ النفوسُ وجادَه من الشكْرِ في أفْقِ الوفاءِ غَمام
فما لحِقتْ تلْكَ العهودَ مَلامةٌ ولا ذُمَّ مِنْ ذاكَ الحفاظِ ذِمام
ومثْلُكَ والى مثْلَهُ فتصافيا كما صافتِ الماءَ القَراحَ مُدام
رسيلُكَ في شأْوِ المعالي كلاكُما بعيدُ المدى صعْبُ الهمومِ هُمام
لعَمْري لقدْ أحْظيْتَهُ بوِفادةٍ لأسْنى كريمٍ أنْجبتْه كِرام

وهذا ماكان ينبغي على ملوك الطوائف في التعامل فيما بينهم حتّى لا تضعف شوكتهم وتذهب ريحهم ، ولو أنّهم اتّحدوا تحت راية واحدة لكان خيرا لهم ، إلاّ أنّ نزعة الملك وحبّ الرياسة وعدم التفكير في العواقب حالت دون ذلك ، وللأسف . فإذا بعدوّهم يشجّع بينهم ذلك ، ويعمل على تفرقتهم ، وإيقاد نار الفتنة بينهم حتّى ضعفوا واستكانوا وأصبحوا يدفعون له الجزية عن يد وهم صاغرون ، ولا يملك الشاعر إزاء هذا إلاّ التهوين من الأمر بأنّ ما يأخذه العدوّ منهم ما هو إلاّ نعم في طيّها نقم ، ستعود عليه بالضرر إذا ما انتبهوا إلى هذا الخطر ، والمكر الكبّار ، وهبّوا إلى نصرة دينهم .

قال ابن اللبّانة يهوّن على المعتمد الإتاوات التي كان يدفعها للروم، وهو يومئذ على رأس أقوى دولة من دول الطوائف: (25)

في نصْرةِ الدينِ لا أُعْدِمْتَ نصْرتُهُ تلْقى النصارى بما تلْقى فتنْخدِعُ
تُنيلُهمْ نِعَماً في طيّها نِقَمٌ سيسْتضِرُّ بها مَنْ كان يَنْتفِع
وقلّما تسْأمُ الأجْسامُ مِنْ عَرضٍ إذا توالى عليْها الريُّ والشبَع

25) شعر ابن اللبانة، ص 63.

لا يَخْبِــطُ النــاسُ عشْواً عنْد مشْكلةٍ فــأنْتَ أدْرى بمــا تــأْتي وما تَدَعُ

وهذا هو شأن الممدوح ، فهو دائما مثالا لكلّ الفضائل حتّى ساعة انكساره وحلول المشاكل به ، فهو يعرف كيف يخرج منها بحكمته وحسن تدبيره ، وحتّى إذا ما سقط من أعلى فرسه ، فما ذلك إلاّ لأنّ الفرس لم يستطع حمل ما يتحلّى به هذا الممدوح من جود وبأس ورجاحة عقل . قال ابن جاخ الصبّاغ البطلْيوسي – وهو من أعاجيب الدنيا ، لا يقرأ ولا يكتب – في المتوكّل وقد سقط عن فرس : (26)

لا عَــتْبَ للــطّرْفِ إنْ زلّتْ قــوائمُه ولا يُــد نِّسُــهُ مِنْ عــائبٍ دَنَسُ

حَمَــلْتَ جــوداً وبــأْساً فوْقــه ونُهًى وكــيْف يحْمِــلُ هذا كلَّهُ الفرَس

وهكذا تتحوّل كلّ عيوب الممدوح إلى محاسن ، على غرار دفع الإتاوات والسقوط عن هذا الفرس .

كانت هذه صورة الممدوح في وقت السلم، فما هي صورته في وقت الحرب يا ترى ؟

2ـ صورته في الحرب :

كان ملوك الطوائف يحارب بعضهم بعضا ، ويتغلّب قويّهم على ضعيفهم ، وكلّ واحد منهم يسعى إلى الإطاحة بالآخر حتّى ولو استدعى الأمر إلى الاستنجاد بعدوّهم من الفرنجة الذي كان يعمل جاهدا على استنــزاف قواهم وإضعافهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، حتّى اضطروا إلى أن يدفعوا له الجزية مقابل ذلك ، وقد انطبق عليهم تدبير ألفونس السادس تمام الانطباق في قوله : " الرأي كلّ الرأي تمديد بعضهم ببعض، وأخذ أموالهم أبدا حتّى ترقّ وتضعف، ثم هي تأتي بيدها إذا ضعفت

26) نفح الطيب، 453/3.

وتأتي عفوا كالذي جرى بطليطلة إنّما كان من فقر أهلها وتشتّتهم مع اندبار سلطانها، وصارت إليّ بلا مشقّة ". [27]

وبدلا من أن ينتبه ملوك الطوائف إلى هذا الخطر المحدق بهم ، وهذا المكر المدبّر لهم ، " ظلّ إدبارهم يستشري، وعقارب بعضهم إلى بعض تدبّ وتسري ، حتّى أذن الله لأمير المسلمين في إفساد سعيهم وحسم أدواء بغيهم ، والانتصار لكوافّ المسلمين من فعلهم الذميم ورأيهم ، فشرع في ذلك سنة ثلاث وثمانين(483هـ) واستمرّ ينثر نجومهم،ويطمس رسومهم باقي سنة ثلاث وسنة أربع بعدها(484هـ)؛[28] مما أدّى إلى سقوط عهدهم ، لتدخل الأندلس في عهد جديد هو عصر المرابطين .

وقد سجّل الشعر ما كان يجري من صراعات وحروب والتي كانت فيما بينهم في أغلب الأحيان ، حتّ ليغلب على الظن أنّ هؤلاء المسلمين إنّما جاؤوا إلى هذه الأرض التي فتحها الله عليهم ليتقاتلوا فيما بينهم ، لا ليقاتلوا عدوّهم ، فإذا ما أحسّ أحد قادتهم بقوته سوّلت له نفسه الانقلاب على ملكه، وتنصيب نفسه ملكا بدلا منه ، فالكلّ يتوق إلى الرئاسة ويتشوّق إلى الملك ، ناكثا للعهد ، جاحدا للنعم . فهذا ابن زيدون يصف تمرّد " أحد كبار الجند ، وكان قد أنزله عبّاد " المعتضد بالله " مكانة رفيعة ، وأولاه عنايته ورعايته ، فما كاد يستشعر هذا المفتون قوّته حتّ اغترّ بنفسه خائنا العهد كافرا بالصنيعة ، فذلّ بعد عزّ وضلّ بعد أن هيّأ له المعتضد سُبل الهدى والرشاد ، وأسدى إليه النصح فأبى قبوله ، فما كان إلاّ أن أوسعه بألوان العقاب جزاء عناده وعصيانه " ، يقول : [29]

---

27) مذكرات الأمير عبد الله، ابن بلقين، ص.73.

28) الذخيرة 3 / 1: 94 واعتاب الكتاب لابن الأبار، ص.222 و223.

29) ديوان ابن زيدون، ص226 و 227وقصيدة المديح في الأندلس. .، ص. 48، * الأوهد: أكثر انخفاضا.

لِيَـــهْنِ الهُدى إنْجاحُ سعْيِكَ في العِدا وأنْ راحَ صُـــنْعُ اللهِ نحْـــوكَ واغْتدى
ونهْجُكَ سُبلَ الرشْدِ في قمْعِ مَنْ غوى وعدْلُكَ في اسْتئْصالِ مَنْ جارَ واعْتدى
.. دعوْتَ فقـــال النصْرُ: لبّيْكَ ماثلاً ولمْ تـــكُ كالداعي يُجاوبُـــه الصدى
.. أعَبّـــادُ يـــا أوْفى الملـــوكِ بذِمّـــةٍ وأرْعـــاهُـــمُ عهْداً وأطولَهُـــمْ يَـــدا
.. وكمْ ســـاعدَ الأعْداءُ أوّلَ مُطْمَعٍ رأوْكَ بـــعُقْبـــاهُ أحـــقَّ وأسْـــعـــدا
.. ضلالاً لمفْتـــونٍ سمـــوْتَ بحـــالِه إلى أنْ بَـــدَتْ بيْن الفـــراقدِ فـــرْقدا
رأى حَـــطَّهـــا أوْلى بـــهِ فأحـــلَّها حـــضيضاً بكُفْـــرانِ الصـــنيعةِ أوْهدا
ومـــا زاد لمّـــا لَـــجّ في البغْـــي أنّهُ ســـعى للـــذي أصْلحْتَ منْها فأفْسدا
فـــزلّ وقـــدْ أمْـــطيْتَه ثَـــبجَ السُّها وضـــلَّ وقدْ لقّيْتَـــهُ قَـــبَسَ الهُـــدى
.. تجَـــنّ فأهْديْتَ النـــصيحةَ محْضةً ولـــجَّ فـــوالـــيْتَ العِقـــابَ مُـــردّدا

وعلى غرار هذا يتعجّب ابن درّاج القسطلي من محاولة أحد المارقين من كبار الجند الخروج على ممدوحه المنصور منذر بن يحيى جهلا منه وعنادا، وجحدا لأنعم الممدوح عليه، وأياديه البيضاء نحوه، وتبويئه المكانة العليّة لديه ، ولو أنّه أناب إليه طوعا لنال فوق مراده ، إلاّ أنّ حبّ التسلّط هو الذي أملى عليه ذلك ، يقول : [30]

عَـــجبْتُ لمـــارقٍ يعْصيـــكَ جـــهْلاً وقدْ سَبقتْ إليْـــه لكَ الأيـــــادي
فـــسلْهُ مُـــخْزِياً هـــلْ كان يدْري بـــأنّ الخِـــزْيَ في طلَـــبِ العِـــناد
ألمْ يـــكُ لوْ أنـــابَ إليْكَ طـــوْعاً يَنالُ مِنَ العُـــلا فـــوْقَ المُـــراد؟

كما يصف ابن درّاج أحد البغاة الثائرين الذين غدروا بممدوحه ونكثوا العهد الذي بينه وبينهم ، و لم يكن لهم لا ذمّة ولا اعتراف بالجميل ، وكيف أنّ الممدوح

30) ديوان ابن دراج ، ص487.

تصدّى له بحرب شعواء ، وأجهز عليه بجيشه حتّ زجّ به في السجن وتركه مذعورا من رؤيته حتّ في المنام ، رهين الظنون والأوهام المرجفة : (31)

بـــاغٍ أصـــابَ ببـــغْيِه وبنكْثِـــه نفْســاً عـــليْها يـــتَّقي ويُحـــامـــي
ولئـــنْ خَـــتمْتَ عليْه سجْنَكَ قاهراً فغـــدا وأمْسى مـــنْك رهْـــنَ حِمام
في بـــطْنِ أمّ بَـــرَّةٍ لَـــقِـــحَتْ بـــهِ يوْمَ الـــوغى مِنْ ذابـــلٍ* وحُـــسام
فـــلقدْ تمخَّضَ عنْه منْـــكَ بـــرَوْعةٍ تُـــوفي فـــتُسْقِطُـــه لغـــيْرِ تَمـــام
ولـــقدْ نَـــدبْتَ لحـــرْبِه في بطْنـــها قـــرْعَ الظنونِ ومُـــرْجِفَ الأوْهـــام
ولـــوِ اسْتجـــزْتَ لـــه المنامَ لردَّهُ كيْ لا يَـــرى عـــيْنيْكَ في الأحْـــلامِ

ولا عجب إذا كان هؤلاء الخارجون عن الطاعة ، المتمرّدون الثائرون على نظام الحكم هذا أو ذاك ممّن لا تربطهم علاقة قرابة وصلة رحم بالحاكم ، فكيف بهم إذا كانوا من أهله وذويه ؟ لا شكّ أنّ الأمر سيختلف ، وهذا ما صوّر به ابن درّاج ممدوحه المنذر بن يحيى كذلك وقد أتاه أحد الثائرين عليه من أهله وذوي قرابته تائبا طائعا معترفا بذنبه ، نادما على ما بدر منه ، بعد أن تصدّى له الممدوح وقدر عليه ، فشمله حلمه ، وقضت صلة الرحم التي تجمعهما أن يرحمه ويعفو عنه ، حاكما عليه بالجلاء دون القتل ، وكأنّه حكم النبي صلى الله عليه وسلّم على بني النضير في حين أنّ ما بدر من هذا الخارج من خيانة وغدر كان كفيلا به أن يوقع عليه حكم الرسول صلى الله عليه وسلّم على بني قريظة ، يقول : (32)

ومُـــعْتـــرِفٍ بالذنْبِ مُبْتئسٍ بِـــهِ دعـــاكَ وقـــدْ قـــامتْ عـــليْهِ مَآتِمُـــهْ
إذا صـــــدّهُ الذي ســـامَ نفْسَه يَـــكرُّ بـــه العيْشُ الذي هُـــو سائمُـــه

31) ديوان ابن درّاج، ص. 491 * الذابل يقال رمح ذابل: دقيق
32) نفســـــه، ص. 199 و200.

فتلْقاهُ أطْرافُ القَنا وهْــو نُصبُــها ويَصْعَــقُه برْقُ الردى وهْــو شائمُــه
إذا كان يقْضي بالأسى نحْبَهُ قضَتْ لــهُ الــرحِمُ الــدنْيا بــأنّكَ راحِمُــه
.. ولا مثْلَ حِلْمٍ أنْتَ للغيْــظِ لابسٌ ولا مثْــلَ غــيْظٍ أنْتَ بالحِلْمِ كاظمُــه
فأوْسعْتَه حكْمَ "النضير" وقدْ حكى " قُــريْظةَ " منْــهُ غِلُّــهُ وجرائمُــهْ

ويمدح ابن زيدون أبا الحزم بن جهور بأنّه رجل سلم وسلام ، إلاّ أنّه لا يتوانى عن قمع الفتن التي كانت تحدث في عهده ، ثم هو يعفو بعد ذلك عن الجناة عفو المقتدر الذي لا يعرف الحقد طريقا إلى قلبه ، يقول : (33)

لشــمَّرَ حتّى انْجابَ عارضُ فتْنةٍ تألّقَ منْها البرْقُ واصْطَخَبَ الرعْــدُ
فسالمَ مَنْ كانتْ لهُ الحرْبُ عادةً ووافقَ منْ لا شــكّ في أنّــهُ ضِــدُّ
.. إذا اعْترفَ الجاني عفا عفْوَ قادرٍ علا قــدْرُه عــنْ أنْ يَلجَّ به حِقْــدُ
ومُــتّئدٌ لوْ زاحمَ الطوْدَ حِلْمُه لحــاجزَهُ ركْــنٌ منَ الطوْدِ مُنْهَــدّ
له عزْمةٌ مطــويّةٌ في ســكينةٍ كما لان متْنُ السيْفِ واخْشوْشنَ الحدّ

ويسجّل ابن اللبّانة هذا الصراع بين المسلمين أنفسهم حين يمدح المتوكّل بن الأفطس عاهل بطليوس عند قدومه من بلاد الجوف ، وقد أوقع بقوم من الجناة ساموا هذا القطر ألوانا من الفتنة والخروج عن الطاعة ، فتصدّى لهم المتوكّل بفرسانه البواسل حتّى اضطروا إلى التسليم ، وهم ما هم عليه من قوّة وبأس شديد ، واستطاع بذلك معالجة هذا الداء الذي أصاب هذه الأرض من مملكته ، وفي ذلك يقول : (34)

مضيْتَ حُســاماً لا يُفَــلُّ له غَــرْبُ وأبْتَ غمامــاً لا يُحــدُّ لــهُ سَكْــبُ

33) ديوان ابن زيدون، ص. 210 و 211.
34) شعر ابن اللبانة، ص 19 و 20.

وأصبحْتَ منْ حاليْكَ تَقْسمُ في الورى هِباتٍ وهبَّـاتٍ هيَ الأمْـنُ والرعْـب
وقدْ كانَ قُطْرُ الجوْفِ كالجوْفِ يشْتكي سقامـاً فلمّـا زُرْتَـهُ زارهُ الطـبّ
رغا فوْقهمْ سُقْبُ العُـقابِ فأصْبحوا نَشـاوى منَ البلْوى كأنّـهُمُ شُـرْب
وبـالجيـادِ تـحْتـهمْ مُـسْتقِـرَّةٌ مِنَ الدُّهْمِ لا جُـرْدٌ حَكتْها ولا قُـبّ[1*]
..ملأْتَ جذوعَ النخْلِ منْهمْ فأصْبحتْ بهـمْ كـرحالٍ شُـدَّ فوْقها قَتْـب[2*]
ولّـما رأوْكَ اسْتقْبـلوكَ بـأوْجُـهٍ عليْـها سِمـاتٌ مِنْ ودادى لا تَخْبـو
ومـالوا إلى التـسْليمِ فوْق جيادِهمْ كما مـالتِ الأغْصانُ منْ تحْتها كُثْـب
كتائـبُ نصْـرٍ لوْ رمـيْتَ ببعْضِها بـلادَ الأعادي لمْ يكنْ دونـها دَرْب[3*]

نعم ، إنّها كتائب جيوش وحروب لو وُجّهت إلى العدوّ من الفرنجة لفُتحت كلّ الدروب المؤدّية إليهم ، ولتمّ القضاء عليهم ولزال خطرهم ، إلاّ أنّ هذه الفتن والحروب الدائرة في معظمها فيما بينهم حالت دون ذلك ؛ فهذا الشاعر الحصري القيرواني يصوّر في إحدى مدائحه طرفا من هذا الصراع بين ملوك الطوائف حول مدينة دانية بين أحمد بن سليمان بن هود المقتدر عاهل سرقسطة ، وعليّ بن مجاهد صاحب دانية على قلاع بحدود المملكتين ، وقد انتهى الصراع – كما يقول ابن عذارى المراكشي[35] – بأن هاجم المقتدر دانية بقوّاته ، وحاصرها حتّى استسلمت له ودانت له كلّها ، وبايعه خاصّة الناس وعامّتهم ، وضمّها إلى ملكه ؛ " فراح الحصري القيرواني يشيد بهذا الفتح ويمدح المقتدر منوّها بخروجه قائدا على رأس جيش جرّار

*1 قبّ: فيبا: دقّ خصره وضمر بطنه (ج) قُبّ (المعجم الوسيط 709/2)
*2 القتب: الرحل الصغير على قدر سنام البعير (المعجم الوسيط 714/2)
*3 الدرب: هو هنا: كلّ مدخل إلى بلاد الروم (المعجم الوسيط 277/1)
35) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، 228/3.

معبّا بالفرسان والجياد المسوّمة ، والظباة البيضاء اللامعة التي بدّدت سواد الليل وأصابت جند الخصم في مقتل حتّى تمّ فتح المدينة بعد حرب ضروس بدت فيها سيوف الممدوح كالأقدار تجري على رقاب العباد ، يقول :

هَـدَيْتَ العسْـكرَ الجـرَّارَ لَيْـلاً فـأهْدَيْتَ الظُّبـاةَ إلى الهـوادي
مـلأْتَ بـهِ الفضـاءَ فضـاءَ لـيلٍ مـحتْ فيه الظُّبَى شـكْلَ السوادِ
ومَـا أقْـبـلْتَ إلاَّ بـعْدَ مَـا قَـدْ سـقيْتَ الثَّـغْرَ مِنْ ثُـغَرِ الأعادي
وكـان مَـرَامُ دانـيـةٍ عـزيـزاً فـهـانَ على المُـسَوَّمَـةِ الجيادِ
فـآثـرْتَ العَـوالِيَ في المَـعالـي وآثـرْتَ الصـلادمَ[1*] في الصَّلادِ[2*]
كـأنَّ سُيـوفَـكَ الأقْـدارُ تجْـرِي بمـا شـاءَ الإلـهُ علـى العبادِ "[36]

ويصوّر ابن عمّار كذلك طرفا من هذا الصراع الذي أشار إليه الفتح ابن خاقان ، وقد تمثّل هذه المرّة في حصار المعتضد بالله عبّاد لابن عبد الله بقرمونة ، وتضييق الخناق عليه ، فما كان عليه إلاّ أن استنجد بباديس بن حبّوس صاحب غرناطة لينقذه من المعتضد ، وما إن وصل باديس إلى قرمونه حتّى واجهه المعتضد بجيش جرّار بقيادة ابنه المعتمد الذي أوقع بخصمه هزيمة شنعاء ، ثم انصرف هو وعسكره إلى إشبيلية عاقدين ألوية النصر[37] وأخذ ابن عمّار يصف هذا الصراع مشيدا بالمعتمد " الذي تدرّع بالسيوف واندفع في ظلام الليل قاصدا أعداءه و لم ير الأفق حوله إلاّ سيفه الصقيل الذي شهره وبدا كالنجم تلألؤا وبريقا حتّى أطلّ على قرمونة عند انبلاج الصباح ، وكأنهما حبيبان قد تواعدا على اللقاء ، فأعمل فيها

36) أبو الحسن الحصري القيرواني، ص.117، وقصيدة المديح في الأندلس. .، ص.49و 50.

*1 الصلادم مفردها صلدم وهو الصلب المتين

*2 الصلاّد (ج) صلد، وهو الصلب الأملس الشديد.

37) ينظر قلائد العقيان في محاسن الأعيان، ص.98.

السيف ومزّق عسكرها وأوردها موارد الهلكة ، ثم انصرف عنها وقد أشعل النيران في أنحائها ، فبدت كأرملة ثكلى ترتدي ثوب الحداد على زوجها " ، يقول:[38]

فـتًى ثَـقفٌ بيْن الحـمـائلِ مُقْدمٌ ... جنيُّ الموْتِ منْ كفّيْه أحْلى منَ الشهْدِ
سقـيْتَ بـه دينـاً عُفاتِكَ مُخْصِباً ... فأجْناكَ منْ روْضِ الندى زَهَرَ الحمْـد
وجـنّدْتَـهُ نحْـو الملـوكِ مُحـارباً ... فـوافـاكَ يقتـادُ الملوكَ منَ الجنْـد
ورُبَّ ظـلامٍ سـارَ فيهِ إلى العِـدى ... ولا نجْـمَ إلاّ مـا تَـطلَّعُ منْ غمْـد
أطـلَّ على قـرْمـونـةَ مُتبلّـجاً ... مع الصبْحِ حتّى قيلَ كانا على وعْـد
فـأرْمـلَهـا بالسـيْفِ ثمّ أعارَها ... منَ النـارِ أثْوابَ الحِدادِ على الفقْـد

وإذا كان المعتمد قد هاجم قرمونة في عهد أبيه المعتضد ، فإنّه كذلك هاجم لورقة في عهده وضمّها إلى ملكه ، وفي ذلك يقول ابن اللبّانة :[39]

تخلّلْـتَ حتّى غـابةَ الأسَـدِ الـورْد ... وأنزلْـتَ حتّى ساكنَ الأبْلقِ الفرْدِ
وجـرّدْتَ دونَ الديـنِ سيْفَكَ فانْثنى ... منَ النصْرِ في حلْيٍ منَ الدمِ في غمْد
بـصـيرٌ بـأطْرافِ المؤثّـلَةِ الشّـبا ... سمـيعٌ بـآذانِ المـسوَّمَةِ الجُـرْد
لـقدْ ضَـمَّ أمْـرَ الملْكِ حتّى كـأنّهُ ... نـطاقٌ بخصْرٍ أوْ سِوارٌ على زنْـد
وحَسّـنَ طعْـمَ العيْـشِ حتّى أعادهُ ... ألذَّ منَ الإغْفاءِ في عَـقبِ السهْـد
وحـسْبُ اللـيـالي أنّـها في زمانهِ ... بمنْـزلةِ الخيْلانِ في صفْحةِ الخـدّ
.. يغيثُـكَ في محْـلٍ يعينُـكَ في ردًى ... يروعُـكَ في درعٍ يروقُـكَ في بُرْد
بـهمّـتِه شـاد العُـلا ثمّ زادهـا ... بنـاءً بـأبْنـاءٍ جحاجحةٍ لُـدّ

38) محمّد بن عمّار الأندلسي، ص.196، وقصيد المديح في الأندلس. .، ص. 75 و76.
39) شعر ابن اللبانة الداني، ص.35 و36.

ويعرض أبو عمر الباجي حلقة أخرى من حلقات هذا الصراع بين ملوك الطوائف عربهم وبربرهم على غرار ما جرى بقرمونة واستنجاد صاحبها بباديس بن حبّوس ، إذ يذكر ابن عذارى المراكشي أنّ الله سلّط ابن ذي النون صاحب طليطلة على عبد الملك بن أبي الوليد بن جهور صاحب قرطبة لجوره على أهلها ، وتفاقم شرّه واستعلائه في الأرض ؛ فحاصره وضيّق عليه الخناق ، ونزل قرطبة واستولى على حصن المدوّر ، فاستنجد عبد الملك بالمعتمد بن عبّاد فوافاه بجيشه وفرّ ابن ذي النون ، لكنّ المعتمد قبض على المستنجد به عبد الملك ثمّ أجلاه عن البلاد ، وضمّ قرطبة إلى مملكة إشبيلية[40]؛ ممّا يدلّ على أنّ الصراع لم يكن عربيّا بربريّا كما صرّح بعضهم بوصفه[41]، وإنّما كان كلّ ملك من هؤلاء الملوك يسعى إلى توطيد سلطانه ، وتوسيع دعائم ملكه ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

فيصوّر الشاعر " هنا هذه الحادثة منوّها بممدوحه المعتمد وبلائه الحسن ومساندة الله له ، حتّى دان له غافق والمدوّر بالولاء والطاعة امتثالا لمشيئة القضاء ، كما يشيد بكتائب جيشه الجرّار الهادر الذي طبقت شهرته الآفاق واسترهب الإنس والجنّ والجماد حتّى ألقى له عنان الطاعة جبلا رضوى وصنبر، يقول : "[42]

أنــارتْ لكَ الــدنْيا ووجْهكَ أنْورُ ... وجَــلّتْ عــطايــاها وقدْرُكَ أكْبرُ

ودار كمــا شئْتَ القضاءُ مُساعداً ... فــجــاءتْ ولاءً غــافقٌ والمــدوّر

أزَرْتَهــما* بحْــرَ الكتــائبِ مُزْبداً ... فــألْقتْ عنانَ الطوْع رضْوى وصَنْبر

يــقولُ مُثــارو الجنِّ إذْ ذُعِروا بهِ ... هي الأرْض تسْعى أمْ هوَ البحْرُ يزْخَر

40) البيان المغرب 259/3 وما بعدها.

41) قصيدة المديح في الأندلس. . ، ص.50

42) نفســــــه، ص.53 و54 * أزر الشيء: قوّاه ودعمه

سـرى فاستُطيروا خيفةً منْ نذيرهِ ولـمْ تـكُ ليْـلاً قبْلـهُ الجنُّ تُذْعرُ

كما يصوّر ابن الحدّاد طرفا من هذه الحروب الداخلية في مدح المعتصم بمناسبة غلبته على وادي آش سنة (455هـ) ، واصفا خصومه بأنّهم ياجوج وماجوج المفسدون في الأرض ، فتصدّى لهم المعتصم بجيشه الجرّار، الذي كان بمثابة السدّ الذي جعله ذو القرنين بين هؤلاء وبين قومه ، واستطاع أن يجعل من رؤوسهم الحالكة السواد عقدا تزيّن به شرق المريّة في عهده ، إذ يقول : (43)

بـلادٌ غدتْ يـأْجوجُ فيها فأفْسدَتْ فكنْتَ كذي القرْنيْن والجحْفلُ السدُّ

ومـا زالَ شـرْقيُّ المريّـةِ عـاطلاً إلى أنْ عـلاها منْ رؤوسِـهمُ عِقْد

..كـأنّهمُ فيـها غـرابيـبُ وُقَّـعٌ على باسـقاتٍ لا تـروح ولا تغْدو

ونجد ابن الحدّاد في موضع آخر من شعره ، يشيد بشجاعة ممدوحه المعتصم ، وقوّة شكيمته ، ومضاء عزمه ، مصوّرا خصومه وكأنّهم شراة الخوارج أيّام عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه ، وفي ذلك يقول : (44)

وكـمْ قدْ رأتْ رأْيَ الخوارجِ فرْقةٌ فـكنْتَ عليّـاً في حُـروبِ شُراتها*

بعـزْمٍ أبـيٍّ لا يُـردُّ مـضـاؤُهُ وهلْ تُمْـلكُ الأفْلاكُ عنْ حركاتها؟

هـو الجـاعلُ الهيْجا حشاً وسنانَهُ هوًى فهْـوَ لا يعْدو قلوبَ كُماتها*

43) الذخيرة 1/1 : 314 وشعر ابن الحدّاد، ص 53.

44) نفسه 2/1 : 714 ، وشعر ابن الحدّاد ، ص 44 . * الشراة: فرقة من الخوارج *2 الكماة: م/كام: الفارس المتدرع

وهكذا، فالمتتبّع لصورة الممدوح وقت الحرب في هذا العهد لا يكاد يصل إلى ما كان يجري بينهم وبين عدوّهم الحقيقي من الفرنجة حتّى يجدهم قد استترفوا قواهم في الإطاحة ببعضهم بعض، ناهيك عن الكثير من الدسائس والمؤامرات.

ومما سجّله الشعراء في مدائحهم من صراع بين هؤلاء الملوك والممالك المسيحية المصاقبة لهم في الشمال نجد ابن درّاج القسطلي " يشيد بدور ممدوحه يحيى ابن منذر في الدفاع عن الإسلام والمسلمين ، ومواجهة هؤلاء المشركين والتغلّب عليهم ، وما ترتّب على ذلك من تشريد قادتهم وارتياع ملكهم ابن شنج (شانجه بن غرسية) ملك مملكة نبارة المتاخمة لبلاط التجيبيّين في سرقسطة "، يقول : [45]

مساعياً كُتبتْ في اللوْحِ واكتُتبتْ ... فينا بسعْيِ ابنِ يحْيى واعْتلاءِ يدِهْ

يخُطُّها بصدورِ الخطّ مُنْصلتاً ... في كُلّ صدْرٍ حليفِ الكفْرِ مُعْتقِده

وينْشني في صِفاحِ العجْمِ يعْجِمُها ... بصفْحتيْ كلّ ماضي الغرْبِ مُتّقِده

.. راعَ الملوكَ فمخْنوقٌ بجرَّته ... يهيمُ في الأرْضِ أوْ لاجٍ إلى سَنَدِه

فتلْكَ نفْسُ ابنِ شنْجٍ لا مآلَ لها ... منْ ميْتةِ السيفِ أوْ عيْشٍ على نَكَدِه

ما يَرْتقي شَرفاً إلاّ رَفعْتَ لهُ ... وجْهاً منَ الروْعِ مرْفوعاً على رَصَدِه

ولا انْتحى بلداً إلاّ قرنْتَ بِهِ ... همّاً يُبلّدُه عنْ مُنْتحى بلدِه

وقدْ توجَّسَ منْ يُمناكَ بارِقةً ... في عارِضٍ لا يفوتُ الطيْرُ منْ بَرَدِهْ

45) ديوان ابن درّاج، ص.148 و149، وقصيدة المديح في الأندلس. . ، ص.61

كما نجده ينوّه بجيوشه التي استطاعت أن توقع بقائدين كبيرين من قوّاد ملك الفرنجة هذا ، اللذين ألحقا بالمسلمين كثيرا من الأذى ، وتنصب رأس أحدهما على باب طليطلة ، يقول : (46)

رأسٌ مــطلٌّ عــلى بــابيْ طُلَيْطِلةٍ ... يــومي إلى الكفْر هذا موْعدُ الكَفَرهْ

وهامةٌ قدْ قضتْ نحْبَ الحِمامِ ضُحًى ... وهــامةٌ فوْق صفْحَيْ شَنْجُ مُــنْتظِره

أوْفى عــلى مــوْعدٍ مــنْهُ تُــراقبُهُ ... تــدْعو هَــلُمَّ إلى مسْــتوْدَعِ الغَدَره

ونــاخرًا أمْسِ في البيْــداءِ منْ عِظَمٍ ... واليــوْمَ أصْبــح فيــها أعْظُماً نخِره

كمْ مــنْ سَمَــيٍّ لهُ فيها وذي نَسبٍ ... لــمْ يــدَّخِرْ نــابهُ عنْــهُ ولا ظُفُره

ويشيد ابن درّاج كذلك بفتح ممدوحه المظفّر يحيى لمعقل من معاقل الكفر، وهي مدينة ناجر، وكيف أنّه دمّر قلاعها ليلا وتركها خاوية على عروشها ، بعدما كانت ذات حسن بنيان ، يقول : (47)

فهاتيــكَ أمُّ الكفْــرِ نــاجِــرُ بعْدها ... ظــلاماً بــلا نجْــمٍ وليلاً بلا صُبْحِ

لــبِسْتَ بهــا ثوْب الــفخارِ مُجدَّداً ... وغــادرْتَها تلْتــفُّ في خَــلَقِ المِسْحِ

تُباكي صَدى الهامِ الــتي تَــرَكَتْ بها ... سيوفُــكَ عنْ ذاتِ المحاســنِ والمِلْحِ

ووافق وجود ابن الحدّاد بسرقسطة أن افتتح المقتدر أحمد بن سليمان بن هود أحد الحصون التي كان الطاغية ابن ردمير قد بناها على بعض جبالها ، وانصرف غانما إلى سرقسطة سنة اثنتين وستين وأربعمائة (462هـ) ، فقال ابن الحدّاد في ذلك : (48)

---

46) السـابق، ص.494.

47) نفســه، ص.286.

48) الذخيرة 2/1 : 727 وشعر ابن الحداد، ص.47.

مَضاؤكَ مضْمونٌ لهُ النصْـحُ والفتْحُ وسعْيُـكَ مقْرونٌ بهِ اليمـنُ والنجْحُ
إذا كان سـعْي المـرْءِ للّـهِ وحْدهُ تـدانتْ أقـاصي مـا نحاهُ وما يتْحو
بكَ اقْـتدحَ الإسْلامُ زنْدَ انْـتصارِهِ وبيضُـكَ نـارٌ شبَّـها ذلكَ القَدْحُ
وجـلّى ظـلامَ الكفْـرِ منْكَ بغرَّةٍ هيَ الشمْـشُ والهنديُّ يقدمها الصبْح
فهـمْ ذهـلوا عنْ شرْعِهمْ وحدودِه فقدْ عُطّـلَ الإنْجيلُ واطُّرِحَ الفصْحُ

فهو " يذكر أن الدنيا طربت لمضاء ممدوحه في سبيل الحق. وإعلاء كلمة الله وحده ، وأنّ الإسلام اقتدح على يديه زند الانتصار حين أقبل بوجه أغرّ كالشمس تكسو الأفق نورا ، وسيف تحوّل في قبضته إلى نار موقدة تبدّد ظلام أهل الكفر حتّى ارتاعوا مذهولين مهمومين بغير شريعتهم ، ومنصرفين عن تعاليم كتابهم وأداء طقوسهم الدينية ". [49]

وعدا هذا ، لا نجد هناك حروبا تُذكر بين ملوك الطوائف وبين عدوّهم من الفرنجة إلى أن كانت وقعة الزلاّقة الشهيرة سنة (479هـ)[50] ، إذ تمّ اتّحادهم تحت راية واحدة بقيادة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين ، واستطاعوا أن ينتصروا على ملك الروم ألفونسو السادس انتصارا ساحقا ، فرّ على إثره مذموما مدحورا فزعا متخفّيا في ثوب الليل، وقد كتب له أن ينجو بنفسه في سرية قليلة، كما أبلى المعتمد بن عبّاد في هذه الموقعة بلاء حسنا، وفي ذلك يقول ابن حمديس : [51]

ومُـعْتَـرَكٍ تـلقَّى ألْـفنْشُ فـيهِ غـريمـاً مُـهْلـكاً نـفْسَ الغريمِ

---

49) قصيدة المديح في الأندلس . .، ص65.

50) نسبة إلى بطحاء الزلاقة من إقليم بطليموس في غربي الأندلس (الروض المعطار في خبر الأقطار، ص.187 وما بعدها). وينظر الذخيرة 1/3: 93 و 2/3: 814 و معارك العرب في الأندلس لبطرس البستاني .

51) ديوان ابن حمديس، ص.437 و 438 * أي بفزع صارخ بلغ من شدّته أن سمعه الظليم وهو موصوف بالصمم . * البريم : الجيش فيه أخلاط من الناس .

تستّرَ بالظلامِ وفرَّ خوْفاً بروْعٍ شَقَّ سامِعتيْ ظليمِ*
وذاق بيوسفٍ ذي البأْسِ بؤْساً فمَرَّرَ عنْده حلْوَ النعيم
وقدْ نَهشتْهُ حيّاتُ العوالي سلوا الليْلَ السليمَ عَنِ السليم
ثَنى توْحيدُكَ التثْليثَ منْه يَعضُّ على يديْ فزِعٍ كظيم
.. غداةَ أتى بصُلْبانٍ أضلّتْ عُلوجاً أبْرموا كيْدَ البريم*
كأنّهمُ شياطينٌ ولكنْ رميْتهمُ بمحْرقةِ النجوم
.. ولمّا أنْ أتاكَ بقوْمٍ عادٍ أتيْتَ بصرْصرِ الريحِ العقيم
وقدْ ضرَّمْتَ نارَ الحرْبِ حتّى حَكتْ زفراتُها قِطَعَ الجحيم
.. فثوْبُ الجوِّ مُغْبرُّ الحواشي ووجْهُ الأرْضِ محمرُّ الأديم
.. فصلِّ لربِّكَ المعْبودِ وانحرْ قُرُوماً منْهمُ بعْدَ القروم*
وعيِّدْ بالهُدى وأعدْ عليْهمْ عذابَ الحرْبِ بالألمِ الأليم

ويمدح ابن حمديس المعتمد في قصيدة أخرى ، ويهنّئه بعودته سالما من هذه المعركة الطاحنة إلى إشبيلية ، ويشيد بشجاعته ، وشدّة بأسه ، وجيشه الذي حجب أشعّة الشمس لكثرته وكأنّ الله تعالى قد أمدّه بملائكة من السماء ، فألحق بزعيم الروم هزيمة نكراء ، فنصر الدين ، وكبّد الفجّار أهل الكفر والضلال الخسائر والخزي والعار، يقول : (52)

لِيهْنئْ بني الإسْلامِ أنْ أُبْتَ سالما وغادرْتَ أهْلَ الكفْرِ باللذّ راغما
كشفْتَ كروباً عنْ قلوبٍ كأنّما وضعْتَ عليْها منْ هواكَ خواتما

52) ديوان ابن حمديس ص.425-428. * القروم : (م) القرم : الفحل الذي يترك من الركوب والعمل ويودع للفحْلة . (السان / قرم ، 12 / 473) للدلالة على سمنها.

صبــرْتَ لحَرِّ الطعْنِ والضرْبِ ذائداً عنِ الدينِ واسْتصغرْتَ فيهِ العظائما

.. وكمْ شجّــةٍ في حُرِّ وجْهكَ لمْ يزلْ لكَ الحسْنُ منْها بالشجاعةِ واسما

أجــبْتَ الهُــدى لمــّا دعاكَ لنصْره وجــرَّدْتَ عزْماً إذْ تقلّدْتَ صارما

بجــيْشٍ تُثــيرُ الجــرْدُ فيهِ قساطلاً تــريــكَ بهــا وجْــهَ الغزالةِ قاتما

..كــأنّ زعيــمَ الرومِ ويْــلٌ لنفْسه أثــارَ عليْــه منْــكَ ليْثــاً ضُبارما

نَــقَمْتَ على مــنْ آسفوكَ بيوسفٍ وما زلْــتَ ممّــنْ خالفَ الحقَّ ناقما

..فلــمْ تَبْــقَ من أهْلِ الظلالــةِ بقيّةٌ لقــدْ عــادتِ الأعْراسُ فيهمْ مآتما

..أرى ألفُنْــشَ ولّى يوْمَ لاقى فوارساً مَغافــرُهــمْ لاثوا عليْــها العمائما

.. هُناكَ ثنيْــتَ الكفْــرَ خزْيانَ باكياً نعمْ ورددْتَ الديــنَ جذْلانَ باسما

..نذرْتُ نــذوراً فاقْــتضاني قضاءَها إيّابُــكَ منْ يــوْمِ الــعروبــةِ سالما

ولمــّا وجدْتُ الوفْــرَ أعْوزَ راحتي سجدْتُ لــربّي ثمّ أصْبحْــتُ صائما

وإنّه لنصر مبين يستلزم حمد الله حمدا كثيرا ، وتسبيحه بكرة وأصيلا ، وذكره وشكره وحسن عبادته ، وقد لمّح الشاعر إلى ذلك بقيامه وصيامه . وقليل من ملوك الطوائف الشكور .

ويمدح عبد الجليل بن وهبون المعتمد " مشيدا بثباته يوم وقعة الزلاّقة ، وينوّه بدور أمير المسلمين يوسف بن تاشفين الذي حالفه على الصدق ونصرة الإسلام والمسلمين، وليس غريبا تعاونهما وتحالفهما على الجهاد ، ونصرتهما للعروبة والإسلام فكلاهما – كما يذكر الشاعر – يمتدّ نسبه إلى القبائل العربيّة وتربطه بالآخر وشائج أخويّة وثيقة ، كعلاقة يوسف الصدّيق بأخيه بنيامين ، كما يصف تلاحم جيش ابن تاشفين بجيش المعتمد بن عبّاد واجتماعهما على أهل الكفر حتّى استصرخ ملكهم

اللعين (ألفونسو السادس) الفرار ، ونجا في ستر من الليل نجاة مهين دنيء النفس ، وليس نجاة الحرّ المجاهد " ، يقول : (53)

فثــارَ إلى الطعــانِ حــليفُ صدْقٍ تثــورُ بــهِ الحفيــظةُ والــذّمــامُ
نُمــي فــي خمْــيرٍ ونَمتْــكَ لخْمٌ وتــلْكَ وشــائجٌ فيهــا التــحامُ
فيــوسفُ يــوسفٌ إذ أنْــت منْهُ كيــامــنٍ لا وهَى لــكُما نــظام
نهــجْتَ لسيْــلِهِ نهْــجــاً فــوافى وفي آذيــهِ*1 الطامي عرام*2
فهــيلَ بــهِ كثيبُ الكفــرِ هــيلاً وكــلُّ رُفَــيْغــةٍ*3 مــنْهُ ركــام
وصــاروا فوْق ظهْرِ الأرْضِ أرْضاً كــأنّ وِهــادَهــا مــنْهمْ اكــامُ
.. تألّفتِ الــوُحــوشُ عليْــهِ شتىً فما نقصَ الــشرابُ ولا الــطعام
فــإنْ ينْــجُ اللعــينُ فــلا كحُــرٍّ ولــكنْ مثْــلمــا ينْجو اللئــامُ

وقد بعث ابن عبادة القزّاز الشاعر الوشّاح برسالة إلى المعتمد بن عبّاد ضمّنها قصيدة يمدحه فيها بهذه المناسبة ، نورد منها هذه الأبيات : (54)

جــزاكَ اللهُ خــيْــرًا عــنْ بــلادٍ محــا عنْــها الفسادَ بكَ الــصلاحُ
جَنبْــتَ إلى الأعــادي أُسْــدَ غابٍ بــراثُنــها المــهنَّــدةُ الــصفــاح
وقُــدْتَهــمُ فــكــان لهمْ ظُهــورٌ ولــوْلا الشمْــسُ ما ظهرَ الــصباح
محــمّــدٌ بْــنُ عــبّــادٍ هــزَبْــرٌ لــعُبَّــادِ الــمسيــحِ بَــلدا فطاحوا

---

53) الذخيرة 1/2: 245 و 246 وقصيدة المديح في الأندلس . .، ص. 63.

*1 الأذي: الموج الشديد .

*2 العرام: من الجيش كثرته كثرة لا تطاق ولا تحصى.

*3 الرفيغة: التراب اللين.

54) الذخيرة 2/1 : 803. *لبيت من نونية أبي البقاء الرندي المشهورة .

رأى مـنْـهُ أبو يـعْقوبَ فـيـهـا عُـقـاباً لا يُـهـاضُ لـهُ جَناح
فقال لـهُ لكَ الـقِدْحُ الـمُعلَّى إذا ضُـرِبتْ بمشْهـدِكَ الـقِـداحُ

وهكذا تتوالى المدائح في المعتمد بن عبّاد مع ذكر أبي يعقوب يوسف بن تاشفين ، وكلّها تشيد ببأسهما ، وشجاعتهما ، وقوّة جيشهما ، وانتصارهما على عدوّهما من الفرنجة . وقد غُيّب فيها ملوك الطوائف الآخرون على الرغم من مشاركتهم في هذه المعركة التي أعادت إلى الأندلس هيبتها ، إلاّ أنّه تمّ بعدها القضاء على هؤلاء الملوك جميعا الواحد بعد الآخر من طرف المرابطين ، بما فيهم المعتمد بن عبّاد نفسه .

وكانَ ما كانَ مِنْ مُلْكٍ ومِنْ مَلِكٍ كما حكى عنْ خيالِ الطيْفِ وسْنانُ*

والجدير بالذكر أنّ شعر شعراء الطوائف مثل ابن زيدون ، وابن عمّار ، وابن حمديس ، وابن اللبّانة ، وابن الحدّاد وغيرهم حافل بذكر معاني الجهاد، وقوّة الجيش من عدد وعدّة ، ومواجهة الأعداء ، وتحصين الثغور، ونصرة الدين والدفاع عن حمى الإسلام ؛ إلاّ أن الدارس لا يدري إذا كان ذلك من قبيل المدح واستعراض مظاهر قوّة الممدوح على سبيل ترهيب العدوّ سواء أكان ذلك على الصعيد الداخلي ، أم على الصعيد الخارجي إذ لم تُذكر مناسبات تلك المدائح .[55]

كان هذا ما تسنّى لنا إيراده عن صورة الممدوح على المستوى الشعوري من ناحية الخَلْق والخُلق في السلم والحرب، وننتقل إلى دراستها على المستوى التعبيري، تحت جماليات صورة الممدوح.

55) ينظر ديوان ابن زيدون، ص. 169 و 179، 184، 231، و245 وديوان ابن حمديس، ص.161،157، 208 و211 وشعر ابن اللبانة، ص.23 ، 30، 97، 99.

الفصل الثالث:

جماليات صورة الممدوح:

1ـ المستوى التصويري

2ـ المستوى اللغوي

3ـ المستوى الإيقاعي

أ ـ الإيقاع الداخلي

ب ـ الإيقاع الخارجي

ـ1ـ الأوزان

ـ2ـ القوافي

الفصل الثالث:

جماليات صورة الممدوح:

1ـ المستوى التصويري:

إذا كان الشعراء في كلّ عصر من العصور السابقة لعصر الطوائف قد بنوا جلّ صورهم الشعرية على عنصري التشبيه والاستعارة وتفنّنوا في إخراجهما في شعرهم أيّما تفنّن ، مقلّدين ومبدعين ، فإنّ شعراء عصر الطوائف لم يكونوا بدعا بينهم ، فجاءت صورهم كذلك قائمة على هذين العنصرين .

وقد مرّت بنا صور في المحاور التي تطرّقنا إليها على المستوى الشعوري فيما يخصّ صورة الممدوح الخلقية والخلقية ، في السلم والحرب ، وسنحاول في هذا المقام تتبّع مصادر هذه الصور وطبيعتها ومدى عنصر الخيال فيها ، من خلال التشبيهات والاستعارات التي بنى عليها هؤلاء الشعراء صورهم ، وهل هي قديمة مكرّرة أو طريفة مبتكرة ؟

والجدير بالذكر أنّ الذوق النقدي والجمالي للعصر " قد أخذ يتغذّى ويتربّى على نماذج الشعر المحدث الذي انتشر في المشرق وحمل لواءه أبو تمّام والبحتري وابن الرومي (ت 283هـ) وابن المعتزّ (ت 296هـ) حتىّ قوي فيه هذا الاتّجاه الجديد والتأمت خبرات الأندلسيّين من خلال تذوّقهم نماذجه مكوّنة إطارا استاطيقيا ينتظم بداخله كلّ عمل فنيّ جديد "[1]

والملاحظ أنّ هذا الذوق المحدث قد نما في البيئة الأندلسية " كما حدث في شعر المشارقة المحدثين عن طريق الصورة أو قل الإكثار من التشبيهات ولذلك كان من أبرز العناصر التي التفت إليها الناقد المتذوّق عنصر التشبيه وحسبنا أن نجد كتابين في

1) قصيدة المديح في الأندلس. . ، ص.200.

أوائل القرن الخامس يكتبان في التشبيهات أحدهما كتاب أبي الحسن عليّ بن محمّد بن أبي الحسن الكاتب ، والثاني كتاب ابن الكتّاني الطبيب وكلاهما مقصور على تشبيهات الأندلسيّين دون سواها ، .. ولذلك فقد كانت العناية بالصورة والتماس اللطيف والغريب منها والإكثار من التشبيهات والاستعارات من أهمّ المعايير الجمالية التي شكّلت ذوق العصر، وبخاصّة ذوق الطبقة الأرستقراطية في المجتمع "[2]. وقد تبارى الشعراء في تلبية هذا الذوق ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. ومن هذه الصور قول ابن شهيد في ممدوحه :[3]

يا حسْنَ حمّامِنا وقدْ غرُبتْ شمْسُ الضحى فيه بعْد ما متعا

أيْقنَ أنّ الهلالَ راكبُهُ فضاءَ للحاضرينَ واتّسعا

وهي صورة قائمة على ما يسمّى عند البلاغين بالتشبيه البليغ ، فلا أداة تشبيه ولا وجه شبه ، ويبقى خيال المتلقّي هو الذي يبحث عن مراد الشاعر من ذلك " والشيء إذا نيل بعد الطلب له ، والاشتياق إليه ، كان نيله أحلى ، وموقعه من النفس ألطف و بالمسرّة أولى "[4] ؛ ولكنّ هذه الصورة لا تحتاج إلى كلّ هذا ، إذ سرعان ما ينكشف للسامع أو المطلع أنّ الشاعر يقصد جمال الممدوح كما مرّ بنا ، إلاّ أنّ الخيال يعمل عمله حين تدخل الشمس هذا الحمّام ، ومن ثمّ تتحوّل إلى هلال يضيء له الحمّام ويتّسع في هذا التجسيد المعنوي ممّا قد يضفي على الصورة نوعا من الإضافة ، ويمسح عنها معنى القدم . كما يمكن أن يلاحظ أنّ الصورة هنا قائمة على التشبيه والاستعارة معا ، بحيث إنّ صفة التيقّن خاصّة بالإنسان ، استعيرت للحمّام. وتستمدّ الصورة هنا عناصرها من الطبيعة نهارها وليلها ، شمسها وقمرها ، جعلها الشاعر معادلا موضوعيّا لما يشعر به إزاء ممدوحه .

---

2) قصيدة المديح في الأندلس. . ، ص.200 و2001

3) ديوان ابن شهيد، ص.92.

4) الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، ص.224.

وهي الصورة نفسها التي سيطرت عليه لمّا شبه ممدوحه تشبيها بليغا بالقمر، إلاّ أنّه هذه المرّة ، هو الذي تنفرج أمامه الخطوب والأهوال مهما بلغت شدّتها وأظلمت لياليها :

قـمـرٌ تـضـيءُ لـهُ الخطوبُ عـلى دآديـها الـفـواحـمْ [5]

والصورة مستمدّة من الواقع الاجتماعي المرير الذي كان يخيّم على عصر الطوائف من صراعات وحروب .

وهذه الصورة القائمة على هذا النوع من التشبيه تتجلّى كذلك في قول أبي عبد الله بن شرف البرْجي في ممدوحه : [6]

مـرَّ بي غـصْنٌ عـليـهِ قـمرٌ مُـتجـلٍّ نـورُهُ لا يـنْجـلي

ورأيْـتُ النـاسَ صـرْعى حوْلهُ فـكـأنّ الـيومَ يـومُ الجَـمل

فالصورة الأولى مستمدّة من الطبيعة أرضها وسمائها ، فالممدوح غصن في اعتدال قدّه وقمر في جمال وجهه ، إلاّ أنّ الشاعر لم يقنعه هذا التشبيه على ما يبدو لمّا أضاف بأنّ نور ممدوحه لا ينجلي كما ينجلي نور القمر.

أما الصورة الثانية ، فقائمة على تشبيه مرسل ذُكرت فيه أداة التشبيه "كأنّ" وقد استمدّت عناصرها من التراث التاريخي ، لمّا شبّه الشاعر صرعى ممدوحه الذين انتصر عليهم بما دار بين عليّ كرّم الله وجهه وخصومه يوم الجمل ، بما يوحي بتلك الصراعات والحروب الداخلية التي كانت تنشب بين ملوك الطوائف أنفسهم كما أسلفنا ، بحيث أنّ يوم الجمل كان بين طائفتين من المؤمنين اقتتلوا ، بعدما نزغ الشيطان بين بعضهم بعض .

---

5) ديوان ابن شهيد، ص.155.

6) الذخيرة 4 /1: 218

ويبدو أن الشاعر استطاب هذا النوع من التصوير لما أضاف قائلا : [7]

فاستطبْتُ العيْشَ في بلْدتِه فكأنّ الناسَ في قُطْربُل

وكأنّ الشمسَ منْ بهْجتِها أبدًا فيها ببُرْجِ الحَمَل

والصورة هادفة إلى تصوير لذاذة العيش في كنف الممدوح ، حيث البلدة قطربلية ، والدنيا دائما ربيعية بما يوحى بفترات الأمن التي كان ينعم بها المجتمع الأندلسي عهد الطوائف في وقت السلم .

وإذا كان هذا هو العيش في كنف الممدوح كما صوّره البرْجي فإنّ سماح المعتصم بن صُمادح وإقدامه ، وحلمه ، وعفّته ، ومساعيه الحميدة جعلت الشاعر ابن الحدّاد يعرّج به عاليا في السماء حيث أخفى نجم من بنات نعش الصغرى : [8]

مساعٍ أحلّتْكَ العُلا فكأنّها إلى حيْث السُّها ومعارِجُ

هذا إذا استمدّ صورته من السماء ونجومها البعيدة، أمّا إذا نزل إلى الأرض وسيوفها البتّارة ومعادنها الثمينة، فابن الحدّاد يصوّر المعتصم بأنّه: [9]

تَلألأَ كالإفْرنْدِ في صارمِ النُّهى وكُرّر كالإبريزِ في جاحمِ الوقْدِ

كانت هذه الصور القائمة على التشبيه فيما يخصّ جمال الممدوح الخَلْقي ، أمّا فيما يخصّ جماله الخُلقي فهناك صور عديدة رسمها شعراء الطوائف لممدوحيهم أيضا وعلى رأسها فضيلة الكرم كما رأينا ، فقد تفنّنوا " في صوغها وعرضها في عدّة هيئات مختلفة حتّى يكسوها ثوب الجدّة والطرافة ، مثلما صاغه ابن زيدون في مدح

7) الذخيرة ، 4/1 : 218
8) نفسه ، 2/1 : 721
9) نفسه : 720

أبي الوليد بن جهور ، منوّها بالنعم التي تلقّاها في كنفه ، ومشبّها نفسه بغرس ينبت في ثرى العلياء ترويه أعطية الممدوح حتّى إذا بطُؤت عنه أدركه الذبول والنسيان ، يقول:

أنـــا غـــرْسٌ في ثـــرى العـــلياءِ لوْ أبْـــطأتْ سُقْيـــاكَ عنْـــهُ لذبلْ "[10]

والصورة هنا قائمة على التشبيه والاستعارة معا تستمدّ عناصرها من الطبيعة، فقد تخيّل الشاعر نفسه غرسا في ثرى العلياء مستطيبا هذه الاستعارة على سبيل الافتخار، وأنّ كرم الممدوح هو ذاك الماء الذي يسقيه ليحيى وينتعش.

ويحاول الدكتور أشرف محمود نجا ضرب عدّة أمثلة في هذا المجال زاعما أنّها تحتوي على صور تتّسم بالجدّة والطرافة مثل قول إدريس بن اليمان العبدري يصف الجود بأنّه معنى عسير معضل ، سرعان ما تصدّى له ممدوحه ابن أبي موسى بأياديه البيضاء ، وكثرة سخائه ، وجميل عطائه ؛ فكشف معضله ، وفكّ معمّاه ، يقول: [11]

لقـــدْ كانَ معْنى الجودِ عُمِّيَ فاثْبرى لـــه ابْـــنُ أبي مـــوسى ففكَّ مُعمّاهُ

ولعلّ جدّية الصورة في هذا المقال أنّها مستمدّة من الحياة الثقافية فيما كان يدور بين الشعراء والمثقّفين من فكّ المعمّى وإعمال الفكر للوصول إلى المعاني المغلقة أو البعيدة العميقة.

و على منوال ذلك " قول ابن عمّار في مدح المعتضد عبّاد مشبّها الجود بمعنى جدّ عسير يجهل كنهه حتّى إذا ما حلّ بكنف الممدوح، وظفر بفضله وكرمه تبيّن ماهية الجود وأدرك معناه وقرأه مفسّرا في راحتيه المبسوطتين :

وجـــهلْتُ معْنى الجودِ حتّى زُرتُهُ فقرأْتُـــه في راحتـــيْه مُفسَّرا "[12]

10) قصيدة المديح في الأندلس. .، ص202، و203.
11) نفســـــه، ص.203.
12) نفســـــه، ص.203.

وكذلك هذه الصورة القائمة على التشبيه التي تستمدّ عناصرها من الحياة الاجتماعية والتي يشبّه فيها ابن اللبّانة يمين ممدوحه حينما تلقى سائليه وقاصديه مانحة في شوق وارتياح بقلب عاشق ولهان مشتاق إلى لقاء الأحبّة ، إذ يقول :(13)

يَـلْقَـى العُـفـاةُ يمـينَهُ وكـأنّها قـلْبٌ إلى لُـقْيا الأحـبّةِ شيّقُ

و " كما يشيد عمر بن الشهيد في صورة أكثر طرافة بجود ممدوحه المعتصم بن صمادح الذي شمل الورى كافّة حتّى خال الأرض جمعاء راحة يده المبسوطة ، وبحور الأرض مجتمعة هي أناملها الخمس التي تشتمل عليها ، يقول :

جـوادٌ كـأنّ الأرْضَ جمْعـاء راحةٌ لـهُ وبحورُ الأرْضِ خمسُ أناملِ "(14)

ويسوق الدكتور أشرف صورة أخرى لحسّان بن المصيصي حين يمدح خلال قوم ممدوحه المعتمد بن عبّاد ، ويشبّه نداهم الذي يجلون به ليل الفقراء ، ويبدّدون همومهم وشظف عيشهم بالكحل الذي يشفي العين ويجلو ما بها من غشاوة ، إذ يقول :

وكـمْ جَلَوْا بالندى مِنْ ليْلِ مفْتقِرٍ كـأنّهُ دمْـعةٌ في جـفْنِ مُـكْتحِلِ

ألا وإنّ " وجه الشبه في هذه الصورة منتزع من عدّة أمور يجمع بعضها إلى بعض كما تكشف الصورة في الوقت نفسه عن مدى الفاعلية النفسية للمشبّه به لأنّ الاكتحال مداواة للعين وجلاء لها من كلّ داء يعتريها ، كما كان ندى الممدوح دواء لأدواء الفقراء وجلاء للبؤس والحرمان "(15)

ويضرب مثالا آخر على هذه الصور الطريفة بتنويه ابن عمّار ببعض صفات ممدوحه في حالي السلم والحرب ، مشبّها نواله الغضّ وعطاءه الخصب بعذار أخضر

13) قصيدة المديح في الأندلس . . ، ص.203.
14) نفسـه، ص.204.
15) نفسـه،ص.204.

على صفحة الخدّ ، كما شبّه فتكة سيفه الخاطفة الباترة " التي بدت - كما لو كانت تقطع على استحياء - بصفحة خدّ حيي خجل ، يقول :

نــوالٌ كــما اخــضرّ العذارُ وفتْكةٌ كــما خَجلتْ منْ دونهِ صفْحةُ الخدِّ

ولعلّنا نلحظ أنّ انصراف ذهن الشاعر و وكده إلى الإطراف والإغراب في الصورة قد أضعفها لأنّه ليست ثمّة مشابهة بين النوال واخضرار العذار أو بين فتكة السيف القويّة والتفاتة الخدّ الحيية الرقيقة "[16] ، لكنّ الشاعر هكذا طاب له تصوير ممدوحه ، ولعلّ هذا ما يعبّر عنه بتحطيم العالم الخارجي في سبيل إرضاء العالم الداخلي كما تبادر إلى خيال الشاعر.وقد تكون ثَمّ مشابهة ما ممّا لا يستدعي مجالا لكلّ ذلك.

ويرى أنه " على النقيض من ذلك نجد ابن اللبّانة يصوغ صورة طريفة تتجاوز البعد المكاني المقيس لتجلو إحساسه إزاء ممدوحه ، يقول :

كــأنّ لــدى هَــيْبَاتِــهِ وهِبَــاتِــهِ جَــنى جنّــةٍ محْــفوفــةٍ بــجهنّمِ

إذ يتصوّر ممدوحه حين يَهب من فضله ويُهاب لشدّته بجنى جنّة قد حُفّت بجهنم ، ولعلّنا نلحظ هنا أنّ المشبّه به يجلو الفاعلية المعنوية للصورة فالممدوح تارة (جنى جنة) لإحساس الشاعر قباله بكرمه الغزير وخيره الوفير إذا رضي ورغب ، وتارة أخرى الممدوح (جهنّم) لإحساس الشاعر إزاءه بشدّة عذابه وبشاعة عقابه إذا غضب وثار ، بالإضافة إلى تعانق الموسيقى مع المعنى من خلال الجناس الناقص بين (هيباته - هباته) ، والمفارقة بين (جنّة - جهنّم) إذ ساعد ذلك على تنمية الإحساس بجدّة الصورة وطرافتها "[17].

وهذا ما لاحظه كذلك على قول ابن اللبّانة نفسه :[18]

---

16) قصيدة المديح في الأندلس . . ، ص.205.

17) نفســـه، ص.205.

18) شعر ابن اللبانة الداني، ص.96. * الصيلم: الداهية تستأصل ما تصيب.

ويا لـــكَ منْ نَهْـــرٍ صَـــؤولٍ مُجلْجِلٍ كأنّ الـــثرى مُزْنٌ بـــهِ دائمُ الرعْدِ
إذا صـــافحتْهُ الريـــحُ تَصْقُـــلُ متْنَه وتَصْنَـــعُ فيه صُنْعَ داودَ في السرْدِ
كـــأنّ يـــدَ المـــلْكِ ابْـــن مـــعْنٍ محمّدٍ تُفجّـــرهُ منْ مَنْـــبعِ الجودِ والرفْدِ

فصورة هذا النهر الجاري الفيّاض الذي كأنّ ثراه مزن دائم الرعد وصورة الريح وهي تصقل متنه صانعة منه دروع داود عليه السلام المسرّدة ، ثم منبع هذا النهر الذي تفجّر من جود الممدوح وكرمه ، وهو ما هدف الشاعر إلى الوصول إليه من كلّ هذا ، وهي صورة كلّية تستمدّ عناصرها من الطبيعة ، والبيئة الحربية وثقافة الشاعر الدينية ، بحيث تمثّلك الشاعر قوله تعالى : {وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾} [سبأ/10،11]

والشاعر الأندلسي في عهد الطوائف لم يكن بدعا من الشعراء الذين كانوا يولّدون من المعاني القديمة صورا يضفون عليها طابعهم الخاصّ بهم ، ويضيفون إليها من إبداعهم فتبدو مبتكرة . وهذا ما أشار إليه ابن طباطبا عند حديثه عن شعر المولّدين ، مشبّها توليدهم المعاني بسبيكة " مفرغة من جميع الأصناف التي تخرجها المعادن ، وكما قد اغترف من واد قد أمدّته بسيول جارية من شعاب مختلفة ، وكطيب تركّب من أخلاط من الطيب كثيرة ، فيستغرب عيانه* ، ويغمض مستبطنه* ".(29)

ومن الصور الأخرى الطريفة-كما يقول الدكتور أشرف-التي حظيت باهتمام الشاعر الأندلسي في عهد الطوائف - كما مرّ بنا - وألحّ في طلبها صورة

29) عيار الشعر، تح/عبّاس عبد الساتر، دار الكتب العلميـــة، بـــيروت، 1982، ص.16 * عيانـــه: ظـــاهره، *مستبطنه: خفيه.

الممدوح القائد الشجاع في ساحة القتال الذي دار أغلبه فيما بين هؤلاء الملوك " وما يتّصل (بهذه الصورة) من وصف للحرب وأدواتها ومراكب الغزو والتحام الجيوش وفتح المدن ، وتحقيق النصر والإشادة بالممدوح ومنزلته، وارتقاء مدارج المجد والسيادة على يديه وممّا يوضّح ذلك قول إدريس بن اليمان العبدري واصفا شجاعة ممدوحه وقد انبرى يسدّد قناة رمحه، ويلويه ليّا في نحر كلّ فارس مدجّج من أعدائه ، كما يلوى السوار ويبرم ، يقول :

يَــلْوي القنــا في نحْــرِ كلِّ مُدجَّجٍ ليّــاً كما فَتــلَ السوارَ الفاتلُ "(30)

ولعلّ الطرافة في هذه الصورة ناتجة من انتزاع وجه الشبه من بين "ليّ القنا وفتل السوار"، فالأوّل حديد صلب حادّ والثاني ذهب ناعم برّاق، فكان أن ألّف الشاعر بين المختلف بين " الليّ " و"الفتل".

كما يصف هذا الشاعر شجاعة هذا الممدوح وشدّة بأسه في أرض المعركة " وهو يمتطي ظهور الخيل ويقودها فيشبّه الجياد الكثيرة التي يروح ويغدو بها ببحر تتردّد أمواجه، وأكباد العدوّ التي يحصدها رجاله بسيوفهم هي ساحل هذا البحر ويابسه ، يقول :

ســارٍ وغــادٍ بالجيــادِ كــأنّهــا لُجــجٌ وأكْبــادُ العُــداةِ سواحلُ "(31)

ولعلّ الطرافة في هذه الصورة تنبع من غرابتها حين جمعت بين أكباد العداة وسواحل البحار: إذ كيف يمكن تصوّر كبد في جوف فارس بساحل بحر لجيّ ؟!

ويرى الدكتور أشرف أنّ ابن عبدون يسوق صورة أكثر طرافة حين ينوّه بشجاعة ممدوحه في ميدان القتــال مشبّها أعداءه بالذنوب المقترفــة ، وسيفه البــاتر

30) قصيدة المديح في الأندلس . . ، ص.209.

31) نفســـه، ص.209.

كـــأنّ تـــواقيعَ الرضـــا بعْد سُخْطهِ مَـــواقعُ مُـــزْنٍ في عـــواقبِ صَيْلَمِ*

إذ شبّه انعكاس الرضا على نفس الممدوح، بعد سخط انتابه ومدى أثر ذلك على من يقصده سائلا بذله وعطاءه، بأثر المزن الساقط عقب داهية ملمّة تستأصل ما تصيب. وهي صورة مستمدّة من رضا الطبيعة وغضبها كذلك .

ويرى أنّ الرقّة والطرافة قد بلغت أقصى مدى لها عند ابن حصن الإشبيلي عندما نوّه ضمنيّا بكرم ممدوحه ، متخيّلا عيشه الغضّ في رحاب هذا الممدوح رداء عروس مرقرق بالعبير والطيب إذ يقول : (19)

ورقّـــتْ حـــواشي الدهرِ حتّى كأنّهُ رداءُ عَـــروسٍ بـــالـــعبيرِ مُـــرقْرَقُ

وقد ذهب "عبد القاهر الجرجاني" " إلى أنّ التقاط وجه الشبه بين مشبّهين متباعدين مختلفي الجنس في الصورة التشبيهية يوفّر لها عنصر الابتكار والغرابة ، كما عدّ الجرجاني ذلك من ملامح الحسن واللطف في الصورة ، إذ يقول : " إنّ لتصوّر الشبه من الشيء في غير جنسه ، والتقاط ذلك له من غير محلّته..بابا آخر من الظرف واللطف ، ومذهبا من مذاهب الإحسان لا يخفى موضعه على العقل "(20) معلّلا لذلك تعليلا نفسيا حين يضيف قائلا : " وهكذا إذا استقريت التشبيهات وجدت التباعد بين الشيئين كلّما كان أشدّ ، كانت إلى النفوس أعجب ، وكانت النفوس لها أطرب وكان مكانها إلى أن تحدث الأريحية أقرب ، وذلك لأنّ موضع الاستحسان ، ومكان الاستظراف والمثير للدفين من الارتياح ، والمتألّف للنافر من المسرّة ، والمؤلّف لأطراف البهجة أنّك ترى بها الشيئين مثلين متباينين ومؤتلفين مختلفين ، وترى **الصورة** الواحدة في السماء والأرض ، وفي خلقة الإنسان وخلال الروض " .(21)

---

19) الذخيرة 1/2 : 179.

20) أسرار البلاغة، ص.108، وقصيدة المديح في الأندلس، ص.206.

21) نفســـــه، ص.109 وقصيدة المديح في الأندلس، ص.206 و207.

كـــأنّ تـــواقيعَ الرضـــا بعْد سُخْطهِ مَـــواقعُ مُـــزْنٍ في عـــواقبِ صَيْلَمِ*

إذ شبّه انعكاس الرضا على نفس الممدوح، بعد سخط انتابه ومدى أثر ذلك على من يقصده سائلا بذله وعطاءه، بأثر المزن الساقط عقب داهية ملمّة تستأصل ما تصيب. وهي صورة مستمدّة من رضا الطبيعة وغضبها كذلك .

ويرى أنّ الرقّة والطرافة قد بلغت أقصى مدى لها عند ابن حصن الإشبيلي عندما نوّه ضمنيّا بكرم ممدوحه ، متخيّلا عيشه الغضّ في رحاب هذا الممدوح رداء عروس مرقرق بالعبير والطيب إذ يقول : (19)

ورقّـــتْ حـــواشي الدهرِ حتّى كأنّهُ رداءُ عَـــروسٍ بـــالـــعبيرِ مُـــرقْرَقُ

وقد ذهب "عبد القاهر الجرجاني" " إلى أنّ التقاط وجه الشبه بين مشبّهين متباعدين مختلفي الجنس في الصورة التشبيهية يوفّر لها عنصر الابتكار والغرابة ، كما عدّ الجرجاني ذلك من ملامح الحسن واللطف في الصورة ، إذ يقول : " إنّ لتصوّر الشبه من الشيء في غير جنسه ، والتقاط ذلك له من غير محلّته..بابا آخر من الظرف واللطف ، ومذهبا من مذاهب الإحسان لا يخفى موضعه على العقل "(20) معلّلا لذلك تعليلا نفسيا حين يضيف قائلا : " وهكذا إذا استقريت التشبيهات وجدت التباعد بين الشيئين كلّما كان أشدّ ، كانت إلى النفوس أعجب ، وكانت النفوس لها أطرب وكان مكانها إلى أن تحدث الأريحية أقرب ، وذلك لأنّ موضع الاستحسان ، ومكان الاستظراف والمثير للدفين من الارتياح ، والمتألّف للنافر من المسرّة ، والمؤلّف لأطراف البهجة أنّك ترى بها الشيئين مثلين متباينين ومؤتلفين مختلفين ، وترى الصورة الواحدة في السماء والأرض ، وفي خلقة الإنسان وخلال الروض " .(21)

---

19) الذخيرة 1/2 : 179.

20) أسرار البلاغة، ص.108، وقصيدة المديح في الأندلس، ص.206.

21) نفســـــه، ص.109 وقصيدة المديح في الأندلس، ص.206 و207.

وحتّى هذه الصورة التي يشيد فيها ابن اللبّانة بآلاء ممدوحه والتي تبدو عليها آثار القديم واضحة في قوله :

آلاؤهُ بالبشرِ ممزوجةٌ مزجَ الحميّا بالزلالِ القراحْ [22]

يذهب الدكتور أشرف إلى أنها مبتكرة قائلا : " وقد يبدو للوهلة الأولى أنّ هذه الصورة ليست مبتكرة لأنّ اقتران العطاء بالبشر لدى الممدوح صورة تداولها الشعراء عند مدح الكرم والتفاني في البذل كما أنّ مزج الحميّا بالماء صورة قديمة متكرّرة في خمريات الشعراء ويستخدمونها في مواضع أخرى إذا أرادوا التعبير عن الائتلاف والامتزاج بين شيئين ، ولكنّ الجدّة والطرافة في البيت تأتي من تفاعل الصورتين وائتلافهما معا في صورة مفردة من خلال إعادة تنسيق مفرداتهما وفق إحساس الشاعر وحركته النفسية ".[23] ويردّ ذلك إلى ما أطلق عليه "أرشيبالد مكليش" (تزاوج الصور) بحيث " إنّ الصورة الواحدة ترسم وتوطّد بالكلمات التي تجعلها حسّية وجليّة للعين أو للأذن أو اللمس لأيّ من الأحاسيس ، ثم توضع صورة أخرى قربها ، فينبلج معنى ليس هو معنى الصورة الواحدة منها ولا هو معنى الصورة الثانية ، ولا حتّى مجموع المعنيين معا ، بل هو نتيجة لهما ، نتيجة للمعنيين في اتّصالهما، وفي علاقتهما الواحد بالآخر ". [24]ويبدو أنّ الصورة الممثّل بها لا تحتمل كلّ هذا ،كما أنّها قد لا يستسيغها إلاّ عشّاق الخمر ومعاقروها . وإن كان الدكتور سعد إسماعيل شلبي يذهب إلى " أنّ تشابه الفكرة بين شاعر وشاعر لا ينافي أصالة كلّ منهما دائما، فقد يرجع السبب في ذلك إلى تشابه الموضوع أو توارد الخواطر ، فضلا عن أنّ اللغة بأفكارها ومجازاتها لا إقطاع فيها ، فهي ملك للناطقين بها على السواء، وليس لأحد أن يضع أفكاره في إطار يردّ الأدباء عنه ، أو يخترع صورة ثمّ يقيم النقّاد

---

22) شعر ابن اللبانة الداني، ص.31.

23) قصيدة المديح في الأندلس، ص. 207 و208

24) الشعر والتجربة، ص.77. ترجمة سلمى الجيوسي.

من أنفسهم حرّاسا عليها ، ويعيبون من دنا منها ، . . [فهناك] ثروة لغوية تستهوي الأدباء فيقبلون عليها ، ويتمثّلونها حتّى تصبح جزءا من نفوسهم ، ولبنة من كيانهم الأدبي ، حتّى إذا جاء دورهم في النتاج تأثّروا بما ورثوا . . وعندئذ لا يتنافى الإنفاق من هذا الرصيد مع ما نعنيه بالأصالة الأدبيّة. وشعراء عصر الطوائف ، بل كثير من شعراء الأندلس بحكم انتمائهم إلى العربية . . يتشابهون مع أقرانهم من شعراء المشرق ، وهنا يحكم عليهم كثير من النقّاد بأنّهم عالة على المشارقة .* ولكنّهم في حقيقة الأمر يصوّرون طبعهم الأصيل في صدق وأمانة، ولو فعلوا غير ذلك لجاء أدبهم ممسوخا دون صدق أو أصالة "[25].ويدعّم ما ذهب إليه بقول أستاذه الدكتور حامد عبد القادر إذ يقول: " إنّ ينابيع الصور التي يستعملها الشاعر في أسلوبه ترجع إلى مشاهداته وتجاربه الخاصّة أو إلى النقل عن غيره .. وقد يكون الشاعر ممتازا بالقدرة على تركيب الصور القديمة ، والتأليف بينها تأليفا جديدا لتكون صورة مبتكرة جديدة"[26]، ممّا قد يكون سندا لما رآه الدكتور أشرف في تلك الصورة . ومسألة التقليد والتجديد في الشعر الأندلسي بعامّة وعصر الطوائف بخاصّة ، تحتاج إلى وقفة متأنّية ودراسة مستقلّة .

وتجدر الإشارة إلى أنّ بعض ملوك الطوائف كانوا يعقدون المجالس الشعرية، ويخلقون جوّ التنافس بين شعرائهم للإتيان بالصور الجملية والمعاني المبتكرة ، ومن ذلك ما أورده المقري من أنّ المعتصم بن صُمادح ملك المريّة لما أنشده عمر بن الشهيد " قصيدته التي يقول فيها :

سَبْطُ البَنانِ كأنّ كلّ غمامةٍ قدْ رُكّبتْ في راحتيْه أنامِلا

---

25) دراسات أدبية في الشعر الأندلسي ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، الفجالة- القاهرة ، ص62و63. * ينظر ظهر الإسلام، أحمد أمين، دار الكتاب العربي بيروت ط5 1953، 230/3، و الفنّ ومذاهبه في الشعر العربي، د/ شوقي ضيف، دار المعارف، ط4 ، 1960، ص 412. و مع شعراء الأندلس والمتنبي ، إميليو غرسية غومث، دار المعارف،ط2 ،ص58 و .la poésie andalouse en arabe classique au XI P40

26) دراسات في علم النفس الأدبي ، المطبعة النموذجية ، 1954 ، ص167 ، ودراسات أدبية في الشعر الأندلسي ، ص63.

لا عـيْشَ إلاّ حـيْثُ كـنْتَ وإنّـما تمْضـي لـيالي العُمْرِ بعْدَكَ باطلا

التفت إلى من حضر من الشعراء وقال : هل فيكم من يحسن أن يجلب القلوب بمثل هذا ؟ فقال أحمد بن الجزّار البطرني : نعم ولكن للسعادة هبّات، وقد أنشدت مولانا قبل هذا أبياتا أقول فيها :

وما زلْت أجْني منكَ والدهْـرُ ممْحِلٌ ولا ثـمرٌ يُجْنى ولا الزرْعُ يُحْصدُ

ثمـارَ أيـادٍ دانيـاتٍ قُـطوفُـها لأغْصـانها ظـلٌّ عليَّ مُمـدّد

يُـرى جـارياً ماءُ الـمكارمِ تحْتها وأطْيـارُ شكْـري فوْقهـنَّ تُغرّد

فارتاح المعتصم وقال : أأنت أنشدتني هذا ؟ قال نعم ، قال: والله كأنّها ما مرّت بسمعي إلى الآن . صدقت للسعد هبّات ، ونحن نجيزك عليها بجائزتين : الأولى لها والثانية لمطل راجيها وغمط إحسانها ".[27]

فصورة عمر بن الشهيد التي جلبت قلب المعتصم قائمة على التشبيه ، أمّا الصورة الثانية لابن الجزّار والتي حصلت على جائزتين من هذا الملك فهي صورة قائمة على الاستعارة ومبنيّة على عدّة صور جزئية تؤلّف في مجموعها الصورة الكاملة لإحساس الشاعر تجاه ممدوحه . وهي صورة جميلة تستمدّ عناصرها من الطبيعة ، ثمارها وزرعها وأغصانها وأطيارها ، ومن الدهر في أيّامه الممحلة المجدبة المسغبة للدّلالة على مدى سخاء الممدوح وكرمه ؛ وأجمل ما فيها نظر الشاعر فيها إلى قوله جلّ وعلا:"أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ"(البلد/14-16)

وقد مرّت بنا صورة من هذا القبيل منتزعة من عدّة صور تصوّر جود المعتصم ورفده ، وهي لابن الحدّاد قال فيها :[28]

---

27) نفح الطيب 413/3، * الممحل: من أصابه المحل أي الجدب، فهو مجدب.

28) الذخيرة ،2/1 :719

ويا لـــكَ منْ نَهْـــرٍ صَـــؤولٍ مُجلْجِلٍ كأنّ الـــثرى مُزْنٌ بـــهِ دائمُ الرعْدِ
إذا صـــافحتْهُ الريـــحُ تَصْقُـــلُ متْنَه وتَصْنَـــعُ فيه صُنْعَ داودَ في السرْدِ
كـــأنّ يـــدَ المـــلْكِ ابْـــن مـــعْنٍ محمّدٍ تُفجّـــرهُ منْ مَنْـــبعِ الجودِ والرفْدِ

فصورة هذا النهر الجاري الفيّاض الذي كأنّ ثراه مزن دائم الرعد وصورة الريح وهي تصقل متنه صانعة منه دروع داود عليه السلام المسرّدة ، ثم منبع هذا النهر الذي تفجّر من جود الممدوح وكرمه ، وهو ما هدف الشاعر إلى الوصول إليه من كلّ هذا ، وهي صورة كلّية تستمدّ عناصرها من الطبيعة ، والبيئة الحربية وثقافة الشاعر الدينية ، بحيث تملّك الشاعر قوله تعالى : {وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ } [سبأ/10،11]

والشاعر الأندلسي في عهد الطوائف لم يكن بدعا من الشعراء الذين كانوا يولّدون من المعاني القديمة صورا يضفون عليها طابعهم الخاصّ بهم ، ويضيفون إليها من إبداعهم فتبدو مبتكرة . وهذا ما أشار إليه ابن طباطبا عند حديثه عن شعر المولّدين ، مشبّها توليدهم المعاني بسبيكة " مفرغة من جميع الأصناف التي تخرجها المعادن ، وكما قد اغترف من واد قد أمدّته بسيول جارية من شعاب مختلفة ، وكطيب تركّب من أخلاط من الطيب كثيرة ، فيستغرب عيانه* ، ويغمض مستبطنه* ".[29]

ومن الصور الأخرى الطريفة-كما يقول الدكتور أشرف-التي حظيت باهتمام الشاعر الأندلسي في عهد الطوائف - كما مرّ بنا - وألحّ في طلبها صورة

29) عيار الشعر، تح/عبّاس عبد الساتر، دار الكتب العلميـــة، بـــيروت، 1982، ص.16 * عيانـــه: ظـــاهره، *مستبطنه: خفيه.

الممدوح القائد الشجاع في ساحة القتال الذي دار أغلبه فيما بين هؤلاء الملوك " وما يتّصل (بهذه الصورة) من وصف للحرب وأدواتها ومراكب الغزو والتحام الجيوش وفتح المدن ، وتحقيق النصر والإشادة بالممدوح ومنزلته، وارتقاء مدارج المجد والسيادة على يديه وممّا يوضّح ذلك قول إدريس بن اليمان العبدري واصفا شجاعة ممدوحه وقد انبرى يسدّد قناة رمحه، ويلويه ليّا في نحر كلّ فارس مدجّج من أعدائه ، كما يلوى السوار ويبرم ، يقول :

يَــلْوي القنــا في نحْــرِ كلِّ مُدجَّجٍ ليّــاً كما فَتــلَ السوارَ الفاتلُ "(30)

ولعلّ الطرافة في هذه الصورة ناتجة من انتزاع وجه الشبه من بين "ليّ القنا وفتل السوار"، فالأوّل حديد صلب حادّ والثاني ذهب ناعم برّاق، فكان أن ألّف الشاعر بين المختلف بين " الليّ " و"الفتل".

كما يصف هذا الشاعر شجاعة هذا الممدوح وشدّة بأسه في أرض المعركة " وهو يمتطي ظهور الخيل ويقودها فيشبّه الجياد الكثيرة التي يروح ويغدو بها ببحر تتردّد أمواجه، وأكباد العدوّ التي يحصدها رجاله بسيوفهم هي ساحل هذا البحر ويابسه ، يقول :

ســارٍ وغــادٍ بالجيــادِ كــأنّهــا لُجــجٌ وأكْبــادُ العُــداةِ سواحلُ "(31)

ولعلّ الطرافة في هذه الصورة تنبع من غرابتها حين جمعت بين أكباد العداة وسواحل البحار: إذ كيف يمكن تصوّر كبد في جوف فارس بساحل بحر لجيّ ؟!

ويرى الدكتور أشرف أنّ ابن عبدون يسوق صورة أكثر طرافة حين ينوّه بشجاعة ممدوحه في ميدان القتــال مشبّها أعداءه بالذنوب المقترفــة ، وسيفه البــاتر

30) قصيدة المديح في الأندلس . . ، ص.209.

31) نفســـه، ص.209.

بالدعاء المستجاب الذي يمحوها ويطوي صفحتها ، إذ يقول :[32]

كـأنَّ عُـداهُ في الهـيْجـا ذُنـوبٌ وصـارمُـهُ دُعـاءٌ مُـسْتجـابُ

ومن هذا التشبيه المحسوس بالمجرّد يبدو أنّ الشاعر يتضرّع إلى الله ليستجيب لدعائه ، وينصر ممدوحه على أعدائه ، فكان أن أخرج دعاءه على هذا الشكل.

وعلى هذا المنوال يورد قول ابن الحدّاد في مدح المعتصم بن صُمادح مشيدا بانتصاره على خصومه على هذه الصورة :

وهامُهمْ في الجذوعِ الشُّمِّ* ضاحيةٌ * كـأنّها بَقَـعُ الغِرْبـانِ والـرَّخَمُ

.. وقدْ تُـلِمُّ بهـا الغـرْبـانُ واقِـعةً كـأنّها فوْقَ محْـلوقـاتِها لِـمَمُ

إذ شبّه " هام أعاديه المصلوبين في الجذوع الشمّ بالغربان والرخم البقع ، أي المختلطة السواد بالبياض ، ثم يثنّي بتشبيه غريب طريف آخر فيتخيّل الغربان السود.. حين تقع فوق رؤوس القتلى المحلوقة خصلات من الشعر ".[33]

وقد مرّ بنا كذلك تشبيه ابن الحدّاد لخصوم ممدوحه بالغربان في قوله :[34]

كـأنّـهمُ فـيهـا غرابيـبُ وُقّـعٌ على بـاسقاتٍ لا تروحُ ولا تغْدو

وقد أشار ابن بسّام إلى أنّه أخذ معناه من هذا البيت الأخير من قول ابن شهيد يصف وقعة المعتلي بالله يحيى بن عليّ بن حمّود على السودان بإشبيلية ، لمّا قال :[35]

---

32) ديوان ابن عبدون، ص. 107، وينظر قصيدة المديح في الأندلس، ص210.

33) قصيدة المديح في الأندلس، ص.210، * شم البناء أو الجبل: ارتفع أعلاه، * الضاحية من النخل ونحوها: ما كان خارج الصور، والناحية الظاهرة خارج البلد (المعجم الوسيط 495/1 و 535).

34) شعر ابن الحدّاد، ص.53.

35) الذخيرة 1/1 : 313 *1 اليقق: القطن أو الأبيض الناصع.

أجريْتَ للــزَّنْجِ فــوْق النهْرِ نهْــرَ دمٍ حتىَ اسْتحــالَ سمــاءً جُلّلتْ شَفَقا
..منْ كلّ أسْــودَ لمْ يُــدْلِفْ على ثلَجٍ بأنّ جــدّكَ يجْــلو صفْحَهُ يَقَقا[1]*
كــأنّ هــامتَه والــرمْحُ يحْــمِلُــها غرابُ بيْــنٍ على بــانِ النقا نَعَقا

وأنّ قوله في وصف غلبة المعتصم على وادي آش : [36]

هُو الجــاعلُ الهيْجــا حشًا وسِنانَهُ هوًى فهْــوَ لا يعْدو قلوبَ كُماتِها[2]*

ذهب بمعناه إلى قول أبي الطيّب المتنبي :[37]

كــأنّ الهــامَ في الهيْجــا عيــونٌ وقــدْ طُبِعتْ سُيوفُكَ منْ رُقادِ
وقــدْ صُــغْتَ الأسنّــةَ منْ هُمــومٍ فــما يخْــطرْن إلاّ في فــؤادِ

ويستطيع الدارس أن يلاحظ مع الدكتور أشرف أنّ شعراء الطوائف قد التقطوا فكرة البكارة والعذريّة وأداروها في مدائحهم ، وصاغوا منها صورا عدّة مبتكرة " فالحصري القيرواني يمدح المقتدر بالله أحمد بن سليمان بن هود ، مشبّها البلاد التي يغزوها هذا الممدوح بفتيات عذارى يُنكحن بعد إمهارهنّ بالسيوف الحادّة الباترة ، يقول :

كــذا تــفْتضُّ أبْــكــارَ البــلادِ ولا مَهْرٌ سوى البيضِ الحِدادِ "[38]

والصورة هنا استعارية ، قائمة على إسناد الأبكار إلى البلاد ، وإسناد المهر إلى البيض الحداد .

---

36) الذخيرة 2/1 : 714 *2 الكماة: م/كام وهو الفارس المتدرع.
37) نفســـه 2/1: 715 وينظر ديوان المتنبي درا صادر 1958، ص. 86.
38) قصيدة المديح في الأندلس . . ، ص. 211

ومن هذا القبيل تهنئة " ابن عمّار ممدوحه المعتضد بن عبّاد بانتصاراته وفتوحاته مصوّرا المدن التي دكّ حصونها وافتتحها بعذارى حسان تزوّجها بعد أن أمهرها نقدا بحتف أعاديه ، يقول :

هنيئاً ببِكْرٍ في الفتوحِ نَكحْتَها وما قبضْتَ غيرَ المنيّةِ في النقْدِ "[39]

وشبيه بهذا قول ابن حمديس : [40]

تُمهِرُ أرواحَ العِدى بَيْضُهُ إذا أرادتْ منْ حُروبٍ نِكاحْ

إذ يتصوّر الحرب امرأة تنكح ، بعدما تمهرها سيوف ممدوحه أرواح أعدائه.

وعلى ذكر مظاهر القوّة ، والعظمة ، وشدّة البأس ، والجيوش الجرّارة ، يستمدّ ابن زيدون صورة من الطبيعة وخاصّة في فصل الشتاء ، فيصوّر جيش ممدوحه بأنّه أكثف من الغيم انتشارا واكفهرارا ، وأنّ ممدوحه غيم يستمدّ برقه من أسنّة سيوفه اللامعة ، وقصف رعده من طبوله المدويّة في أرض المعركة ، فيقول : [41]

غدا بخميسٍ يُقْسِمُ الغيْمُ أنّهُ لأحْفَلُ منْها مُكفهِرّا وأكْثفُ

هوَ الغيْمُ منْ زُرْقِ الأسنّةِ برْقُهُ وللطبْلِ رعْدٌ في نواحيهِ يَقْصِفُ

ومن الطبيعة الجذّابة لأرض الأندلس الخلاّبة ، برياضها الأنيقة وجداولها المنسابة الرقراقة ينهل كذلك صوره إذا ما أراد تصوير سجايا ممدوحه الحميدة ، وعطاياه الفريدة : [42]

لديْه رياضٌ للسجايا أنيقةٌ تَغْلْغَلُ فيها للعطايا جَداولُ

39) السابق ، ص.211.

40) ديوان ابن حمديس، ص.91.

41) ديوان ابن زيدون، ص.108.

42) نفسه، ص.155.

ويعرج ابن اللبانة كذلك إلى السماء حين يريد تصوير ابتهاج الطبيعة بانتصار ممدوحه على أعدائه ومشاركتها له في فرحته بأعياده ، إذ يقول: [43]

فكأنّ نجْمَ المشْتَرى في سعْده والنيّرَيْنِ تَجمَّعتْ لقِرانِ

ثم ينظر إليها مجتمعة إذا ما أصابت ممدوحه مصيبة أو ألمّ به مكروه -كما مرّ بنا - فيصوّرها تشاركه مصابه، وتحزن لما دهاه ، فإذا الشمس والقمر يشكوان ، والريح لا عبيق لها، والظلّ في فصل الربيع مقلّص، والروض لا يندى له زهر، وتكاد الأرض بالرمضاء تستعر، وجفت الينابيع والأنهر ، وانقطع المطر ؛[44] وكلّها تعبّر عن إحساس الشاعر ، وما يختلج شعوره إزاء ممدوحه ، ناقلا إلينا انطباعه عنه في هذه الصورة الكليّة المتكوّنة من صور جزئية ، وهو ما أكسبها نوعا من الطرافة .

وإذا ما أحسّ الشاعر بأنّ صورته تتّسم بطابع القدم نفاها عن ممدوحه ليضفي عليها نوعا من الجدّة كقول ابن اللبّانة : [45]

كَرُمْتَ فلا بحْرٌ حَكاكَ ولا حيًا وفُتَّ فلا عُجْمٌ شأتْكَ ولا عُرْبُ

أو ينفيها عن غيره ويثبتها له في ما يمكن أن نطلق عليه اسم الصورة اللغوية لاعتمادها " على ألفاظ اللغة وأساليبها بعيدا عن التشبيه والاستعارة وسواهما ممّا يندرج ضمن التصوير بالمجاز "[46] كقول ابن الحدّاد:[47]

فخلٌّ ما قيلَ عنْ كعْبٍ وعنْ هَرِمٍ فلْلأقاويلِ مُنْهارٌ ومنْهَرأُ

وتلْك أنْباءُ غيْبٍ لا يقينَ بها وقلّما في التنائي يَصْدُقُ النبأ

---

43) شعر ابن اللبانة الداني، ص.101.

44) ينظر ، نفسه، ص. 47 و48.

45) نفسه، ص.20.

46) الاتّباع والابتداع في الشعر الأموي، ص.442.

47) شعر ابن الحدّاد، ص.34. * أهرأ الكلام، وفيه: أكثره و لم يصب (المعجم الوسيط، 980/2).

وما اختبارٌ كإخبارٍ وما ملكٌ إلاّ ابن معْنٍ وذرْ قوماً وما ذَرَأوا

ولعلّ إحساس الشاعر الأندلسي في عصر الطوائف بضيق مجال المعاني أمامه ، وبصعوبة الإتيان بمعان لم يُسبق إليها جعله يسلك هذا المسلك حتّى يُصبغ على مدحه نوعا من المصداقية ، أو يلجأ إلى الغرابة في معانيه وصوره ، حتّى تخرج عن إطار المحاكاة والتقليد . وهذا ما لاحظه ابن طباطبا قبل ذلك على شعراء عصره من القرن الثالث الهجري ، حينما قال : " والمحنة على شعراء زماننا في أشعارهم أشدّ منها على من كان قبلهم لأنهم قد سُبقوا إلى كلّ معنى بديع ، ولفظ فصيح ، وحيلة لطيفة ، وخلابة ساحرة . فإن أتوا بما يقصر عن معاني أولئك ، ولا يربي عليها لم يتلقّ بالقبول ، وكان كالمطّرح المملول.. والشعراء في عصرنا إنّما يثابون على ما يستحسن من لطيف ما يوردونه من أشعارهم وبديع ما يغربون من معانيهم دون حقائق ما يشتمل عليه من المدح ". (48)

ولا شكّ أنّ المحنة على شعراء عصر الطوائف أشدّ وأدهى ، فلجأوا هم كذلك بدورهم إلى الغرابة ليضفوا على صورهم نوعا من الجدّة أو الطرافة أو الابتكار ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، كما دلّت على ذلك بعض الأمثلة السابقة . " وإذا كانت معظم هذه الصور الغريبة التي أديرت في قصيدة المدح الأندلسية من وجهة نظر الفنّ ليس لها سند من عاطفة أو رصيد من انفعال يحقّقان لها الفاعلية النفسية ، فإنّه على النقيض من ذلك نجدها تعجب الذوق النقدي والجمالي في عصر الطوائف وترضيه.. ممّا يجعل مهمّة الشاعر الأندلسي آنذك لا تنحصر في التعبير عن القلب والعاطفة واللاشعور فحسب ، بل ينفسح فيها المجال للجهد العقلي والنشاط الواعي والمهارة في الصياغة اللغوية ، ومن ثم فإنّ الاقتصار على القلب أو العواطف لا يعين المتذوّق كثيرا على إدراك طبيعة الصورة وبيان أبعادها الجمالية " (49)، كما يتجلّى

48) عيار الشعر، ص.15.

49) قصيدة المديح في الأندلس . . ، ص.219.

ذلك في بعض الصور التي أوردناها في هذا المقام على المستوى التصويري أو كما قال الشاعر أبو حفص بن برد الأصغر :(50)

يا أيّها الـــملكُ الـــسامي بـــهمّـــتهِ إلى سمـــاءِ عُلا قدْ أعْيتِ الـــهِممـا
لوْلا طِلابي غريـــبَ المدْح فيـــك لمـــا وصفْتُ قبْل عُلاك السيْفَ والقلمَا

مما يفسح لنا المجال لتناولها على المستوى اللغوي، ومن ثمّ على المستوى الإيقاعي .

2ـ المستوى اللغوي:

كان شعراء الطوائف يتنافسون فيما بينهم لاحتلال المكانة السامية لدى ممدوحيهم ، ولذلك كانوا يعملون على إخراج قصائدهم في المدح على أحسن ما يكون حتّى ينالوا الحظوة لديهم ، ويجلبون قلوبهم بما لذّ وطاب من الكلام العذب ، متمكّنين من أدوات شعرهم . فهذا ابن الحدّاد يبيّن أنّه يعمل على تنقيح أشعاره في ممدوحه ، فيختار له من الكلم العليّ لآلئا ، يزيّن بها قصائده ، ويفخر بها على غيره ويتعاظم بها ممدوحه ، متوخّيا في ذلك الابتعاد في شعره عن كلّ ما من شأنه الإساءة إلى ممدوحه من سواقط الكلم ، والمعاني التي يدرك تمام الإدراك أنّها مقدح لا ممدح ، ولذلك كما جلّ ممدوحه تجلّ مدائحه ، يقول : (51)

والشـــعْرُ إنْ لمْ أعتقـــدْهُ شـــريعـــةً أُمْســـى إليْـــها بالحفـــاظِ وأُصْبحُ
فبســـحْرِهِ مهْمـــا دعـــوْتُ إجـــابةٌ ولفـــكْرِهِ مهْما اجْتليْـــتُ تَوضُّح
فـــاذْخرْ منَ الـــكَـــلِمِ العلـــيِّ لآلئا يبْـــأى*1 بها جيدُ العَلاءِ ويبجحُ*2
وارْبـــأْ بمجْـــدِكَ عـــنْ سواقطِ سقّطٍ هيَ في الحقيـــقةِ مَقْدحٌ لا ممْـــدح

50) الذخيرة 1/1 : 486 و528.

51) نفسه 2/1: 726،و شعر ابن الحدّاد، ص 48 و 49 *1 بأى يبأى: فخر وتعاظم، *2 بجح يبجح: فخر.

ونــظامُ ملْــكِكَ رائــقٌ متنــاسبٌ فــكمــا جللْــتمْ فــلْيجلّ المدْحُ

وهذه اللآلئ من الكلم العليّ، وما ينبثق عنها من نفائس المعاني ، ما كانت لتبرح أصدافها لولا علا الممدوح ومجده إذ يعمل فكر ابن الحدّاد على الغوص في بحر علمه بها ، واستخراجها إلى شاطئ إلمامه بعلوم اللغة العربية وآدابها ، يقول : (52)

ولــوْلا عُلا المــلْكِ ابْــنِ معْنٍ مُحمّدٍ لمــا بَــرحَتْ أصْــدافهُنَّ اللآلئُ

لآلــئُ إلاّ أنّ فكْــريَ غــائــصٌ وعلْمــيَ دأمــاءٌ ونطْقــيَ شاطئ

هو الحــبُّ لــمْ أُخرجْــهُ إلاّ لمجْدهِ ومثْلي لأعْلاقِ الــنفاسةِ خابئُ(53)

ويقول في قصيدة أخرى : (54)

فــلا تُنْــكروا مــنّي بــديعاً فمجْدُه نــوادرُ قــدْ أوحتْ إليّ النــوادِرا

وكان الشعراء يتبارون في قرض الشعر، ويتفنّنون في العمل على الإتيان بالنادر والطريف من معانيه وصوره وتخيّر لفظه ما أمكنهم ذلك، وكلّ واحد منهم يسعى جاهدا للحصول على رضا الممدوح وصلاته. والوصول إلى هذا المبتغى ليس بالأمر الهيّن ولاسيّما إذا كثر المتنافسون ، ولذلك كان هؤلاء الشعراء ينتقد بعضهم بعضا، وكلّ واحد منهم يرصد أخطاء الآخر، ويكشف عن عيوبه أو عيوب شعره ومواطن النقص فيه ليزيحه عن طريقه ، ويخلو له الجوّ بالممدوح لعرض بضاعته، فابن الحدّاد في همزيّته السابقة التي مدح بها المعتصم والتي مطلعها : (55)

لعلّــكَ بــالوادي المــقــدّسِ شاطئُ فكالعنْــبرِ الهنــديِّ ما أنــا واطئُ

---

52) الذخيرة: 2/1: 711.

53) هذا البيت سقط من الذخيرة وهو عن الإحاطة 179/2.

54) الذخيرة: 2/1 : 717

55) نفســه 709، ونفح الطيب 503/3 وخريدة القصر 2/4: 177

وهي قصيدة طويلة طنّانة - كما يقول ابن بسّام - إلاّ أنّه أُخذ عليه أنّه همز فيها ما لا يُهمز في قوله :

وآل الـــهوى جـــرْحى ولكنْ دماؤُهمْ دمـــوعُ هَـــوامٍ والـــجُروحُ مآقئُ

والصحيح هو مآقي من دون همز وهو هنا يرتكب الضرورة الشعرية ، وإلى ذلك يشير مشيدا بهمزيّته هذه رادّا على الهمّازين اللمّازين الذين أرادوا الإساءة إليه قبل شعره بقوله : (56)

عجبْتُ لغـــمّازيـــنَ عـــلْمي بجهْلِهمْ وإنّ قَنـــاتي لا تَـــلينُ على الغـــمْزِ
ولاحتْ لهـــمْ هـــمزيّـــةٌ أوْحـــــديّةٌ وويْلٌ بها ويْلٌ لذي الهمْزِ واللمْزِ
رمـــوْها بـــنقْصٍ بيّنَتْ فيه نَـــقْصَهمْ ومنْ لـــمسَ الأفْعى شكا ألَمَ النكْزِ*
وإنْ أنْـــكرتْ أفْـــهامُهمْ بعْضَ همْزِها فقدْ عَـــرفتْ أكبادُهمْ صحّةَ الهمْزِ

مما يدلّ على أنّ الشاعر كان على علم بما يرتكب من أخطاء للضرورة ، على غرار هذا الخطأ الإملائي ، في حين يتحرّى السلامة اللغوية ، واتّباع سنن العربيّة وقوانينها ما لم يُرخّص له بذلك .

وهذا ابن الحدّاد نفسه يكون لابن اللبّانة بالمرصاد ، لما أنشد هذا الشاعر المعتصم بن صُمادح كما يقول المقري " قصيدا أبرز به من عرى الإحسان ما لم ينفصم ، واستمرّ فيها يستكمل بدائعها وقوافيها ، فإذا هو أغار على قصيد ابن الحدّاد الذي أوّله :

عُـــجْ بالحـــمى حيْثُ الظبـــاءُ العـــينُ

فقال ابن الحدّاد مرتجلا : (57)

---

56) الذخيرة: 2/1: 711. * النكز: لسع الحيّة.
57) النفح: 49/4.

حاشا لعدْلكَ يا ابْــن معْــنٍ أنْ يُرى في سلْكِ غيْــري درّيَ الــمكْنونُ
وإليْــكَها تشْكو اسْتــلابَ مــطيِّها عُــجْ بالحــمى حيْثُ الظباءُ العينُ
فاحْــكمْ لها واقطعْ لســانًــا لا يدًا فــلسانُ منْ سرقَ القريــضَ يمينُ

وهي أبيات تدلّ على مدى متابعة الشعراء لبعضهم بعض ، ومراقبة تعابيرهم، ومحاولة الإنقاص من قيمة قصائدهم إذا ما طرأ عليها أيّ طارئ . وربّما يكون قد شقّ على ابن الحدّاد أن يسلبه ابن اللبّانة عطاء المعتصم الذي ربّما يكون من نصيبه ، ولذلك نجده يطلب منه إقامة الحدّ عليه وذلك بقطع لسانه لا يده ، وهو يعلم أنّ " استعارة الأنصاف والأبيات من شعر الغير وإدخالها في القصيدة تضمين .حسن"[58] أقرّه قدماء النقّاد أنفسهم، وأنّه هو نفسه في قوله السابق :

وإنّ قنايَ لا تلينُ على الغمْزِ

ينظر إلى قول القائل : [59]

كــانتْ قنــايَ لا تليــنُ لغــامــزٍ فــألانهَــا الإصْبــاحُ والإمْســاءُ

وكأنّنا بابن اللبّانة يعلّق على ما جرى متندّرا بقول ابن الحدّاد :

وإنْ أنْكرتْ أفْهامُهمْ بعْضَ (سَطْوها) فقدْ عرفتْ أكْبادُهمْ صحّةَ (السطْوِ)

وإذا كانت هذه الظاهرة قد جلبت كثيرا من العداوة والبغضاء بين الشعراء، فإنّها في الجهة المقابلة دفعت بالقصيدة المادحة قدُما، وجعلت الشعراء يحتاطون لمثل هذا النقد، ممّا ساهم في إبداع وتطوير صورهم، وإحكام أسر لغتهم.

وإذا كان هذا شأن ابن الحدّاد في الإشادة بشعره، وموقف شعراء عصره منه، وموقفه هو من شعر بعضهم ممّا كان له أثر إيجابي على معاني قصيدة المدح وألفاظها،

58) كتاب الصناعتين، ص.47.
59) نفســه، ص.49.

فإنّنا نجد جلّ الشعراء يشيدون بقرائحهم الشعرية، وتوقّد أفكارهم في صياغة مدائحهم . فهذا ابن عمّار يجعل من سيرة ممدوحه المعتضد مندلا ذاك العود الطيّب الرائحة ، وأنّ فكره وما يصوغه من مدح فيه مجمر يحترق فيه هذا العود فيفوح طيبه ، وينمّ عن خلاله الطيّبة ، يقول : (60)

منْ ذا ينــافــحُني وذكْــرُكَ مــنْدلٌ أوْردتُــهُ منْ نــارِ فكْــريَ مجْمَرا

وهو مع هذا يشير إلى جوّ المنافحة السائد بينه وبين الشعراء تجاه ممدوحه ، ممّا يجعل أفكاره أكثر اتّقادا وقصائده فيه أحكم صوغا.

وينوّه ابن حصن الإشبيلي باختيار ألفاظه ومعانيه وقوافيه ، مشبّها أشعاره التي يتحف بها ممدوحه بالفتيات البكر العوان التي إذا ما همّ الرواة باستنشادها تبرقعت خجلا وحياء للدلالة على أنّها لم تُسمع من قبل وليس لها مثيل ، يقول : (61)

فدونَــكَ عــذْراءَ الــمعاني ابتدعْتُها عَــوانَ القــوافي خيِّــرَةَ المتــخيِّرِ

إذا مــا الــرواةُ اسْتنْــشدتْها تَبرْقَعتْ* لهــا أوجــهٌ منْ حشْــمةٍ وتــغيُّرِ

ويسوق صورة أخرى طريفة قريبة من هذه ، إذ يشبّه مدائحه التي يصوغها في ممدوحه مشقّقا لها أبكار المعاني بجيوب تشقّها أيدي الثاكلات حينما يفقدن عزيزا لديهنّ ، ولو أنّها أنشدت جريرا والفرزدق وهما من فحول الشعراء لأقرّا له بالسبق في ذلك ، يقول : (62)

يــشقّقُ أبْــكارَ الــمعــاني كــأنّها جيــوبٌ بــأيْدي الثاكلاتِ تُشقّقُ

.. لَوَ انَّ جريراً والــفرزْدقَ أُنْشِدتْ لأدّى جريرٌ حقّــها والــفرزْدقُ

---

60) محمّد بن عمّار الأندلسي، ص.194.

61) الذخيرة ، 1/2: 173. * تبرقعت: غطّت وجهها بالبرقع وهو القناع (المعجم الوسيط 51/1)

62) نفســه، 1/2: 179 ،180.

وينوّه ابن درّاج في إحدى مدائحه بعذوبة شعره وسحر بيانه حتّى كأنّه ريقة فتاة كاعب فيحلو إنشاده ، ويطيب ترداده لا في الأندلس فحسب وإنما في المشرق أيضا على ما فيه من فحول الشعراء ، يقول : (63)

رميْتُ آفاقَ العراقِ بشُرَّدٍ ليْس العجائبُ عنْدها بعجائبِ

منْ كلّ ساحرةٍ كأنّ رويّها في ألْسُنِ الراوينَ ريقةُ كاعبِ

ويقدّم الأسعد بن بليطة نفسه لممدوحه المعتصم بن صُمادح بأنّه فارس جحفل، وشاعر محفل ، ليستخدمه في الذود عن ملكه بسيفه وقلمه، واصفا ما يصوغه فيه من قصائد بالرياحين ذات العبير الطيّب، وبهذا وصفه ابن بسّام : " في وقته أحد الغرائب ، وأعجوبة في عيون العجائب..بعيد الهمم ، بليغا بالسيف والقلم.. فارس جحفل وشاعر محفل، فجرى في الميدانين، وارتزق في الديوانين "(64) ويقول الأسعد:(65)

أَعَدَّ لأعْدائكمْ صَعْدةً*1 ونصْلاً جرازا*2 وطرْفا رفَلْ*3

تنسّمْ إذا شئْتَ ريحانةً وهُزَّ إذا شئْتَ عضْباً أفَلْ*4

والأمثلة على إشادة شعراء الطوائف بأشعارهم متعدّدة لتدلّ على مدى تمكّنهم من ناصية اللغة الشعرية ، وقد وافقهم على ذلك نقّاد العصر على غرار قول ابن بسّام في الأسعد وغيره من شعراء الطوائف الذين ترجم لهم في ذخيرته ، وقول ابن خاقان في الأسعد نفسه : " سرد المعاني أحسن السرد ، وافترس المعاني كالأسد الورد،

63) ديوان ابن درّاج، ص. 111.

64) الذخيرة 2/1: 791.

65) نفسه: 800 ، *1 الصعدة: القصبة (كناية عن القلم) *2 الجراز: السيف القاطع، *3 الطرف الرفل: الخيل الكريمة الطويلة،

*4 العضب الأفل: السيف الذي تثلم من كثرة الطعن (كناية عن فروسيته).

فأبرز درر المحاسن من صدفها ، وأحرز ما شاء من فخر الإجادة وشرفها "[66] وقوله في أبي الفضل بن شرف البرْجي : " الناظم الناثر الكثير المعالي والمآثر ، الذي لا يدرك باعه ، ولا يترك اقتفاؤه واتّباعه ، إن نثر رأيت بحرا يزخر، وإن نظم قلّد الأجياد درّا تباهي به وتفخر ".[67]

وإذا كان هذا شأن الشعراء بشهادة النقاد أنفسهم فإنّهم كانوا أمام ملوك ذوّاقين للشعر، ومنهم الشعراء كذلك ممّا كان له أثر إيجابي على الشعر بصفة عامّة وعلى القصيدة المادحة بصفة خاصّة .

فكان لبني عبّاد " من الحنوّ على الأدب ما لم يقم به بنو حمدان في حلب، وكانوا هم وبنوهم ووزراؤهم صدورا في بلاغتي النظم والنثر، مشاركين في فنون العلم".[68] وكان المظفّر بن الأفطس صاحب بطلْيوس أديب ملوك عصره بلا منازع أحرص الناس على جمع علوم الأدب خاصّة من النحو والشعر ونوادر الأخبار، وكذلك كان ابنه المتوكّل ذا قدم راسخة في صناعتي النظم والنثر.[69] أما ابن رزين صاحب السهلة فكان " ضيّق الفناء ، جهم اللقاء أحذق الناس بحرمان من قصده.. وكان الشاعر إذا وفد عليه ، أخذ يناقشه الحساب ، ويغلق دونه الأبواب ، وينتحيه بضروب نقده.. حتى يخرج بين الحائط والباب ، ويرضى من الغنيمة بالإيّاب "[70] وقد أصبحت المريّة في عهد خيران العامري (ت 419هـ) [71] قاعدة من قواعد

---

66) مطمح الأنفس، ص.83.

67) قلائد العقيان، ص.263.

68) فضائل الأندلس وأهلها، لابن حزم وابن سعيد والشقندي، ص.32.

69) ينظر التكملة لكتاب الصلة، لابن الأبار، 392/1، والمعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد المراكشي، ص.74

70) الذخيرة 1/3، 49، 50.

71) تاريخ ابن خلدون 162/4. والبيان المغرب، لابن عذارى المراكشي، 166/3.

الأندلس الرئيسة ودولة من دول الطوائف الهامّة[72]، وتعدّ نونية ابن درّاج فيه من أحسن ما قيل في مدح الملوك ، إلاّ أن المريّة في المجال الأدبي شعره ونثره فقد اشتهرت ببني صُمادح : إذ كان المعتصم وآله كلّهم شعراء بما في ذلك بنته أمّ الكرم ، وقد أورد ابن سعيد أنّه " ملك تملّكه الإحسان وأطلعه الفضل غرّة في وجه الزمان فكأنّ أبا تمّام عناه بقوله :

تُحْـمـلُ أشْبـاحنـا* إلى مَـلِكٍ نـأْخـذُ منْ مـالهِ ومنْ أدبهْ "[73]

وذكر الفتح ابن خاقان أنّه " ملك أقام سوق المعارف على ساقها ، وأبدع في انتظام مجالسها واتّساقها ، وأوضح رسمها ، وأثبت في جبين أوانه وسمها ، لم تخل أيّامه من مناظرة، ولا عمرت إلا بمذاكرة أو محاضرة،..وكان له نظم أرج النفحة، بهج الصفحة، يصف به مجالس إيناسه، ويصرفه بين ندمائه وكاسه "[74]. وكان مجاهد العامري صاحب دانية مثلما وصفه لسان الدين بن الخطيب متميّزا " بخلال من الفضل من أشفّها العلم والمعرفة..ولاسيّما علم العربيّة فإنّه تحقّق به إلى ما يتصرّف من علم القرآن: قراءته ومعانيه، غريبه وتفسيره..وجمع من الكتب ما لم يجمعه أحد من نظرائه، وأتى إليه العلماء من كلّ صقع..فشاع العلم في حضرته حتّ فشا في جواريه وغلمانه "،[75] بيد أنّه كان من أزهد الناس في الشعر شديد الانتقاد له ولأهله، مما صعب مهمّتهم، وزهّدهم في مدحه.

---

72) H.PERES- LA POESIE ANDALOUSE EN ARABE CLASSIQUE AU XI SIECLE – PARIS –P:142.

73) المغرب 195/2، وديوان أبي تمام، ص 42. * أشباحنا : حاجاتنا.

74) قلائد العقيان ، ص.48.

75) أعمال الأعلام، ص.217.

وإذا كان هذا شأن بعض ملوك الطوائف إن لم نقل جلّهم، فلا شكّ أنّ شعراءهم يعملون جاهدين على الارتقاء إلى هذا المستوى في صناعة أشعارهم- ناهيك عن مجاراتهم الفحول من شعراء المشرق - كما قال أبو حفص عمر بن الشهيد: (76)

تُكسِّـــدُ سوقَ الـــدرِّ فيكَ قصائدي وتزْري بعرْف المسْكِ عنْكَ رسائلي
جللْتَ فـــجلّ القـــوْلُ فـــيك وإنّما يُقَدُّ لقدْرِ السيْـــف قدْرُ الـــحمائل*

أو كما قال ابن عبادة القزّاز: (77)

لمْ أخْـــترعْ فيكَ المديـــحَ وإنّـــما مـــنْ بحْركَ الـــفيَّاضِ هـــذا اللؤْلؤُ
فخـــرَ الزمـــانُ بنـــا لأنـــكَ حاتمٌ في جـــودِهِ ولأنّـــني المـــتنبِّئ

غير أن الشعراء على الرغم من كل هذا أصبحوا " في محيط ضيّق من المعاني وعدد محدود من الصور ومعجم مرسوم من الألفاظ والتراكيب "(78). وإذا ما " ضاق أحدهم ذرعا بالمعاني المطروقة والألفاظ المعروفة فأراد أن يخرج عن الحدود المرسومة والسنن المعلومة، سقط في التهويل والكذب والمبالغة "،(79)وقد اقتضى منه ذلك " تكوين علاقات سياقية بين المفردات تنحو منحى المبالغة في أداء ما تقصد إليه من معنى من أجل توكيد الصفة المراد خلعها على الموصوف، وتمكينها في ذهن المتلقي، وألحّ.. على استخدام بعض الصيغ اللغوية التي تنتظم في بنى تركيبية محدّدة، تتجلّى من خلالها دلالات المبالغة داخل السياق الشعري ".(80)

---

76) الذخيرة 2/1: 687. * الحمالة: ج حمائل: علاقة السيف ونحوه
77) نفســـه، ص.840.
78) المديح، سامي الدهّان، ص.35.
79) نفســـه، ص.37
80) قصيدة المديح في الأندلس . . ، ص.281.

ومن هذه الصيغ اللغوية اللافتة للانتباه صيغة المبالغة (فعّال) الدالة على موصوف بما تحمله من معنى الحدث، أي معنى المصدر على سبيل المبالغة والتكثير[81] كما هي الحال في مدح ابن زيدون لأبي الحزم بن جهور:[82]

بسّامُ ثَغْـرِ البِشْر، إنْ عَقدَ الحُبـا*1 فـرأيْتَ وضّـاحاً هنـاك، مَهيبا

إذ تكرّرت هذه الصيغة في شطري البيت صدره وعجزه في لفظي (بسّام، وضّاح) وعلى غراره قول ابن درّاج في مدح خيران :[83]

وبالخيْـرِ فتّـاحٌ، وبالخيْـرِ عـائدٌ وبالخيْـلِ ظعّانٌ، وللخيْـلِ طعّانُ

وهو بهذا يصوّره بأنّه كثير الفتح، كثير الطعن، كثير الظّعن على سبيل المبالغة والإمعان في مدحه.

وكما في قول ابن حصن الإشبيلي في مدح المعتضد :[84]

أخـو الحـرْبِ مشّاءٌ إليْها تَرهْوُكًا2 إذا سَهِك*3 الأبْطالُ تحْت السنَوَّرِ*4

للدلالة على كثرة خوض ممدوحه للمعارك وإبراز مدى قوّة بأسه وشجاعته، حتّى إنّه لا يتّقي بالدروع كما تفعل الأبطال، فتعرق وتفوح منها رائحة كريهة من جرّاء ذلك.

كذلك استعمل الشعراء في مدائحهم صيغة اسم التفضيل للمبالغة والتهويل في تصوير ممدوحيهم، وهي من الكثرة بمكان حتّى لا تكاد تخلو جلّ قصائدهم منها، وذلك تبعا لحرص كلّ واحد منهم على إثبات الفضائل جميعها لممدوحه، وتفضيله

81) ينظر اللغة العربية معناها ومبناها، د / تمام حسّان، ص.99.

82) الديوان، ص.132، *1 الحباء: ما يحبو به الرجل صاحبه ويكرمه به (المعجم الوسيط 154/1)

83) نفســـه، ص.91.

84) الذخيرة 1/2 : 172 *2 ترهوكَ: مشى كأنّه يموج في مشيته، *3 سهك: عرق فانتشرت منه رائحة كريهة، *4 السنور: لبوس من قدّ يُلبس في الحرب كالدرع. (لسان العرب/سنر 381/4).

على سائر الملوك. والأمثلة على ذلك عديدة ومتعدّدة، نورد منها قول ابن حصن الإشبيلي من القصيدة السابقة : (85)

إذا شَـهِدَ الهيْجـا فـأوَّلُ مـوردٍ حَرائـبَها عَـلاً وآخِـرُ مُـصْدِرِ
يُـفاجيـكَ عفْواً منْـهُ جود بنـانِهِ بأغْدقَ منْ صوْبِ الـغمامِ وأغْزر
ويغْشـاكَ دونَ الستْـرِ نـورُ جبينهِ بـأشْرقَ منْ ضوْء الـصباحِ وأنْور
تكفْكَـفتِ الأبْصارُ عـنْهُ بـمؤْدَمٍ* أغـرَّ طليـقِ الوجْهِ أرْوعَ مُبْشَر*

فأوّل وآخر، وأغدق وأغزر، وأشرق وأنور، وأروع وأغرّ، كلّها ألفاظ تفضيل تتالت في هذه الأبيات لإثبات الأفضلية للمدوح فيما نسب إليه .

وقول ابن شهيد في المؤتمن: (86)

أنْـجـبْتَـهُ للـمعـالي أسْـرةٌ نـزلـوا للـمجْدِ أعْلى الـرتَبِ

وقوله في بني الحكم : (87)

المُلْحفيـنَ رداءَ الشـمْسِ مجْـدهُمُ والمُنْعلـينَ الثريّا أخْمصَ الـقَدمِ
قـدّامَ أرْوعَ منْ قـوْمٍ وجـدْتُهُـمُ أرْعى لحـقِّ العُلا منْ سالفِ الأمَم

وقول ابن زيدون في ابن جهور: (88)

أغـرُّ إذا شِمْنـا سحـائـبَ جودهِ تهـلّلَ وجْـهٌ واسْـتهلّتْ أنـاملُ

---

85) السـابق، ص.172 و173.

* هو مؤدم مبشر: وصف للرجل الكامل أي جمع لين الأدمة ونعومتها وهي باطن الجلد، وشدة البشرة وخشـونتها وهي ظاهر الجلد

86) الذخيرة 1/1: 212

87) الديوان، ص. 148

88) ديوانه، ص155.

.. بـــني جهْـــورٍ عشتمْ بأوْفَـــرِ غِبْطةٍ فلوْلاكُمُ ما كان في العيْـــشِ طائلُ

وقوله في المعتضد : (89)

رآه اللـــهُ أجْـــودَ بـــالـــعطـــايـــا وأطْـــعنَ بـــالـــمكايدِ والـــرماحِ

وأفْرس للـــمنـــابرِ والمَـــذاكـــي*1 وأبْهى في البُـــرودِ وفي الســـلاح

وأمْـــنعَهُمْ حِمـــى عِـــرْضٍ مَصونٍ وأوْســـعَهُـــمْ ذُرا مـــالٍ مُبـــاح

.. فمـــنْ قـــاسَ المـــلوكَ إليْـــهِ جهْلاً، كمنْ قاس الـــنجومَ إلى بَـــراح*2

فأجود، وأطعن، وأفرس، وأبهى، وأمنع، وأوسع، كلّها تتظافر لتضفي على الممدوح صفة الأولويّة وأنّ الملوك لا يمكن أن تبلغ شأوه ، وتقاس عليه إلاّ عن جهل به وبخصاله المحمودة الفريدة.

وإذا تجاوزنا صيغ التكسير الدالة على جموع كثرة ، والتي وردت بشكل مطّرد في مدائحهم ، والقصر الادّعائي الذي هو ضرب من ضروب المبالغة(90) والتراكيب الانفعالية من توكيد ،ونداء ،واستفهام وأمر غير حقيقيين، التي " عبّـــر الشعراء من خلال دلالتها وإيحاءاتها عن حالات انفعالية متباينة تنتـــاب وجدانهم نتيجة التغيّر والتقلّب الذي يسود واقعهم المضطرب "(91) فإنّنا نجدهم قد توسّلوا كذلك بـــ " كم الخبرية " ويسمّيها النحاة " كم التكثيرية " " للإخبـــار عن معنى الكثرة فيما يضفونه على الموصوف من قيم اجتماعية وسياسية ودينيـــة علـــى

89) الديوان، ص 191و 192 *1 المذاكي: الخيل، *2 البراح: الأرض.

90) ينظر شرح التلخيص في علوم البلاغة، ص.74.

91) قصيدة المديح في الأندلس . . ، ص.288.

سبيل المبالغة والدعاية ."[92] ومن ذلك قول ابن الحدّاد في المعتصم:[93]

وكمْ لبأْسِكَ فيهمْ مِنْ مَصالِ*1 وغًى للّيْثِ منْ سمْعِهِ روْعٌ ومُجْتَبَأ*2

وقول ابن زيدون في المعتضد:[94]

قررْتَ به عيْناً، فكمْ ساد عِتْرةً وكمْ ساسَ سُلْطاناً، وكمْ زانَ مشْهدَا

إذ طاب للشاعر أن يكرّر لفظ " كم " ثلاثا.

وقول ابن حمديس في المعتمد :[95]

وكمْ منْ طُغاةٍ قدْ أخذْتَ نفوسَهمْ وأبْقيْتَ منْهُمُ الصدورَ العواليا

كما وظّفوا " لو الشرطية الامتناعية " " في مدائحهم لإطلاق خيال المتلقّي في تصوّر فعل الاستحالة المسوق مبالغة في تأكيد صفة ما في الممدوح "[96] على غرار قول ابن الحدّاد مؤكّدا خصلة الذكاء والجود في ممدوحه المعتصم :[97]

ذكيٌّ لو انَّ الشمْسَ تحْوي ذكاءَهُ لما وَجدَ الضمآنُ للماءِ موْردا

ولوْ في الحِدادِ البيضِ حِدّةُ ذهْنِهِ لما صاغَ داودُ الدلاصَ المسرَّدا

جوادٌ لوَ انَّ الجودَ باري يمينَهُ لكانَ قرارُ الحرْب في الناسِ سرْمَدا

---

92) السابق، ص.285.

93) شعر ابن الحدّاد، ص.36 *1 مصل فلان لفلان من حقه إذا خرج له منه (لسان العرب/مصل) *2 مجتبأ: ما يفزع منه ويهاب.

94) الديوان، ص229.

95) الديوان، ص.532.

96) قصيدة المديح في الأندلس، ص.285 و286.

97) الذخيرة 2/1: 721.

وكما في قول الأسعد في المعتصم أيضا: [98]

ولــوْ قــابلَ الشمْسَ المنيرةَ أظْلمتْ سناها ولــوْ أوْمَا إلى البدْر لانْحَطّا

وعلى غرار قول الحصري القيرواني مادحا أبا عبد الرحمن محمّد بن الطاهر صاحب مرسية مؤكّدا فيه صفة السخاء : [99]

لــوْ أنّ الصــخْرَ ســقــاهُ نــــدَى كــــفّيْــكَ لأوْرقَ جَــلْمَــدُهْ

والــركــــنُ لــوْ أنّــكَ لامِــسُــهُ لا بْــــيضَّ بــكفّــكَ أسْــودُه

وكما في قول ابن مَقانا الأشبوني في ممدوحه منذر بن يحيى صاحب سرقسطة، مؤكّدا فيه فضيلة الصبر وشدّة التحمّل ، والشجاعة عند لقاء الأعداء : [100]

لــوِ الــفَــلَكُ انْخــرَّ منْ فــوْقِــهِ عــليْــهِ بــأقْطــارِه مــا شَكــا

حَــمولٌ لأعْبــاءِ هــذا الزمــانِ ولا يــرْهبُ الــموْتَ عنْدَ اللقــا

وتضمّنت لغة المديح لدى شعراء الطوائف كذلك ألفاظا كثيرة تعكس الموروث الديني ، والتاريخي ، والثقافي للأمة " نلمس ذلك فيما يوظّفه الشعراء في مدائحهم من أسماء أنبياء وشخصيات تاريخية ودينية وأمثال عربية بهدف تشكيل أبنية فنّية تقترب في تأثيرها الدلالي وأبعادها الشعورية ممّا يطلق عليه في القصيدة الحديثة " تعدّد الأصوات" "[101].

---

98) الســـــابق، ص 800.

99) أبو الحسن القيرواني، ص.149.

100) الذخيرة، ص2/2 : 789.

101) قصيدة المديح في الأندلس . . ، ص292.

ومن أمثلة ذلك – بالإضافة إلى ما تخلّل هذه الدراسة – قول أبي محمّد ابن السيد البطليوسي في مدح المستعين بن هود :(102)

إلى مَـلِكٍ حـابـاهُ بـالمجْدِ يُوسفُ وشـادَ لهُ الـبيْتَ الرفيعَ سليْمانُ

وقول ابن الحدّاد في الإشادة بقصر المعتصم :(103)

لـوْ أبْـصرتـْه الفرسُ قدّس نورَهُ كـسرى وأخْبـتْ نـارَها شيرينُ

أوْ لـوْ بـدا للرومِ مُـعْجزُ صُنْعه أبـدى الـسجودَ إليْـهِ قُسْطنْطينُ

وممّا وظّفه هؤلاء الشعراء في لغة مدائحهم من أمثال حتّى تتّسم ببلاغة الإيجاز قول ابن درّاج في المنصور بن المنذر بن يحيى :(104)

ولْـيَعْلـمِ الأمْـلاكُ أنّيَ بـعْـدَهُمْ ألْفيْتُ كلّ الصيْدِ في جوْفِ الفرا*1

ورمـى علـيَّ رداءَهُ مـنْ دونهـمْ مَـلِكٌ تُـخيِّرَ للْعُـلا فتَـخيّرا

فـ" ألفيت كلّ الصيد في جوف الفرا " مثل يضرب لمن يفضّل على أقرانه .(105)

وقول ابن زيدون في أبي الوليد بن جهور من قصيدة مطلعها :(106)

هلْ عـهِدْنا الـشمْسَ تعْتـادُ الكِلَلْ**2 أمْ شهِدْنا الـبدْرَ يجْتـابُ*3 الحُلَلْ

---

102) خريدة القصر ، 480/3

103) شعر ابن الحدّاد ، ص85.

104) الديوان ، ص128. *1 الفرا: الحمار الوحشي.

105) مجمع الأمثال، للميداني، 11/3

106) الديوان، ص.126 و 127، *2 الكلل: غشاء رقيق يخاط كالبيت يتوقى فيه من البعوض ويعرف بالناموسية، *3 يجتاب: يلبس(وفيه كناية عن جمال الممدوح)

.. لا يزالُ منْ حاسديهِ مُكْثرٌ أوْ مُقلّ، سَبق السيْفُ العذَلْ

فـ " سبق السيف العذل " مثل قاله ضبّة بن إدّ ، لّما لامه الناس على قتله قاتل ابنه في الحرم ، يضرب للأمر فات فلا يمكن تداركه[107]، فسواء أأكثر حسّاده أم أقلّوا لومهم إيّاه على بطشه بهم فلم يبق أيّ معنى للّوم : إذ سبق السيف العذل .

وقول ابن الحدّاد في المعتصم : [108]

يا مَنْ يُضيفُ إليْهِ حاتمَ طيِّءٍ مرْعًى ولكنْ ليْس كالسعْدانِ*

فـ " مرعى ولكنْ ليس كالسعدان " يضرب مثلا لمن كثر خيره وعمّ فضله.

كما " استلهم الشعراء في لغة مدائحهم أيضا ألفاظ القرآن الكريم لإثراء تجاربهم الشعرية بإيحاءات الرمز الديني وتأثيره وبخاصّة إذا أرادوا خلع القيم الدينية على ممدوحيهم، وتنوّعت طرق التوظيف القرآني ما بين الإشارة إلى اسم السورة أو تضمين ألفاظها ومعانيها "[109] .ومن الأمثلة على ذلك - بالإضافة إلى ما ألمحنا إليه في سياق هذه الدراسة - قول ابن درّاج في ممدوحه المنصور منذر بن يحيى وآله :[110]

لهمْ براءةُ والأنفالُ إذْ ختمتْ والنصْفُ قسْمُهُمُ منْ آل عمْرانا

وكأنّ سورة براءة التي شُرع فيها القتال ، وسورة الأنفال التي جاء فيها الحديث عن القتال كذلك وعدم التولّي يوم الزحف ، ونصر الله للمؤمنين بملائكته الكرام ، وبيان توزيع الغنائم ، والحثّ على عدم التنازع ، والتوصية بالصبر، والإشادة بالمهاجرين الأوّلين، وسورة آل عمران بكلّ ظلالها تخصّهم لما كان لهم ولآبائهم العرب المهاجرين من دور في الجهاد ونصرة دين الله في الأندلس .

---

107) مجمع الأمثال، 97/2.

108) الذخيرة 2/1: 718، وشعر ابن الحداد، ص 89.

109) قصيدة المديح في الأندلس .. ، ص 294

110) الديوان، ص 134.

وكذلك قول ابن حمديس مسبغا على ديار المعتمد بن عبّاد صفة التقديس :[111]

ويـــا حبّـــذا دارٌ يـــدُ اللهِ مَـــسَّحتْ عـــليْها بتجْديدِ الـــبقاءِ فما تبْلى
مُـــقدَّســـةٌ لـــوْ أنّ مـــوسى كليمَهُ مشى قَدَمًا في أرْضها خـــلَعَ النعْلا

مستلهما ذلك من قول أحسن القائلين:{ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ } [سورة: طه 11 و 12]

وقول ابن مَقانا الأشبوني في مدح ابن حمّود :[112]

وجْهُ إدْريـــسَ بْـــنِ يحْيى بْـــنِ علِي بْـــنِ حمّـــودٍ أمـــيرِ المؤْمـــنينْ
خُـــطّ بـــالمسْـــكِ على أبْـــوابِهِ " اُدْخُلُوهَـــا بِـــسَـــلَامٍ آمِـــنِينْ "

إذ أنّ عجز البيت الثاني آية قرآنية من سورة (الحجر /46) من وزن بحر الرمل ذي الضرب المقصور (فاعلاتن ، فعلاتن ، فاعلان).

والغريب أنّ هذا التوظيف للآية القرآنية جاء ضمن قصيدة استهلّها بذكر الخمر وموظّفا فيها كذلك قوله جلّ من قائل: {وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ } [الصافات /48] إذ لم يبدّل منها إلاّ الكلمة الأولى ، تماشيا مع الوزن ، إذ يقول :[113]

قـــدْ بـــدا لي وضَحُ الصبْـــحِ المبينْ فـــاسْقنيهـــا قبْلَ تـــكْبيـــرِ الأذينْ

111) ديوان ابن حمديس، ص 378
112) الذخيرة 2/2: 792
113) نفســـــه: 791، * الأذين: الآذان ليتماشى مع الوزن

.. مَـعَ فتْيـانٍ كـرامٍ نُـجُـبٍ يَـتهـادوْنَ ريـاحيـنَ المـجونْ
وعـلـيْهمْ زاجـرٌ منْ حِلْمِـهـمْ ولـديْهمْ قـاصراتُ الطّرْف عينْ

هذا، ناهيك عن الظواهر السياقية الأخرى التي اتّسمت بها لغة المديح كتأثّرها بالبيئة الطبيعية، والحربية، وقد ذكرنا كثيرا منها في هذه الدراسة. وإذا كان الكلام " يحسن بجزالته وشدّة أسره وبالبعد عن " المغرب المستغلق البدوي ، والسفساف العامّي كما يحسن بسهولته ولينه، ورقّته وحسن موادّه وصيغه، إذ لا تنافي بين الجزالة والسهولة، وبين العذوبة والرصانة، والاشتمال على الرونق والطلاوة "[114] فإنّ " أجود الكلام ما يكون جزلا سهلا، لا ينغلق معناه، ولا يستبهم مغزاه، ولا يكون مكدودا مستكرها ، ومتوعّرا متقعّرا ، ويكون بريئا من الغثاثة ، عاريا من الرثاثة "[115] إذا كان الكلام على هذه الوتيرة ، " فإنّ لغة شعراء الطوائف في مدائحهم اتّسمت باستوائها وبعدها عن التعقيد ، وبابتعادها عن الألفاظ الخشنة والغريبة التي كان يستعملها قدماء الشعراء ، كما كان الحال في المشرق في نفس الفترة لأنّها لم تعد تناسب نفسية المجتمع الجديد وذوقه ومصادر إيحائه الأدبي "[116]، إلاّ ما كان من بعض المفردات التي تطلّب منّا التنقيب عن معناها في معاجم اللغة العربية والتي ربّما لم تكن بالنسبة إليهم غريبة. وقد تضمّن القرآن الكريم على سموّه من الغريب " كلمات معدودة وهي التي يُطلق عليها غريب القرآن. وكذلك تضمّن الحديث النبوي منه شيئا، وهو الذي يُطلق عليه غريب الحديث ".[117] وقد يلجأ الشاعر إلى اللفظة الغريبة لتناسب معناها الذي تحمله، وليس من أجل غرابة اللفظة في ذاتها ولذاتها ، قد يصعب معها ماذا قال ؟ ولكن قد يلذّ معها كيف قال ؟

---

114) الصناعتين، ص.63 ومنهاج البلغاء، ص.225.
115) نفســـــه، ص.73 و الاتباع والابتداع في الشعر الأموي، ص.333.
116) إشبيلية في القرن الخامس الهجري، صلاح خالص، ص85.
117) المثل السائر، لابن الأثير، 176/1.

3)- المستوى الإيقاعي:

ويشمل جانبين أساسين من القصيدة المدحية ، وهما الإيقاع الخارجي الذي يحدثه الوزن والقافية ، والإيقاع الداخلي أو الموسيقى الداخلية التي تتمّ من تجانس الألفاظ وترديدها وتوافق حركاتها وسكناتها ، ممّا يحدث إيقاعات مؤثّرة في الأسماع تعمل على إثارة الانفعالات المناسبة في نفس المتلقّي والممدوح على وجه الخصوص " ومجيء هذا النوع في الشعر يزيد من موسيقاه، وذلك لأنّ الأصوات التي تتكرّر في القافية، تجعل البيت أشبه بفاصلة موسيقية، متعدّدة النغم مختلفة الألوان يستمتع بها من له دراية بهذا الفنّ ويرى فيها المهارة والمقدرة الفنّية ".[118]

أ)- الإيقاع الداخلي:

ونتناوله على مستوى ما يحدثه كلّ من التجانس والترديد من موسيقى داخلية، تكسب قصائد المدح طاقات نغمية متعدّدة التأثير.

وهكذا " تنهض موسيقى التشكيل بالتجانس على أساس التشابه بين لفظين في الإيقاع..مع اختلافهما في المدلول، فإن اتّفق اللفظان في نوع الأصوات وعددها وترتيبها، وهيئتها الحاصلة من الحركات والسكنات كان التجانس تامّا، والإيقاع متطابقا، وإن اختلف اللفظان في واحد من الأربعة المتقدّمة كان التجانس ناقصا والإيقاع مختلفا "[119] وهو ما يُعرف كذلك عند بلاغيّينا القدماء بالجناس التام والجناس الناقص، وقد أدركوا صلة الإيقاع الذي يحدثه التجنيس بالمعنى المعبّر عنه، فقال الجرجاني، " وعلى الجملة فإنّك لا تجد تجنيسا مقبولا..حتّى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه وحتّى تجده لا يبتغي به بدلا، ولا يجد عنه حولا، ومن هناك كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه وأحقّه بالحسن وأولاه ما وقع من غير قصد من

---

118) موسيقى الشعر، إبراهيم أنيس، ص53.

119) قصيدة المديح في الأندلس . . ، ص.249، وينظر البديع تأصيل وتجديد، منير سلطان، ص.76.

المتكلّم إلى اجتلابه، وتأهّب لطلبه أو ما هو لحسن ملاءمته – وإن كان مطلوبا – بهذه المنـــزلة "[120]. وليس بالضرورة أن يُفهم من هذا الكلام أنّ عبد القاهر الجرجاني ينكر الجمال في جرس الأصوات، وخاصّة حين ربطه بالسمع في قوله: " وأحلى تجنيس تسمعه " كما فهم ذلك الدكتور إبراهيم أنيس[121]، وإنّما يعيب على المتكلّم بوجه عامّ التكلّف والتصنّع في ذلك.

ومن الأمثلة التي بوسعنا الاستشهاد بها على هذا الجانب الصوتي الذي توسّل به شعراء الطوائف لإثراء معجمهم الإيقاعي وتنويعه في قصائد مدحهم، والذي جاء عفو الخاطر مناسبا لما دعا إليه الجرجاني نورد من الصنف الأوّل، أي الجناس التام، قول ابن درّاج في مدح كرم المنصور منذر بن يحيى: [122]

وعوّضْـــتَنا منْ راحـــةِ الموْتِ راحةً سكنّـــا بـــها برْدَ الحيـــاةِ وظلّها

إذ جانس الشاعر بين " راحة " الدالّة على الارتياح والسكون والطمأنينة، وبين "راحة" الدالّة على كفّ اليد للدّلالة على الكرم والبسط والعطاء، ممّا أضفى على البيت لونا من التنغيم وخاصّة في شطره الأوّل، وتساوى بذلك إحساس الشاعر بدلالة اللفظين.

وشبيه بهذا قول ابن زيدون في الإشادة بكرم أبي الوليد بن جهور: [123]

فقبِـــلْتُ اليـــدَ مـــنْ بـــطْنِ يـــدٍ ظهْرُهـــا الدهْـــرَ، محَـــلٌّ للْـــقُبَلْ

إذ وقع التجانس بين لفظة "اليد" بمعناها المجازي للدلالة على العطاء والإحسان، وبين لفظة "يد" بمعناها الحقيقي والتي جعلها الشاعر محلاّ للقبل شكرا

120) أسرار البلاغة، ص.7.
121) موسيقى الشعر، ص.54.
122) ديوانـــه، ص.24.
123) الديوان، ص.129.

للممدوح أو تقديرا له، كما يزال يُعامل بعض الملوك إلى حدّ الآن. ولعلّ الدراية بفنّ الشعر هي التي تولّد الاستمتاع بنغمة تكرار هذه اللفظة بدلالتيها المجازية والحقيقية.

وقوله في الممدوح نفسه منوّها بعطاياه الجزيلة وكرمه الفيّاض: (124)

إذا حَسَبَ النَّيْلَ الزهيدَ مُنيلُهُ ... ما لِعطاياهُ الحِسَابِ حِسابُ

بحيث جانس الشاعر بين لفظتين متّفقتين مبنى، ومختلفتين معنى، وهما: "الحساب" بمعنى العطايا الكثيرة و"حساب" بمعنى العدّ والحصر. ولا شكّ أنّ في تكرارهما على هذا الشكل في عجز هذا البيت وقعا على أذن السامع أو المتلقّي.

وقول ابن عمّار في مدح المعتضد مشيدا بجيشه وفرسانه البواسل: (125)

مِنْ كُلِّ أبْيَضَ قَدْ تَقلّدَ أبْيضَا ... عَضْبًا وأسْمرَ قَدْ تَقلّدَ أسْمرَا

إذ وقع الجناس في صدر البيت ، بين" أبيض" وبين " أبيض" وفي عجزه ، بين " أسمر" وبين "أسمر": أي الفارس ذي البشرة البيضاء الذي تقلّد سيفا كلونه والفارس ذي البشرة السمراء الذي تقلّد رمحا كلونه أيضا " وهنا يسوّي إحساس الشاعر وعاطفته بين هذه الأركان المتجانسة لتضمّنها معنى الحدّة والشدّة والمنعة ". (126)

ونلحظ من هذه الأمثلة المدرجة أنّ كلّ لفظتين متجانستين شكّلتا بنية إيقاعية في سياق البيت الشعري. وتجدر الإشارة إلى أنّ هذا النوع من الجناس لدى شعراء الطوائف لم يتردّد كثيرا في سياق مدائحهم " نظرا لتطابق الإيقاع بين المتجانسين ممّا لا يلائم نزوعهم الدائم إلى تكثيف النغم واكتنازه وتنويعه بتمييزات صوتية تعلو

124) الديوان، ص.116.

125) محمّد بن عمّار الأندلسي، دراسة تأريخية، ص.191.

126) قصيدة المديح في الأندلس . . ، ص.251.

وتنخفض تطول أو تقصر، تقوى أو تضعف لخلق أنساق إيقاعية سخيّة مختلفة تصحب المدحة عند إنشادها فتجد موقعها في نفس المتلقّي وسمعه ".[127]

ونورد من الصنف الثاني، أيِ الجناس الناقص قول ابن درّاج كذلك في مدح خيران العامري:[128]

لكَ الخيْـرُ قـدْ أوْفى بعهْدِكَ خيْرانُ وبُـشْراك قـدْ آواك عِزٌّ وسُلْطانُ

إذ تبدو المجانسة جليّة بين " خير " و بين " خيران " للدّلالة في إحساس الشاعر على أنّ كلاّ منهما يصدر عن الآخر: فالخير يصدر عن خيران، وخيران كثير الخير، كما يبدو اختلاف ركني التجانس في عدد الأصوات ممّا يؤدّي إلى اختلاف زمن الإيقاع بين المتجانسين[129]، إذ قصُر في الركن الأوّل وطال زمن إيقاعه في الركن الثاني.

والأمر نفسه ينطبق على قول ابن عمّار في المعتضد مجانسا بين "راح" و "راحة ":[130]

لـمْ تُـرْوَ منْ راحٍ ولا مـنْ راحةٍ حـتّى ارْتوتْ بـدمِ العُـداةِ قَناكَا

حيث جاء اللفظ الأوّل أقلّ زمنا في تردّد ذبذباته الصوتية من اللفظ الثاني.

ويلاحظ عكس ذلك بالنسبة إلى زمن الإيقاع في الركنين المتجانسين وترتيبهما في قول ابن زيدون في مدح أبي الوليد بن جهور:[131]

يـأيّها القمـرُ الـذي لسَنـائـهِ وسَنـاهُ تـعْنو السَّبْـعُ في الأفْلاكِ

---

127) السـابق ، ص.252.

128) ديوان ابن درّاج، ص.86.

129) ينظر، البديع تأصيل وتجديد، ص.86.

130) محمّد بن عمّار الأندلسي . . ، ص.202.

131) ديوان ابن زيدون، ص.99.

إذ وقع الجناس بين " سنائه " في الشطر الأوّل، وبين " سناه " في الشطر الثاني، فطال زمن إيقاع الأوّل، وقصُر زمن إيقاع الثاني، وجاء الأوّل بمعنى الرفعة، وجاء الثاني بمعنى الضوء . وكما في قول ابن الحدّاد في مدح المعتصم: (132)

مُمَـلَّكٌ هُـوَ مِنْ سِمْتِ الهُـدَى مَلِكٌ وواحدٌ هو شَهْـدٌ للعُلى مَـلأُ

بحيث وقع الجناس في الشطر الأوّل من البيت بين "مملّك" بمعنى الملك، وبين "ملْك" بمعنى الحدّ والوسط، أي وسط طريق الهدى، وجاء اللفظ الأوّل أطول زمنا في تردّد ذبذباته الصوتية من اللفظ الثاني.

وينتج عن هذا كلّه " تنوّع في الإيقاع أو في الأثر السمعي الناتج عن عدد الموجات التي يحملها الصوت للأذن، ويترتّب عن هذا – بطبيعة الحال – تباين دلالة المتجانسين بدرجة تخدم المعنى الشعري المسوق وترتبط به ". (133)

و ممّا جاء في مدائحهم من الجناس الناقص مختلفا في مسافة إيقاعه نظرا لاختلاف نوع الأصوات بين المتجانسين(134) نكتفي بإيراد قول ابن درّاج في مدح المنصور منذر بن يحيى: (135)

إذا انهَـلَّ في الإسْـلامِ أَرْغَـدَ بالحيا وإنْ حَـلَّ في الأعْداءِ أَرْعدَ بالصقْعِ

فهذا النوع من الجناس في هذا البيت انعقد بين لفظي(أرغد)و(أرعد) المختلفين في صوت (الغين) و(العين) ، وهما صوتان حلقيان(136) " مما يترتّب عليه تقارب في مخرجيهما يؤدّي بدوره إلى تضييق مسافة اختلاف الإيقاع بينهما لاتّحادهما في صدور

---

132) شعر ابن الحداد، ص.34. و ينظر قصيدة المديح في الأندلس . . ص 252 .

133) قصيدة المديح في الأندلس . . ، ص.253.

134) ينظر البديع تأصيل وتجديد ، ص.77.

135) ديوان ابن درّاج، ص.255

136) ينظر الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، ص.87.

فعليهما عن شخص واحد ولكن في حالَيْن مختلفين، كما يعانق إيقاعيهما المختلفين اختلاف في المعنى ينطوي على لون من المفارقة المعنويّة بين موقف الممدوح من الإسلام حين يرغد أهله بأعمال الخير والبرّ و [بين] موقفه من أعدائه حين يرعدهم بصواعق الموت "[137]

وقول ابن عمّار مادحا المعتضد بن عبّاد: [138]

مـــازلْتَ تُغْـــني مَنْ غـــدا لكَ راجِياً نيـــلاً وتُفْـــني مَـــنْ طغى وتجبَّرا

وهذا النوع من الجناس انعقد في هذا البيت بين لفظي (تغني) في الشطر الأول، وبين (تفني) في الشطر الثاني، المختلفين في صوت (الغين) و (الفاء) وهما صوتان متباعدا المخرجين، فالغين صوت رخو مجهور يخرج من حيز الحلق[139]، أمّا الفاء فهو " صوت شفوي أسناني، ممّا ينجم عن ذلك اختلاف مسافة الإيقاع بين المتجانسين..وإذا كان الصوت الحلقي أبعد مسافة من الصوت الشفوي فقد جاء صوت الغين معبّرا بذبذباته الأطول عن معنى الحياة في استمرارها النسبي بالقياس إلى صوت الفاء الذي سيق مواكبا لمعنى الموت في سكون المرء بغتة وانقضاء حياته، ممّا يلائم طبيعة كونه صوتا شفويا أسنانيا، هذا بالإضافة إلى تحقيق لون من المفارقة المعنوية بين الغناء والفناء ". [140]

وقول حسّان بن المصيصي مشيدا بكرم ممدوحه الصرف وطبعه الجدّ: [141]

فـــجـــودُكَ صِـــرْفٌ عَـــداهُ المِزاجُ وطـــبْعُكَ جِـــدٌّ عَـــــداهُ المِـــزاحُ

137) قصيدة المديح في الأندلس . . ، ص.256.
138) محمّد بن عمّار الأندلسي . . ، ص.192
139) ينظر الأصوات اللغوية ، ص.87.
140) قصيدة المديح في الأندلس، ص.255..
141) الذخيرة 1/2: 444

فالجناس هنا انعقد كذلك بين " المزاج" بمعنى مزج الشراب، وبين " المزاح " بمعنى الهزل، وهما متباعدان في مخرجيهما، ممّا ينتج عنه اختلاف في مسافة الإيقاع لأنّ (الجيم) في الركن الأوّل " صوت غاري مجهور يخرج من وسط الحنك "[142] ، و"(الحاء) في الركن الثاني صوت حلقي مهموس ، مع الانتباه إلى ما يتضمّنه اختلاف الإيقاع من اختلاف في المعنى، وإبراز وجه المفارقة بين جود صرف غير مشوب ولا كدر، وطبع جدّ غير هزل ولا رخص ."[143]

* * *

أمّا موسيقى التشكيل بالترديد بوجه عامّ ، فتقوم " على أساس أن يعلّق الشاعر اللفظة في البيت بمعنى من المعاني، ثم يردّدها بعينها ، ويعلّقها بمعنى آخر[144]، ليفجّر طاقتها المعنوية في السياق الشعري الكثيف، ويولّد إيقاعا موسيقيا من خلال ترديد أصوات الكلمتين، يواكب المعنى المسوق ويتجاوب معه..واعتمد شعراء المديح الأندلسيون [عهد الطوائف] بشكل لافت على الترديد بإمكاناته السخيّة، وتنوّعت مواقعه داخل البيت الشعري ".[145]

ونكتفي بإيراد الأمثلة الآتية على هذا النوع من الإيقاع بالنسبة إلى الكلمة المرّددة واختلاف موضع تردّدها ؛ فمن ذلك قول ابن اللبّانة رابطا بين الغزل وبين المدح :[146]

هَزّتْ بنغْـمةِ لفْظهـا نفْسي كما هزّتْ بذِكْـراهُ أعالـي الـمنْبرِ

142) دراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار عمر، ص.271

143) قصيدة المديح في الأندلس . . ، ص.256.

144) ينظر، الطراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ابن حمزة العلوي، 82/3

145) قصيدة المدح في الأندلس . . ، ص.258.

146) شعر ابن اللبّانة الداني، ص53.

إذ وقع الترديد هنا في صدر المصراع الأوّل في كلمة (هزّت) التي تكرّرت بعينها في صدر المصراع الثاني من البيت أيضا.

وقول ابن حمديس في مدح المعتمد: (147)

تَقْتــدي الأمْــلاكُ في الــعدْلِ بــهِ وهْــوَ فيــهِ بــأبيــهِ يَــقْتــدي

فكلمة (تقتدي) تصدّرت الشطر الأوّل، وتردّدت في عجز الشطر الثاني من البيت مسندة إلى ضمير الغائب المفرد المذكّر.

وقول ابن الحدّاد في المعتصم: (148)

سِيّــانِ منْــهُ فُتوحٌ في العِدى طرأتْ ومُــعْتَفُــونَ على إنْعــامِه طَرأُوا

فموسيقى الترديد هنا جاءت في لفظة (طرأت) التي اتّخذت موقعا لها عجز المصراع الأوّل من البيت، وتردّدت مسندة إلى واو الجماعة في عجز المصراع الثاني أيضا.

وقول حسّان بن المصيصي: (149)

ولــمْ يُــبْقِ رُوميّــاً بفضْلِكَ مُشْركاً وإنْ أشْــركوا بالله عيسى بْنَ مرْيما

تفاءلْــتَ باسم الفتْــحِ لمــّا لقيْتَــهُ لتفْتَــحَ أمْراً خــالَهُ النــاسُ مبْهما

حيث وقع الترديد في عجز الشطر الأوّل، وحشو الشطر الثاني من البيت الأوّل، (مشركا – أشركوا) وفي حشو الشطر الأوّل، وحشو الشطر الثاني من البيت الثاني، (الفتح – تفتح).

147) ديوان ابن حمديس، ص.140.
148) شعر ابن الحدّاد، ص.118.
149) الذخيرة 1/2: 436.

وقول ابن درّاج: (150)

وسَعى إلى نيْلِ المُنى فكأنّما كانتْ مَساعيهِ أَمانِيَ للْمُنى

فلفظة (المنى) جاءت في حشو البيت من شطره الأوّل، وتردّدت في عجز شطره الثاني بالإضافة إلى تردّد لفظة (سعى ومساعيه.)

ومن الترديد ما وقع في حشو كلا المصراعين من البيت الشعري، كقول ابن الحنّاط الكفيف في مدح عليّ بن حمّود: (151)

روْضٌ يُحاكي الفاطميَّ شمائلاً طيباً ومزْنٌ قدْ حَكاهُ سماحَا

أعليٌّ إنْ تعْلُ الملوكَ فإنّهمْ بُهْمٌ جُعلْتَ أغرَّها الوضّاحا

ونلمس ذلك في (يحاكي) و(حكاه).

ومن هنا " يمكن أن نلحظ في كلّ مثال من الأمثلة السابقة لفظة مكرّرة علّقت في الموضع الأوّل بمعنى لم تعلّق به في الموضع الثاني، وإنّما علّقت بمعنى جديد يحقّق نوعا من الموازنة المعنوية بين شطري البيت، يعانقها إيقاع متطابق متوازن يتجاوب معها، ويتآزر على خلق المعنى الشعري.. لما يوفّره عند الإنشاد من قيم صوتية تتردّد على أبعاد متقاربة واضحة الصلة بالموسيقى..فتأنس لها الأذن." (152)

كانت هذه صورة عن الإيقاع الداخلي، فماذا كان على صعيد الإيقاع الخارجي؟

---

150) ديوان ابن درّاج، ص.260

151) الذخيرة 1/1: 445.

152) قصيدة المديح في الأندلس . . ، ص.261 و262.

ب)- الإيقاع الخارجي:

1- الأوزان:

إذا كان من السائد أنّ ما يميّز الشعر من النّـــثر هو موسيقاه وطريقة كتابته بالدرجة الأولى، فإنّ الوزن يمثّل البنية الإيقاعية الأساسة في موسيقى الشعر لكونه أعظم أركان الشعر وأولاها به خصوصية وهو مشتمل على القافية وجالب لها ضرورة، ولكونه وسيلة لجعل اللغة شعرا[153] حتّ إنّه قد يسبق الإحساس بالنغم عند متذوّق الشعر إحساسه بالفكرة أو الصورة ، بحيث إنّ الوزن يمكّن الكلمات من التأثير في بعضها بعض على نطاق واسع[154]، بما في ذلك التشكيل الصوتي الذي يمكن له أن يكون له تأثير انفعاليّ على الممدوح عند إنشاد المدحة . والتشكيل الإيقاعي الذي يرتكز على تردّد ظاهرة صوتية معيّنة على مسافات زمنية محدّدة[155] " بشكل منتظم، يمكّن المتلقّي دائما من تحديد التوقّعات التي ستحدث أو تحديد الفترة التي سيحدث فيها ما يتوقّع تردّده وهذا بطبيعة الحال يخلق فيه نوعا من الاستجابة الذهنية والحسّية."[156]

ولهذا " كان القدماء من علماء العربيّة لا يرون في الشعر أمرا جديدا يميّزه من النثر إلاّ ما يشتمل عليه من الأوزان والقوافي ".[157]

فالموسيقى الخارجية للقصيدة الشعرية ظلّت سائدة لدى شعراء الطوائف في مختلف الأغراض التي طرقوها وبخاصّة القصيدة المدحية، حتّ وإن حاول بعضهم الخروج عن نظام الوزن والقافية فيما عُرف بالموشّحات الأندلسية ، فإنّهم أخرجوها

---

153) ينظر العمدة لابن الرشيق، 99/1، وبنية اللغة الشعرية، جان كوهن، ترجمة محمد الولي..، ص.55.

154) ينظر مبادئ النقد الأدبي، إ. آ رتشارد ر، ترجمة د/مصطفى بدوي، ص.194.

155) ينظر في الميزان الجديد، د/محمد مندور، ص.232.

156) قصيدة المديح في الأندلس . . ، ص.271

157) موسيقى الشعر، ص.19.

بذلك عن نطاق الشعر، واشتُرط في خرجتها أن تكون إمّا بالعامية أو العجميّة إلاّ في الموشّحة المدحية فاشتُرط أن تظلّ معربة ولا يغتفر فيها اللّحن[158]، تماشيا مع مقام الممدوح الذي ينبغي أن يخاطب باللغة الرسمية على ما يبدو.

وقد صاغ هؤلاء الشعراء - كما أحصى ذلك د/أشرف - مدائحهم على أحد عشر وزنا من البحور الشعرية، غلبت عليها الأوزان الطويلة فبلغت نسبة تردّدها 75، 66 % من إجمالي عدد القصائد موزّعة كالآتي: الطويل بنسبة 20،46 %، والكامل بنسبة 92،33%، والبسيط بنسبة 89،19%. أمّا الأوزان الخفيفة ، فبلغت نسبة تردّدها 34،24% من إجمالي تلك القصائد موزّعة كالآتي: المتقارب بنسبة 36،36% والوافر بنسبة 09،29%، والخفيف بنسبة 73،12%، والرمل بنسبة 27،7%، والسريع بنسبة 27،7% والمتدارك بنسبة 64،3%، والمديد والمجتثّ كلاهما بنسبة 82،1%.[159]

ولعلّ غلبة الأوزان الطويلة راجع - حسَب هذا الإحصاء - إلى رغبة الشاعر المادح في التعبير عمّا يجيش بداخله إزاء ممدوحه بشيء من الإفاضة والتفصيل، ممّا حدا به إلى أن يصبّ تجاربه المدحية في أوزان طويلة كثيرة المقاطع ، ذات إيقاع ثقيل رصين، تتّسع مساحات تفعيلاته كمّا وكيفا للتعبير عن المثل العليا والفضائل المنشودة.

في حين إنّ انخفاض الأوزان الخفيفة إلى هذه النسبة قد يكون مردّه إلى ما ينتاب الشاعر من انفعال بممدوحه أثناء خبرة نفسية طارئة ، فيسوق شعره فيه على بحر قصير يتلاءم وسرعة التنفّس وازدياد النبضات القلبية .[160]

وقد حاول بعض النقاد والدارسين الربط بين وزن القصيدة وبين موضوعها على غرار حازم القرطاجنّي إذ يقول: " ولّما كانت أغراض الشعر شتّى وكان منها ما يُقصد به الجدّ والرصانة وما يقصد به الهزل والرشاقة ، ومنها ما يقصد به البهاء

158) ينظر دار الطراز، ابن سناء الملك، ص.40 و 41.
159) ينظر قصيدة المديح في الأندلس. . .، ص272 و273.
160) ينظر موسيقى الشعر، 196.

والتفخيم وما يقصد به الصغار والتحقير، وجب أن تحاكي تلك المقاصد بما يناسبها ويخيّلها للنفوس، فإذا قصد الشاعر الفخر حاكى غرضه بالأوزان الفخمة الباهية الرصينة، وإذا قصد في موضع قصدا هزليا أو استخفافيا وقصد تحقير شيء أو العبث به حاكى ذلك بما يناسبه من الأوزان الطائشة القليلة البهاء، وكذلك في كلّ مقصد". (161)

وذهبوا بذلك إلى أن الوزن بناء صوتي معنوي، وليس صورة صوتية مجرّدة يمكن فصلها عن مدلولها. (162)

والواقع أنّ محاولة الربط بين وزن القصيدة وموضوعها بشكل من الأشكال له من الشواهد ما يؤيّده ، كما له في الوقت نفسه ما يفنّده، ولذلك لا ينبغي أن يؤخذ هذا الربط مأخذ الإطلاق والكلّية، ويمكن أن يستفاد منه في تعليل بعض الظواهر الإيقاعية إذا ما توفّرت لها الأدلّة من استقراء وتحليل للظّروف والملابسات، والتأثيرات البيئية والعاطفية المرتبطة بها أشدّ الارتباط(163) ، لأنّ " الشاعر حين يريد أن يقول شعرا لا يحدّد لنفسه بحرا بعينه ، وإنّما هو يتحرّك مع أفاعيل نفسه، فيخرج الشعر في الوزن الذي يصدف له من الأوزان ". (164) وبهذا تظلّ المسألة على جانب من النسبية.

كان هذا ما يتعلّق بالوزن بوجه عامّ، نتعرّض بعده لما يتعلّق بالقافية، لتكتمل الصورة عن الإيقاع الخارجي.

---

161) منهاج البلغاء، ص.266، وينظر على سبيل المثال: المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها عبد الله الطيب، 74/1، واتجاهات الهجاء. في القرن الثالث الهجري – قحطان رشيد التميمي، ص.207

162) بنية اللغة الشعرية، ص.52.

163) ينظر مبادئ النقد الأدبي، ص.197.

164) الأسس الجمالية في النقد العربي،د/ عز الدين إسماعيل، ص.277.

2- القوافي:

يقول ابن رشيق: " القافية شريكة الوزن في الاختصاص بالشعر ولا يسمّى شعرا حتّى يكون له وزن وقافية ".[165] وهي كما عرّفها الخليل وهو الأصحّ، من " آخر حرف في البيت إلى أوّل ساكن يليه من قبله مع حركة الحرف الذي قبل الساكن".[166] أي أنها الساكنان الأخيران من البيت وما بينهما من حركات والحرف السابق لهما، فهي إذاً جماع متحرّكات وسواكن مرتّبة ترتيبا معيّنا.[167]

وترتكز القافية أساسا على حرف الروي الذي هو جزء لا يتجزّأ منها، والذي تُبني عليه القصيدة، وإليه تُنسب فيُقال همزيّة أو بائية تبعا لذلك[168]، وفيه تتجلّى دلالة الإيقاع، ممّا جعل بعضهم يقصر القافية عليه ويعرّفها به ، أي أنّها حرف الروي الذي يتكرّر في آخر كلّ بيت من أبيات القصيدة[169] للدّلالة على آخر ما يشبه الفواصل الموسيقية التي يتوقّع السامع تردّدها، ويستمتع بمثل هذا التردّد الذي يطرق الآذان في فترات زمنية منتظمة .[170]

وبالاستقراء لقصائد المدح في هذا العصر " تبيّن أنّها سيقت على تسعة عشر صوتا من أصوات الروي، تشكّل الأصوات المجهورة بينها نسبة 53،80% هي على التوالي الميم، اللام، والدال، والراء، والباء، والنون، والضاد، والياء، والألف المقصورة، في حين تشكّل الأصوات المهموسة بينها نسبة 37،16% هي على التوالي الحاء والفاء والكاف

---

165) العمدة 110/1.

166) نفســه، 110

167) ينظر القافية تاج الإيقاع الشعري، أحمد كشك، ص.13.

168) ينظر القافية في العروض والأدب، حسين نصار، ص.40.

169) ينظر موسيقى الشعر العربي، شكري محمّد عيّاد، ص.89.

170) ينظر موسيقى الشعر، إبراهيم أنيس، ص.273

والقاف والسين والطاء والهاء والصاد والتاء "[171]. غير أنّ رويّ الهمزة تردّد بنسبة 10،3% من إجمالي أصوات الرويّ ، وهو صوت ليس مجهورا ولا مهموسا.[172]

وعلى غرار محاولات ربط الوزن بالدّلالة على المعنى ، كذلك كان الشأن بالنسبة للقافية ، فزيادة على ما تحدثه من تطريب على المستوى الإيقاعي ترتاح له الأسماع ، فإنّها تعمل على المستوى المعنوي بوصفها عنصرا مكمّلا للمعنى أكثر من كونها عنصرا منفصلا عنه إذ أنّ " الكلمات تُقرن بعضها إلى بعض بالقافية فتتواصل أو تتقابل"[173] ، وهي بهذا " لا تظهر وظيفتها الحقيقية إلاّ في علاقتها بالمعنى ".[174]

وقد أورد حازم القرطاجنّي أنّه قال بعض العرب لبنيه: " اطلبوا الرماح فإنّها قرون الخيل وأجيدوا القوافي فإنّها حوافر الشعر أي عليها جريانه واطّراده ، وهي مواقفه . فإن صحّت استقامتْ جريتـــه وحسنت مواقفـــه ونهاياتـــه ".[175]

وبناء على هذا وعلى مدى غلبة ما اتّسمت به قوافي قصائد المديح في عهد الطوائف من وضوح سمعي وموسيقية ورنين خاصّ يميّزها على غرار ما يميّز صائت الكلم من صامته ومجهوره من مهموسه ، فقد " يكون لطبيعة المضمون الأرستقراطي – إن جاز التعبير – الذي تنضح به القصيدة المدحية علاقة ما بتغليب اختيار الشاعر الأندلسي للرويّ ذي الصوت المجهور الذي يرسم بإيقاعه الواضح أجواء .. تواكب معاني القوّة والشجاعة والشرف والكرم والبطولة والفروسية والمجد والمثالية التي تُخلع

171) قصيدة المديح في الأندلس . . ، ص.265.
172) الأصوات اللغوية، ص.90، وقصيدة المديح في الأندلس، ص.265.
173) نظرية الأدب، رينه ويليك..، ترجمة محيي الدين صبحي، ص.208.
174) بنية اللغة الشعرية، ص.74.
175) منهاج البلغاء، ص.271.

على الممدوح ".[176] ولعلّنا نجد جانبا من هذا في قول أبي حفص عمر بن الشهيد مادحا المعتصم بن صُمادح على بحر الكامل :[177]

لمّا دعتْكَ المَكْرُماتُ أجبْتَها ... لا وانياً عنْها ولا مُستثاقِلاَ

فهزَزْتَ منْ أُسْدِ الرجالِ قَوادِمًا ... وهَتَكْتَ منْ بُرْدِ الظلامِ حَبائلاَ

وسَرَيْتَ في القمرِ المنيرِ بمثلِه ... وجْهًا وأعْراقاً زَكَتْ وشَمائِلاَ

.. سَبْطُ اليدَيْن كأنَّ كلَّ غمامةٍ ... قدْ رُكِّبَتْ في راحتيْه أنامِلاَ

. . تَفْديكَ أنْفسُنا التي ألْبسْتَها ... حُلَلاً مِنَ النُّعْمى وكُنَّ عَواطِلاَ

لا عيْشَ إلاّ حيْثُ أنْتَ وإنَّما ... تَمْضي لَيالي العُمْرِ بعْدكَ باطلاَ

لا عُطِّلتْ منْكَ الحياةُ فإنّها ... لوْلاكَ ما سَرّتْ لبيبًا عاقِلاَ

وإنّما مثّلنا بهذه الأبيات لأنّها نالت من إعجاب المعتصم وحصلت على رضاه ، - كما ذكرنا سابقا - زيادة على مجيء حرف رويّها مجهورا متمثّلا في هذه اللام بذبذباتها الطويلة ممّا يضفي عليها قوّة الوضوح الصوتي في سمع المتلقّي.

إلاّ أنّ هذا الإعجاب - ولاشكّ - لا يرجع إلى القافية وحدها وكون حرف رويّها مجهورا وإنّما يرجع إلى عدّة عوامل أخرى ، وعلى رأسها نفسيّة الممدوح ، إذ أنّه لمّا احتجّ ابن الجزّار على المعتصم بأنّه أنشده داليته قبل ذلك أقرّ له بالفضل، وجازاه عنها بجائزتين الأولى لها والثانية لغمط إحسانها معلّقا على ذلك بقوله:" والله كأنّها ما مرّت بسمعي إلى الآن صدقت للسّعد هبّات ":[178]

ولهذا " يجدر الانتباه إلى أنّ هذا الربط بين المعنى والإيقاع - في تفسير غلبة اتّخاذ شاعر المديح الأندلسي المجهور رويّا لقوافي مدائحه - لا ينبغي أن يكون ربطا

176) قصيدة المديح في الأندلس، ص.266.

177) الذخيرة 2/1: 686.

178) نفح الطيب 413/3

مطلقا، وقضيّة مسلّما بها ؛ لأنّ ثمّة قصائد مدحية قد جاء رويّها صوتا مهموسا – كما ذكرنا – بالإضافة إلى أنّ الدراسات الصوتية الحديثة أكّدت أنّ أكثر الأصوات اللغوية شيوعا في الكلام هي الأصوات المجهورة، في حين تقلّ فيه نسبة شيوع الأصوات المهموسة ، فقد تُفترض علاقة ما تُفسّر من خلالها ظاهرة ما ولكنّ ذلك لا يعني اطّراد هذا التفسير على كلّ الظواهر ".[179]

ويتّضح من خلال استقراء قصائد المدح في هذه الفترة أيضا غلبة القافية المطلقة على القافية المقيّدة ، إذ " أنّ حركة الكسر تمثّل الجانب الأكبر من مجموع حركات رويّها ، حيث بلغت نسبة تردّدها 73،36%، تليها الضمّة بنسبة 74،32%، ثمّ تليها الفتحة بنسبة 34،24%، كما بلغت نسبة تردّد القافية المقيّدة 19،6% "[180] ، ممّا يكون له أثر ما على إيقاع قوافي القصيدة المدحية في عهد الطوائف بصفة خاصّة ، وعلى موسيقاها الخارجية بصفة عامّة .

179) قصيدة المديح في الأندلس . . ، ص267.

180) نفســـــه ، ص267.

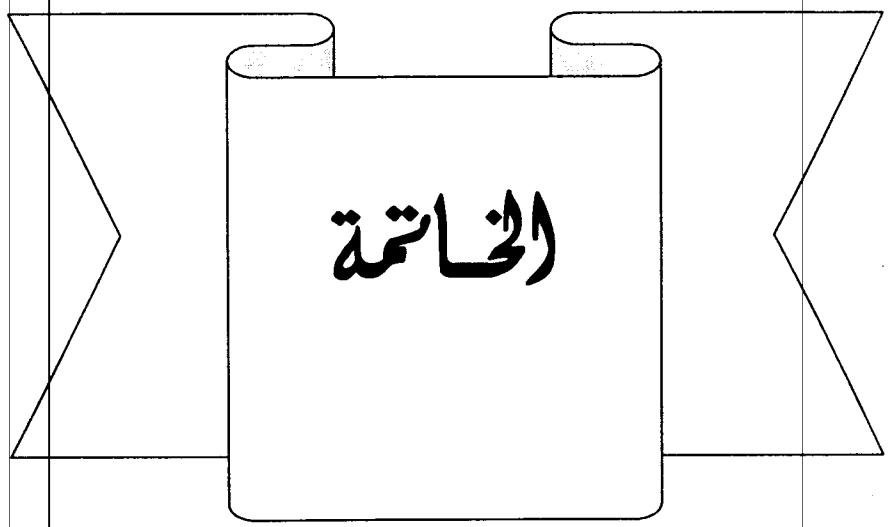
الخاتمة

الخـــاتـمـــة

وإذ نأتي على نهاية هذه الرسالة ، نستخلص ممّا سبق أنّ غرض المدح لم يكن من الأغراض الشعرية الأولى التي عرفها العرب ، وأنّ النابغة الذبياني هو أوّل من مدح الملوك وقبل الصّلة على الشعر، و أنّ الأعشى هو أوّل من سأل بشعره ، وجعله متجرا، وأنّ عمر بن الخطاب (ر) قد أشاد بالذكر الحسن كما أشاد بمديح زهير بن أبي سلمى لأنّه كان صادقا في مدحه ، وأنّ جريرا هو أوّل من قصّر في المدح و لم يطل فيه . ولمّا كثُر شعر المدح واتّخذ وسيلة للارتزاق هاجمه بعض النقّاد لما فيه من تصوير بعيد عن الواقع ، إلاّ أنّ ذلك لم يحدّ من غلوّ المدّاحين في مدحهم ، فاستساغ بعض النقّاد تبعا لهم الغلوّ والمبالغة في مدح الملوك خصوصا على أساس أنّ الملوك لا تمدح بما يلزمها فعله كما تُمدح العامّة . وتعدّ قصيدة المدح- في بعض جوانبها - صورة لشخصيّة مثالية يرسم الشاعر ملامحها بعد أن يستوحي صفاتها من القيم الخلقية التي يقدّرها المجتمع والتي تمثّلت في الفضائل الأربع وهي: الحكمة والعفّة والشجاعة والعدالة ، والتي فصّل القول فيها مسكويه في كتابه " تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق "، مبيّنا أنّها ليست فضائل في ذاتها إلاّ بقدر ما يتجاوز المتحلّي بها إلى أبناء جنسه أو إلى المجتمع ، ممّا يدلّ على أنّه ليس كلّ قصيدة مدح تزيّد وافتراء على الواقع ، وإن كان معظم المدّاحين مثل الرسّامين المصوّرين الذين يُظهرون أجمل ما في الوجوه ، وأحسن ما في المشاهد ، فيصوّرون من جانب واحد هو جانب الجمال والحسن.

وقد تبيّن أنّه على الرغم من تردّد مصطلح صورة وصور وتصوير لدى نقّادنا وبلاغيينا القدماء ، إلاّ أنّها عُدّت مصطلحا نقديّا حديثا انتقل إلينا عن طريق الغربيين .

وقد درج شعراء الطوائف على إضفاء الصورة المثالية على ممدوحيهم صادقين أو مبالغين من الناحية الخَلقية والخُلقية ، في وقت السلم وفي وقت الحرب ، فصوّروهم على جانب كبير من الجمال في كلّ هذا . فالممدوح عندهم جميل الوجه رشيق القدّ، قويّ البنية، فصيح اللسان ، ذكيّ ؛ يتمتّع بالعلم ، والحلم ، والحكمة ورجاحة العقل،

وحسن السياسة ، وإحكام التدبير ، والفطنة ، والكياسة ، والسخاء من كرم وجود وحباء وبذل وندى وعطاء ؛ وشجاعة متناهية ، وقوّة خارقة للعادة وبأس شديد ، وعدل في الأحكام ، وعفّة ، وطهارة، وورع ، وتقوى ، وعراقة نسب ؛ مركّزين على ثالوث القوّة الاقتصادية ، والقوّة العسكرية ، والقوّة الفكرية ، على وجه الترتيب، والمنضوية تحت فضيلة الكرم ، وفضيلة شدّة البأس ، وفضيلة العلم .

وبكلمة مختصرة ، فالممدوح في عهد الطوائف كلّ ما فيه أو ما هو عليه جميل، وكلّ ما يوصف به قليل.

كما تبيّن أنّ الذوق الجمالي والنقدي لعصر الطوائف قد تغذّى بنماذج الشعر المحدث في المشرق ونما في البيئة الأندلسية عن طريق الصورة أو الإكثار من التشبيهات، فكان عنصر التشبيه من أبرز العناصر التي التفت إليها الناقد المتذوّق كأبي الحسن الكاتب وابن الكتّاني الطبيب ، وكانت العناية بالصورة والتماس اللطيف والغريب منها، والإكثار من التشبيهات والاستعارات من أهمّ المعايير الجمالية التي شكّلت ذوق العصر، فتبارى شعراء الطوائف في تلبية هذا الذوق ، وعملوا على رسم صور لممدوحيهم في مختلف الفضائل وصوغها وعرضها في هيئات مختلفة حتّى تتّسم بطابع الجدّة والطرافة على غرار فضيلة الكرم ، و ما يُطلق عليه بتزاوج الصور مثلا.

كما عمل بعض ملوك الطوائف أنفسهم على خلق جوّ التنافس بين شعرائهم للإتيان بالصور الجميلة والمعاني المبتكرة التي تجلب قلوبهم وتطرب نفوسهم على غرار ما فعل المعتصم بن صُمادح ملك المرّية ، كما لم يكن هؤلاء بدعا من بين الشعراء الذين كانوا يولّدون من المعاني القديمة صورا يضفون عليها طابعهم الخاصّ بهم، ويضيفون إليها من إبداعهم فتبدو مبتكرة على غرار ما جادت به قرائح ابن زيدون ، وابن حمديس ، وابن عمّار، وابن الحدّاد ، وابن اللبّانة ، والأسعد بن بُلّيطة ، وأبي حفص عمر بن الشهيد ، وأبي الفضل بن شرف البرْجي ، وغيرهم .

فبدا ذلك جليّا في صورة الممدوح القائد الشجاع في ساحة القتال الذي احتدم على أشدّ ما يكون فيما بينهم - وللأسف- في أغلب الأحيان حبّا في الزعامة ، وتكالبا على السلطة ، ولم يكن صراعا عربيّا بربريّا كما طاب لبعضهم وصفه، عن حسن نيّة أو تأجيجا لنار الفتنة وإيقاظا لها .كما بدا في صورة البكارة والعذريّة التي أداروها في مدائحهم بالنسبة للمدن المفتوحة، وصاغوا منها العديد من الصور التي عُدّت مبتكرة.

واستمدّوا عناصر صورهم من طبيعة الأندلس الجذّابة بأرضها الخلاّبة، ومن جوّ الحرب والمعارك التي دارت بين بعضهم بعض، وبينهم وبين عدوّهم من الفرنجة، ومن الموروث التاريخي والديني والثقافي على وجه الخصوص.

وقد تبيّن أنّ ضيق مجال المعاني أمام الشاعر الأندلسي في هذا العهد جعله يلجأ إلى نفي ما مُدح به الملوك من قبل، وإثبات ذلك، وإضفائه على ممدوحه ليصبغ على مدحه نوعا من المصداقية، ويعمد إلى الإغراب في معانيه وصوره حتّى تخرج عن إطار المحاكاة والتقليد، وتكتسب نوعا من الجدّة أو الطرافة أو الابتكار، وترضي بطبيعتها هذه الذوق النقدي والجمالي لعصر الطوائف، وتحظى بإعجابه وتقديره، حتّى وإن لم يكن لها سند من عاطفة أو رصيد من انفعال يحقّقان لها الفاعلية النفسية، ممّا فسح المجال واسعا أمام الشاعر للجهد العقلي، والنشاط الواعي ، والمهارة في الصياغة اللغوية التي ينبغي أن تؤخذ في الحسبان لإدراك طبيعة الصورة عهدئذ ، وبيان أبعادها الجمالية .

فكان أن سيقت أمثلة على ذلك ، فبدا هؤلاء الشعراء متنافسين فيما بينهم لاحتلال المكانة العليّة لدى ممدوحيهم، عاملين على تنقيح أشعارهم، وإخراج قصائد مدحهم على أحسن ما يُرام ، مشيدين بإبداعهم ومتمكّنين من أدوات شعرهم.

وعلى الرغم من كلّ هذا، بدوا في محيط ضيّق من المعاني، وعدد محدّد من الصور، ومعجم مرسوم من الألفاظ والتراكيب، أدّى بهم إلى استخدام بعض الصيغ

اللغوية المنتظمة في بنى تركيبية محدّدة ، تتجلّى منها دلالات المبالغة والسقوط في التهويل في رسم الصور وتشكيلها.

وتضمّنت لغة المديح عندهم ألفاظا كثيرة عكست الموروث الديني، والتاريخي، والثقافي للأمّة مشكّلة بذلك أبنية فنّية اقتربت في تأثيرها الدلالي، وأبعادها الشعورية، ممّا يُطلق عليه تعدّد الأصوات في القصيدة الحديثة. واتّسمت هذه اللغة باستوائها وبعدها عن التعقيد في الأغلب الأعمّ .

وتظافر الإيقاع بنوعيه الداخلي والخارجي على إحداث إيقاعات نغميّة مؤثّرة في الأسماع مثيرة للانفعالات المناسبة في نفس المتلقّي بصفة عامّة والممدوح على وجه الخصوص ، مساهمة بذلك في الدّلالة إلى حدّ ما .

وظلّت القصيدة المدحية محافظة على القافية والأوزان التقليدية ، وشكّلت الأوزان الطويلة الكثرة الغالبة في بنائها وعلى رأسها البحر الطويل . أمّا القافية ، فجاءت على وجه الترتيب مطلقة ومقيّدة ، مجهورة ومهموسة مواكبة – إلى حدّ ما كذلك – معاني السخاء من كرم وجود وبذل وعطاء ، ومعاني القوّة والبطولة والفروسية والمجد والعظمة والمثالية التي خُلعت على الممدوح.

وما توفيقنا إلا بالله ، عليه توكّلنا ، وله الحمد في الأولى والآخرة .

وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما، عدد ما في علم الله، صلاة دائمة بدوام ملك الله.

فهرس المصادر والمراجع

القـرآن الكـــريم: ﴿ برواية حفص ﴾

1. أبو الحسن الحصري القيرواني- جمع وتحقيق محمد المرزوقي، والجلاني بن الحاج يحيى- مكتبة المنار، تونس، 1963.
2. الاتّباع والابتداع في الشعر الأموي، القصيدة المادحة أنموذجا – د/ محمد أمين المؤدّب – كلّية الآداب، تطوان، 1423-2002.
3. اتّجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري – قحطان رشيد التميمي – دار المسيرة، بيروت – دت –.
4. الاتّجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر – د/عبد القادر القط – النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1981.
5. أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث (1925– 1976)– محمّد بوحجّام – ج1 ، المطبعة العربية ، غرداية، 1407 – 1987 .
6. الإحاطة في أخبار غرناطة – لسان الدين بن الخطيب – ج2، تح/محمد عبد الله عنان، القاهرة، 1974.
7. الأخلاق – أحمد أمين – دار الكتاب العربي، بيروت، 1964.
8. الأدب العربي في الأندلس- د/ عبد العزيز عتيق – دار النهضة العربية، بيروت، 1976.
9. أسرار البلاغة في علم البيان – عبد القاهر الجرجاني – تح/محمد رشيد رضا، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، ط3، 1929.

10. الأسس الجمالية في النقد العربي – د/عز الدين إسماعيل – دار الفكر العربي، القاهرة، ط3، 1974.

11. أسس علم الجمال الماركسي اللينيني – جماعة من الأساتذة السوفيات – تعريب د/فؤاد مرعي، دار الجماهير العربية، دمشق، 1978.

12. الأسطورة في الشعر العربي الحديث – د/أنس داود – مكتبة عين شمس، مصر، –دت–

13. إشبيلية في القرن الخامس الهجري – د/صلاح خالص – دار الثقافة، بيروت، 1965.

14. أصل الإنسان وسرّ الوجود – باسمة كيال – مكتبة الهلال، بيروت، 1983.

15. الأصوات اللغوية – د/إبراهيم أنيس – مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة –دت–

16. الأصول الفنّية للأدب – د/عبد الحميد حسن – مكتبة الأنجلو المصرية، ط3، 1964.

17. إعتاب الكتّاب – ابن الأبّار– تح/د.صالح الأشتر ، دمشق، 1962.

18. أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، وما يجرّ ذلك من شجون الكلام – لسان الدين بن الخطيب – تح/ليفي بروفنسال، المطبعة الجديدة، الرباط، 1934.

19. الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني،ج20– تح/ عبد الستّار أحمد فراج – دار الثقافة ، بيروت ، ط6 ، 1404 –1983.

20. أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد)– الشريف المرتضى– تح/د. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1967.

21. أمراض القلوب وشفاؤها- ابن تيمية – المطبعة السلفية، القاهرة –دت-.

22. الإيضاح في علوم البلاغة – للخطيب القزويني- تح د/ عبد الحميد هنداوي، مؤسسة المختار، القاهرة، ط2، 2006.

23. الإيمان والحياة – د/يوسف القرضاوي – مكتبة وهبة ، القاهرة ، – دت -.

24. البديع تأصيل وتجديد – د/منير سلطان – منشأة المعارف، الإسكندرية، 1968.

25. بنية اللغة الشعرية – جان كوهن – ترجمة محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال للنشر، 1986.

26. البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب – ابن عِذارى المراكشي – ج3، تح ليفي بروفنسال، الرباط، 1929.

27. تاريخ ابن خلدون (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر) ج4، بيروت، 1974.

28. تاريخ الأدب العربي – د/عمر فرّوخ – دار العلم للملايين، بيروت ،1981.

29. التبيان في علوم القرآن – ابن القيّم الجوزية – تعليق طه يوسف شاهين، مكتبة أنصار السنّة المحمّدية، عابدين، مصر، 1386-1968.

30. التشبيهات من أشعار أهل الأندلس – ابن الكتّاني – تح د/إحسان عباس، بيروت، 1966.

31. التصوير والخيال (موسوعة المصطلح النقدي)- "ل" بريت – ترجمة عبد الواحد لؤلؤة، دار الرشيد، العراق –دت-.

32. تفسير ابن جزي – محمد بن أحمد بن جزي الكلبي – لجنة تحقيق التراث العربي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1403-1983.

33. تفسير القرآن العظيم – ابن كثير – دار الحديث القاهرة، 1408-1988.

34. التفسير النفسي للأدب – د/عز الدين إسماعيل – دار العودة، بيروت، 1962.

35. التكملة لكتاب الصلة – ابن الأبّار – ج1، نشر عزت العطار، القاهرة، 1955.

36. تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق- لأبي عليّ أحمد بن محمد بن يعقوب الرازي "مسكويه" – تقديم الشيخ حسن تميم، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط2، 1398.

37. جدليّة الخفاء والتجلّي، دراسات بنيوية في الشعر – د/كمال أبو ديب – دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1984.

38. الحيوان للجاحظ، ج3، تح/ عبد السلام هارون، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3،.1969.

39. خريدة القصر وجريدة العصر- العماد الأصفهاني- تح/ محمد المرزوقي، ومحمد العروسي المطوي، والجلاني بن الحاج يحيى، الدار التونسية للنشر والشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1973.

40. الخيال في الشعر العربي – محمد الخضر حسين – تح/ علي الرضا التونسي، ط2، 1972.

41. الخيال في مذهب محيي الدين بن عربي- د/محمود قاسم – القاهرة، 1969.

42. دار الطراز في عمل الموشّحات – ابن سناء الملك – تح د/جودت الركابي، دار الفكر، دمشق، 1980.

43. دراسات أدبية في الشعر الأندلسي – د/سعد إسماعيل شلبي– دار نهضة مصر للطبع والنشر ، الفجالة ، القاهرة ، 1372–1973 .

44. دراسة الصوت اللغوي – د/أحمد مختار عمر – عالم الكتب، القاهرة، 1976.

45. ديوان أبي تمّام، مصر،– دت–.

46. ديوان ابن حمديس، قدّم له وصحّحه د/إحسان عبّاس ، دار صادر، بيروت، 1379–1960.

47. ديوان ابن درّاج القسطلّي، تح د/محمود عليّ مكّي، المكتب الإسلامي، دمشق، 1961.

48. ديوان ابن زيدون، تح/ كرم البستاني، دار صادر، بيروت، 1975.

49. ديوان ابن شهيد الأندلسي، جمع شارل بيلا، دار المكشوف، 1963.

50. ديوان ابن عبدون ، دار صادر، بيروت، 1958.

51. ديوان المعاني – أبو هلال العسكري – دار الجيل، بيروت، –دت–.

52. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة – ابن بسّام الشنتريني– تح/د إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1981.

53. رايات المبرّزين وغايات المميّزين – ابن سعيد – تح/ د. النعمان عبد المتعال القاضي – المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1973.

54. الرحلة في الأدب - د/شعيب حليفي - رؤية للنشر والتوزيع، 2006.

55. رسائل ابن أبي الدنيا، جمعيّة النشر والتأليف الأزهريّة، ج1، 1354-1935.

56. الروض المعطار في خبر الأقطار- محمد عبد المنعم الحميري- تح د/إحسان عباس، ط2، بيروت، 1980.

57. زاد الميعاد، - ابن القيّم - مراجعة طه عبد الرؤوف طه، دار إحياء التراث، بيروت -دت-.

58. سوسيولجية الغزل العربي، الشعر العذري نموذجا - طاهر لبيب - ترجمة د/إبراهيم الكيلاني، دمشق، 1981.

59. شرح التلخيص في علوم البلاغة - الخطيب القزويني - تح/ محمّد هاشم دويدي، دمشق، حلبوني، 1970.

60. شعر أبي عبد الله بن الحدّاد الأندلسي، جمع وتحقيق وتقديم : منال منيزل ، مؤسّسة الرسالة، بيروت، 1405-1985.

61. شعر ابن اللبّانة الداني، تح د/ محمّد مجيد السعيد، جامعة البصرة، 1977.

62. الشعر الجاهلي تطوّره وخصائصه الفنّية - د/ بهي الدين زيان - دار المعارف ، القاهرة - دت -.

63. الشعر في عهد المرابطين والموحّدين بالأندلس- د/ محمد مجيد السعيد- دار الرشيد، الجمهورية العراقية، 1980.

64. الشعر والتجربة - أرشيبالد مكليش - ترجمة سلمى الخضراء الجيوسي، دار اليقظة العربية، بيروت، 1963.

65. صحيح البخاري، ج4، دار الفكر، بيروت، 1981.

66. الصورة الأدبيّة – د/مصطفى ناصف – دار الأندلس، ط2، 1981

67. الصورة الشعرية – سيسل دي لويس – ترجمة أحمد نصيف الجناني، مالك ميري سليمان، حسن إبراهيم، دار الرشيد، الجمهورية العراقية – دت–.

68. الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي – د/جابر عصفور – دار المعارف، القاهرة، 1980.

69. الصورة الفنية في شعر أبي تمّام – د/عبد القادر الرباعي – أربد، الأردن، 1980.

70. الصورة في الشعر العربي حتّى أواخر القرن الثاني الهجري – د/علي البطل ــ دار الأندلس، بيروت، 1980.

71. الصورة والبناء الشعري – د/محمد حسن عبد الله – دار المعارف، القاهرة، 1981.

72. الطراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز – يحيى بن حمزة العلوي – مطبعة المقتطف، القاهرة، 1914.

73. ظهر الإسلام– أحمد أمين – ج3، دار الكتاب العربي،بيروت، ط5 ،1373 هـ– 1953

74. العمدة في صناعة الشعر ونقده – ابن رشيق القيرواني – تح د/مفيد قميحة، دار الكتاب العلمي، بيروت، 1983.

75. عيار الشعر – ابن طباطبا العلوي – تح /عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت ، 1982.

76. الغزل منذ نشأته حتّى صدر الدولة العباسية– لجنة من أدباء الأقطار العربية– دار المعارف، مصر، 1954.

77. فضائل الأندلس وأهلها – ابن حزم وابن سعيد والشقندي – نشر المنجد، دار الكتاب، 1968.

78. فنّ الأدب (المحاكاة) – د/ سهير القلماوي- مطبعة البابي الحلبي، مصر، 1953.

79. الفنّ ومذاهبه في الشعر العربي – د/ شوقي ضيف – دار المعارف بمصر،ط4، 1960 .

80. في ظلال القرآن – سيّد قطب – دار الشروق، بيروت، ط8، 1399-1979.

81. القافية تاج الإيقاع الشعري – د/أحمد كشك – القاهرة، 1983.

82. القافية في العروض والأدب – د/حسين نصار – دار المعارف، القاهرة، 1980.

83. قصيدة المديح في الأندلس، قضاياها الموضوعية والفنّية، عصر الطوائف – د/أشرف محمود نجا- دار الوفاء، الإسكندرية، 2003.

84. قلائد العقيان في محاسن الأعيان – الفتح بن خاقان – مصر 1302.

85. كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، – أبو هلال العسكري – دار الكتب العلمية، بيروت 1981.

86. كوليريدج (نوابغ الفكر الغربي) – د/محمد مصطفى بدوي – دار المعارف، مصر، دت.

87. لا تحزن – د/عائض القرني – مكتبة العبيكات، ط14، 2004.

88. لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت – دت-.

89. اللغة العربية معناها ومبناها – د/تمّام حسّان – الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1979.

90. المائة الأوائل – مايكل هارت – ترجمة خالد سعد عيسى والمحامي أحمد غسان سبانو، دار قتيبة، 1979.

91. مبادئ النقد الأدبي– إ.آ. رتشاردز– ترجمة د/ مصطفى بدوي، المؤسسة المصرية العامة للطباعة والنشر، القاهرة، 1963.

92. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر – ابن الأثير – ج1 تح د/ أحمد الحوفي و د/ بدوي طبانة، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، 1960.

93. مجمع الأمثال للميداني – تح /د محمد أبو الفضل إبراهيم– مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، 1977.

94. محمّد بن عمّار الأندلسي، دراسة أدبيّة تأريخيّة – جمع وتح /د صلاح خالص – مطبعة الهدى، بغداد، 1957.

95. المديح – سامي الدهّان – دار المعارف، ط4، القاهرة، 1980.

96. مذكّرات الأمير عبد الله – ابن بلقين – تح/ ليفي بروفنسال، مصر، 1955.

97. المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها – د/ عبد الله الطيب المجذوب – ج1، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1955.

98. ابن مسكويه، مذاهب أخلاقية – الشيخ كامل محمّد عويضة – دار الكتب العلمية، ط2، بيروت – 1413-1993.

99. مشكلة الفنّ – د. إبراهيم زكريا – دار مصر للطباعة ، القاهرة – دت–

100. مطمح الأنفس ومسرح التأنّس في ملح أهل الأندلس – الفتح بن خاقان ــ قسطنطينية، 1302.

101. معارج القدس في مدارج معرفة النفس – أبو حامد الغزالي – شركة الشهاب، الجزائر، 1989.

102. المعجب في تلخيص أخبار المغرب – عبد الواحد المراكشي – القاهرة، 1949.

103. المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي الشريف – مطبعة بريل، ليدن، 1967.

104. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم – محمّد فؤاد عبد الباقي– دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1364– 1945

105. المعجم الوسيط – إخراج د/إبراهيم أنيس وآخرين – دار الفكر ، – دت –

106. مع شعراء الأندلس والمتنبي، سير ودراسات – إميليو غرثية غومث – تعريب د/الطاهر أحمد مكّي، دار المعارف،القاهرة، ط2، 1398 – 1978 .

107. المغرب في حلى المغرب – ابن سعيد – تح د/ شوقي ضيف، دار المعارف القاهرة، 1978.

108. مفهوم الشعر عند روّاد الشعر العربي الحرّ – د/فاتح علاق – منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، 2005.

109. مكارم الأخلاق – الشيخ رضي الدين بن الإمام الطبرسي – مصر، 1318.

110. ملامح الشعر الأندلسي – د/ عمر الدقاق – دار الشروق العربي بيروت ، – دت –

111. منهاج البلغاء وسراج الأدباء – حازم القرطاجنّي – تح /محمد الحبيب بن خوجة ، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت 1981.

112. المنهجية في علم الاجتماع الأدبي – لوسيان غولدمان – ترجمة مصطفى المنساوي، 1981.

113. الموازنة بين أبي تمّام والبحتري للآمدي – ج2، تح/ السيد أحمد صقر، دار المعارف بمصر، ط4 –دت–.

114. موسيقى الشعر العربي – د/محمد شكري عيّاد – ط2، دار المعرفة، القاهرة، 1978.

115. نظريّة الأدب – رينيه ويلك وأوستن وارين – ترجمة محيي الدين صبحي، مراجعة د/حسام الخطيب، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 1985.

116. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب – المقري التلمساني – تح د/إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1388-1968.

117. النقد الأدبي أصوله ومناهجه – سيد قطب – دار الشروق، ط5، بيروت، 1403-1983.

118. النقد الأدبي الحديث أصوله واتّجاهاته – أحمد كمال زكي – دار النهضة العربية، ط2، بيروت، 1981.

119. النقد الأدبي الحديث – د/محمد غنيمي هلال – دار العودة، بيروت 1973.

120. نقد الشعر– قدامة بن جعفر–مطبعة الجوائب بالأستانة العليّة،1302هـ

121. الوصايا – محيي الدين بن عربي – دار الإيمان، دمشق، 1406-1986.

* * *

122. الأدب في المريّة في عهد بني صُمادح – الغوثي، العربي الشريف – رسالة ماجستير – جامعة حلب – 1407-1987

* * *

123. الآداب، مجلّة جامعة قسنطينة، عدد1، 1415-1994

124. مجلّة المجمع العلمي العربي بدمشق، مجلد 81، ذو الحجّة 1426 كانون الثاني "يناير" 2006.

* * *

125. LA POESIE ANDALOUSE EN ARABE CLASSIQUE AU XI SIECLE – H.PERES - PARIS 1937.

فهـــرس المـــوضوعات

الموضوع:	الصفحة:
شكر وتقدير	
الإهـــداء	
مقـــدّمة	ا
مدخل إلى غرض المدح والصّورة الشعرية	**7**
أ)ـ غرض المدح:	7
ب)ـ فضائل الممدوح:	13
1) لمحة عامّة عن الفضائل.	13
2)الفضائل الأربع:(مسكويه نموذجا).	19
ج) الصورة الشعرية:	30
الفصل الأوّل: صورة الممدوح الخَلقية والخُلقية	**46**
أ) صورة الممدوح الخَلقية:	46
ب) صورة الممدوح الخُلقية:	57
1- فضيلة الكرم :	57
2- فضيلة شدّة البأس :	70
3- فضيلة العلم :	73
4- فضائل أخرى:	80
الفصل الثاني: صورة الممدوح الرسمية	**90**
1ـ صورته في السلم:	90
2ـ صورته في الحرب :	107
الفصل الثالث:	**125**
جماليات صورة الممدوح:	**125**
1ـ المستوى التصويري:	125
2)ـ المستوى اللغوي:	143
3)ـ المستوى الإيقاعي:	161
ا)- الإيقاع الداخلي:	161
ب)- الإيقاع الخارجي:	170
1- الأوزان:	170
2- القوافي:	173

الخـــاتـــمـــة **178**
فهرس المصادر والمراجع 182
فهـــرس المـــوضوعات..... 194